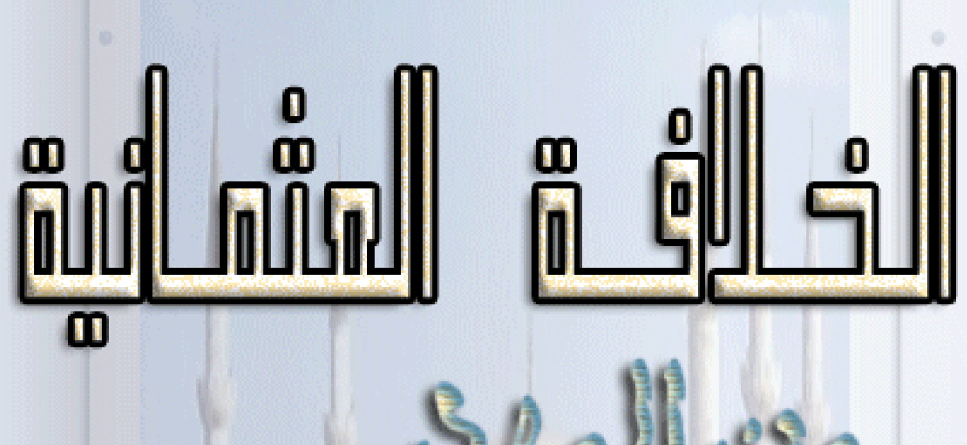
www.smart10.com

محمد خير فلاحة



من المهد
الى اللحد





دراسة موضوعية تبين أحوال السلاطين
وما كانت عليه من حضارة التزيين
ثم ما تلاها من تهور العابثين







Copy Right© 2005

!أيها المؤرخون: لا تظلموا العثمانيين المسلمين

بقلم: زياد محمود أبو غنيمة

مقدمة

المؤرخين لم يكونوا موضع اهتمام قبل أن يدخل الأتراك العثمانيون في الإسلام، لم يكونوا موضع اهتمام جاد من ذكرهم إلا من خلال إشارات عابرة. وحين دخل الأتراك جاد من المؤرخين المسلمين وغير المسلمين، فلم يردْ الصورة وأصبحوا محط أنظار المؤرخين المسلمين وغير المسلمين، بيد أن العثمانيون في الإسلام انقلبت وهلة يخيل المسلمين أبدوا اهتماماً ملحوظاً بدراسة تاريخ الأتراك العثمانيين المسلمين. ولأول المؤرخين من غير المسلمين كان ينطلق من منطلق علمي للمرء أن اندفاع المؤرخين من غير المسلمين في دراسة تاريخ العثمانيين علمية منصفة، ولكن ما أن يطلع المرء على ما أفرزته جهود سليم، هدفه تتبع العثمانيين المسلمين بأمانة من دراسات عن تاريخ العثمانيين المسلمين، حتى يكتشف أن الغالبية العظمى منهم المؤرخين من غير المسلمين الظاهرة والباطنة، لتكون تجاهلوا، وتناسوا مقتضيات الأمانة العلمية والإنصاف، بل أطلقوا العنان لأحقادهم قد العثمانيين المسلمين وإلصاق عشرات الافتراءات التي لا هي المنطلق الذي ينطلقون من خلاله في تشويه تاريخ بالأتراك العثمانيين المسلمين. ولئن كنا لا نستغرب أن تصدر مثل تلك الافتراءات عن تسندها أية بينات تاريخية أيها الذين آمنوا لا تتّخذوا أقوام فضح الله عز وجل نواياهم تجاه الإسلام والمسلمين في قوله تعالى جل شأنه: (يا بدتِ البغضاءُ من أفواههم وما تُخفي صدورهم أكبر قد بيّنا لكم بطانةً من دونكم لا يألونكم خبالاً ودّوا ما عنتُّم قد .[تعقلونَ) [آل عمران: ١١٨ الآياتِ إن كنتم

ولئن كنا لا نستغرب أن يحمل الحقد الأسود أولئك المؤرخين على تجاهل وتناسي أبسط قواعد مقتضيات الأمانة العلمية في عملية التاريخ للأتراك العثمانيين المسلمين، فإن الذي نستغربه أشد الاستغراب، بل ونستهجنه بشدة أن ينزلق الكثير من المؤرخين المسلمين، في حمأة عملية التزوير والتشويه والبهتان التي ألصقت بتاريخ العثمانيين المسلمين ..

من ذلك مثلاً، تلك الفرية اللئيمة التي لا يكاد يخلو منها إلا النذر اليسير من الكتب التي تؤرخ للعثمانيين المسلمين، والتي تزعم أن السلاطين العثمانيين كانوا يملكون الحق، بموجب فتوى شرعية إسلامية، في قتل من يشاؤون من إخوانهم أو بني رحمهم، أو أقاربهم، بحجة الحفاظ على وحدة المسلمين، ولقطع الطريق على أية فتنة يمكن أن تبرز إذا حاول أحدهم المطالبة بالسلطة لنفسه .

وكان آخر ما وقع عليه نظري من ترديد لهذه الفرية ما جاء في مقال للأستاذ إبراهيم محمد الفحام في عدد المحرم ١٤٠٢ هـ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨١م من مجلة العربي التي تصدر في الكويت، حيث ذهب إلى القول بأن السلاطين العثمانيين الجدد اعتادوا عند توليهم مقاليد السلطة أن يقتلوا إخوانهم جميعاً، ليأمنوا محاولات اغتصاب الملك، وأن هذه الظاهرة تكررت مراراً في تاريخ الدولة العثمانية حتى شمل القتل الإخوة الأصاغر سناً. وإن كنتُ لا أنفي ولا أنكر وقوع العديد من حوادث التصارع بين بعض السلاطين العثمانيين وبين بعض إخوانهم، بل وأحياناً بينهم وبين أبنائهم، وأن بعض هذه الصراعات كانت تنتهي بمقتل أحد الأطراف المتصارعة، إلا أنني أنفي، وبكل شدة، وبإصرار، ما يزعمه الزاعمون من وجود فتوى شرعية إسلامية تبيح لكل سلطان عثماني جديد أن يقتل من يشاء من إخوانه، أو بني رحمه، بحجة المحافظة على وحدة المسلمين منعاً لوقوع الفتنة .

أقول هذا.. وأتساءل :

أليس من مقتضيات أمانة التوثيق العلمي والتاريخي أن يقدَّم بين يدي أية رواية تاريخية بالبينات التي تدعم صحتها، من تحديد للأسماء والأمكنة والأزمنة، وتبيين سلسلة الرواة الذين تناقلوا الرواية، إلى أن وصلت إلى راويها الأخير؟ ثم أليس من مقتضيات أمانة التوثيق العلمي والتاريخي، أن لا يُكتَفى بالتعميم المبهم، بعبارات مبهمة، في رواية تحمل تهمة خطيرة لشعب بأسره هو الشعب التركي المسلم، بل الأمة بأسرها، هي أمة الإسلام، بل للإسلام ذاته الذي كان العثمانيون يحملون لواءة ويمثلونه آنذاك..؟ أين نص الفتوى الشرعية التي يزعم الزاعمون أنها تبيح للسلاطين العثمانيين قتْل بني رحمهم من غير أي مسوغ شرعي؟

أين أسماء العلماء المسلمين الذين أفتوا الفتوى المزعومة هذه؟ وفي زمن أي من سلاطين بني عثمان على التحديد صدرت؟ لقد قرأت بضعة وعشرين مرجعاً، عربياً وتركياً وإنجليزياً، تؤرخ للعثمانيين المسلمين، فما وجدت من بينها مرجعاً واحداً يذكر نص الفتوى المزعومة، أو يذكر اسماً لعالم واحد تنسب الفتوى إليه، بل لقد اكتفى كل مرجع عند ذكر هذه الفرية بسردها وكأنها يقين لا يرقى إليه شك، فلا يحتاج إلى توثيق. وقبل أن أتحدث بشيء من التفصيل عن تلك الأحداث التي تشبث بها الزاعمون ليرفدوا بها فريتهم، يجدر بي أن أؤكد أن الإسلام يرفض رفضاً قاطعاً هذا الهراء، ولا يقبل مطلقاً أن تهون حياة المسلم، أي مسلم، إلى درجة تباح فيها حياته لمجرد شبهة، أو من أجل وساوس وأوهام تتستر وراء الزعم بالغيرة على جماعة المسلمين من أن تقع فتنة مزعومة لم يقم على وقوعها، أو على مجرد الشك بوقوعها دليل شرعي. إن طبيعة الإسلام، وأخلاق الإسلام، وإنسانية الإسلام، ترفض رفضاً قاطعاً أن تصدر باسم الإسلام فتوى تبيح لأي إنسان مهما بلغ شأنه، أن يقتل مسلماً إلا في الحالات التي نصّ عليها الشرع : الثيّب الزاني، والمفارق لدينه التارك للجماعة (المرتد)، والقاتل عمداً (النفس بالنفس).

ألا، وإن كل مسلم مهما كان مستوى علم، يعلم أن قتل النفس، أي نفس، محرّم في شرع الله عز وجل إلا ضمن الحدود التي حددها الله عز وجل .

ولقد ندد الله عز وجل أيما تنديد، بتلك الجريمة التي اقترفها قابيل ابن سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام، يوم طوّعت له نفسُه قتلَ أخيه هابيل فقتله: (واتل عليهم نبأ ابنيْ آدمَ إذْ قرّبا قرباناً فتقبِّل من أحدهما ولم يُتَقَبَّلْ من الآخر قال لأقتلنكَ قال إنما يتقبّلُ اللهُ من المتقين. لئنْ بسطتَ يديَ لأقتلكَ ما أنا بباسطٍ يديَ إليكَ لأقتلكَ إني أخافُ اللهَ ربَّ العالمين. إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمكَ فتكونَ من أصحابِ النار وذلك جزاء الظالمين. فطوّعتْ له نفسُه قتلَ أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين. فبعثَ اللهُ غراباً يبحثُ في الأرض لِيُريَهُ كيف يواري سوأةَ أخيه قال يا ويلتا أعجزتُ أن أكونَ مثلَ هذا الغرابِ فأواريَ سوأةَ أخي فأصبح من النادمين) [المائدة: ٢٧-٣١].

بل إن الله عز وجل لم يكتفِ بالتنديد بجريمة قابيل، بل جعلها منطلقاً لحكم رباني يؤكد حرمة النفس البشرية تأكيداً قاطعاً لا لبس فيه ولا غموض: (من أجل ذلكَ كتبنا على بني إسرائيلَ أنه مَن قتلَ نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض فكأنما قتلَ الناسَ جميعاً) [المائدة: ٣٢]. تلك هي الحقيقة، حقيقة تؤكد براءة الإسلام من تلك الفتوى المزعومة، وتؤكد رفض الإسلام لهذا الهراء .

فمن أين جاءت هذه الفرية إذن؟ وما هي دوافعها، وماذا يقصد مروجوها من ورائها..؟ أما الدوافع التي تكمن وراء ترويج هذه الفريةة، فلا أملك إلا أن أقول: إنها نابعة من الحقد الأسود الذي تمتلئ به قلوب العديد من المؤرخين الصليبيين من أعداء الإسلام، ضد الإسلام والمسلمين.. فلقد انتهز بعض المؤرخين الصليبيين الحاقدين، وقلدهم في ذلك عن قصد أو عن غير قصد، بعضُ المؤرخين الذي يحملون أسماء إسلامية، وقوع بعض حوادث الصراع الدموي على السلطة في الدولة العثمانية، وهو أمر لم تسلم منه أمة ن الأمم على مدار التاريخ، فوجدوا في تلك الأحداث متنفساً لينفثوا من خلاله أحقادهم الدفينة ضد الإسلام والمسلمين، فوجهوا سهام افتراءاتهم ضد العثمانيين المسلمين، وهم في حقيقة الأمر يوجهونها إلى الإسلام الذي كان العثمانيون يمثلونه آنذاك. أقول هذا، وبين يدي أكثر من دليل .

أبدأ بحادثة مقتل الأمير «دوندار» عمّ السلطان «عثمان»، وهي حادثة أرودها المؤرخ التركي المعاصر إسماعيل حامي دنشمند في كتابه «موسوعة التاريخ العثماني»، الذي ألفه عام ١٩٤٥م، أي في الوقت الذي كانت فيه أنواء الردة الأتاتوركية في أصخب حالات هبوبها على تركيا، بكل ما تحمله من مشاعر العداء للعثمانيين المسلمين، وزعم فيها أن عثمان بن أرطغرل استشار عمه دوندار البالغ من العمر تسعين عاماً في أمر عزمه على محاربة البيزنطيين، فعارضه عمه في الرأي، فلم يتحمل عثمان معارضة عمه فقام بإعدامه بيده برميه بسهم انتقاماً منه بسبب هذه المعارضة. ولئن كانت هذه الرواية بنصها هذا من الضعف بحيث خلت منها معظم المراجع التي تؤرخ لعثمان بن أرطغرل، ولئن كان من أجلة ضعفها أن إسماعيل حامي دنشمند لم يؤثق روايته لهذه الحادثة بإيراد اسم المرجع، أو اسم المؤرخ الذي نقل عنه الرواية، فإن الحاقدين على العثمانيين المسلمين، بل على الإسلام الذي يمثله العثمانيون، تلقفوا هذه الحادثة، ونسجوا من حولها من سواد حقدهم ما لا تحتمل، فزعموا، وبئس ما زعموا، أن عثمان قتل عمه دوندار بناءً على فتوى شرعية تبيح له قتله خشية أن يزاحمه على السلطنة، مما قد يؤدي إلى وقوع الفتنة بين المسلمين. ولئن كان من الإنصاف أن نشير إلى أن ما نقلته معظم المراجع الموثوقة التي أرّخت

لعثمان بن أرطغرل، عن شدة تعلق عثمان بأحكام الشريعة الإسلامية، وعن التزامه الصادق بالإسلام، عبادةً، وخلقاً، وتواضعاً، وما نقلته عن توقيره الشديد لعمه الشيخ الكبير دوندار، يجلعنا نستبعد تصديق مقولة أن عثمان قتل عمه لمجرد معارضته له في الرأي، ويجعلنا نستبعد تصديق مقولة أن عثمان قتل عمه لمجرد معارضته له في الرأي، ويجعلنا على يقين أنه ما فعل ذلك إلا لسبب جلل، أكبر من مجرد الاختلاف في الرأي .

ويرسخ قناعتنا ما أورده المؤرخ التركي المعاصر قادر مصر أوغلو في كتابه «مأساة بني عثمان» المطبوع في إستانبول عام ١٩٧٩م، في وقت كانت المشاعر الإسلامية في تركيا تشهد فيه شيئاً من أشكال الحرية التي تستطيع معها أن تعبر عن حقيقة رفضها لمشاعر العداء التي حاولت الردة الأتاتوركية ترسيخها ضد العثمانيين المسلمين في نفوس الأتراك .

ففي كتابه ذلك ينقل قادر مصر أوغلو، عن المؤرخ التركي خير الله الهندي الذي عاصر عثمان بن أرطغرل، أن دوندار كان طرفاً في مؤامرة اتفق على تدبيرها بالتعاون مع حاكم مدينة «بيله جك» البيزنطي، تستهدف اغتيال عثمان، تمهيداً لوثوب دوندار إلى الزعامةخلفاً لعثمان، فلما انفضح أمر المؤامرة أصرّ عثمان، وهو الحريص علىتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، على تنفيذ حكم الله في عمه جزاء اقترافه لجريمةموالاة أعداء الإسلام، والتآمر معهم ضد جماعة المسلمين. وتلك لعمري نقطة بيضاء ووقفة شماء شامخة تسجَّل في حسنات عثمان بن أرطغرل، إذ أكّد من خلال حرصه على تطبيق شرع الله في عمه على صدق التزامه بالإسلام، وصدق خضوعه لحكمه، وصدق تفضيله لوشيجة العقيدة وارتباطه بها فوق وشيجة الدم والقرابة .

تلك هي حقيقة السلطان عثمان بن أرطغرل مع عمه دوندار تتهاوى أمامها أباطيل الحاقدين وأراجيف المرجفين .

أما قصة السطان مراد بن أورخان مع ولده الأمير «ساجي» فهي أيضاً علامة بارزة تؤكد صدق التزام مراد بالإسلام، وصدق خضوعه لأحكام شريعته .

ففي الوقت الذي كان السلطان مراد يواجه أشرس الحملات المتلاحقة التي تمثلت في العديد من الأحلاف الصليبية التي تجمع تحت ألويتها ملوك وأمراء المجر والصرب والبلغار والأرناؤوط (ألبانيا)، بمباركة من بابا روما أوربيان الخامس، وبتحريض سافر منه [٧٦٦هـ/١٣٦٥م .[

وفي الوقت الذي كان فيه السلطان مراد يواجه فيه خطراً تمثل في قيام الأمير الإيطالي آميديو بتجميع جيش من الإيطاليين تحت شعار الانتقام للصليب من العثمانيين المسلمين [٧٧٠هـ/١٣٦٨م]. وفي الوقت الذي ازداد فيه الخطر ضد الدولة العثمانية المسلمة، بقيام إمبراطور بيزنطة يوانيس الخامس بزيارة روما عام [٧٧١هـ/١٣٦٩م [مستنجداً بالبابا ضد العثمانيين المسلمين، ومعلناً تحوله عن مذهبه الأرثوذكسي إلى المذهب الكاثوليكي في محاولة لاسترضاء بابا روما لإقناعه بعده بالنجدة التي يطلبها ضد العثمانيين المسلمين .

وفي الوقت الذي كان السلطان مراد يواجه خطراً داهماً جديداً تمثّل في نجاح البابا بتجنيد أكثر من ستين ألف مقاتل صليبي بقيادة ملك بلاد الصرب الجديد ووقاشتين773] هـ/١٣٧٠م]. وفي الوقت الذي كان السلطان مراد لا يكاد ينجح في التغلب على إحدى مكائد الأعداء، حتى يواجه مكيدة أخرى، كان ولده الأمير ساوجي يتآمر سراً مع الأمير البيزنطي أندرونيقوس، الابن الثاني للإمبراطور يوانيس، لتدبير مؤامرة للإطاحة بالسلطان مراد، وتسليم السلطة للأمير ساوجي، وسرعان ما انتقلت المؤامرة من مرحلة التدبير إلى مرحلة التنفيذ، فسار الأميران ساوجي وأندرونيقوس على رأس جيش كانت غالبية جنوده من البيزنطيين، وتمركزا بجيشهما في منطقة لا تبعد كثيراً عن القسطنطينية، فسارع السلطان مراد لملاقاتهما، فما كاد يقترب منهما حتى خارت معنويات المتآمرين ففر الجنود البيزنطيون من أنصار أندرونيقوس، ولجأ الجنود العثمانيون من أنصار الأمير ساوجي إلى جيش أبيه السلطان مراد، فأصبح ساوجي وأندرونيقوس من غير جيش، فلم يجدا أمامهما مفراً من الهرب، ففرا إلى مدينة »ديمومة«، فلحق بهما السلطان مراد واضطرهما إلى الاستسلام .

وجمع السلطان نخبة من القادة والعلماء والقضاة لمحاكمة ولده ساوجي، فحكوا عليه بالموت جزاء خروجه على طاعة ولي الأمر وجزاء موالاته للكفار أعداء الإسلام والتحالف معهم قولاً وفعلاً في محاربة المسلمين. وأمر

السلطان مراد بتنفيذ حكم الشرع في ولده مسجلاً في ذلك صدق ولائه لحكم الشريعة، وصدق التزامه بالإسلام، ولكأني به وهو يفعل ذلك، كان يستشعر قوله تعالى عز وجل: (لا تجدُ قوماً يؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخرِ يوادّون من حادّ اللهَ ورسولَه ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئكَ كتب الله في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي اللهُ عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألاَ إنّ حزبَ الله هم الغالبون) [المجادلة: ٢٢ .]

ولقد كان من الطبيعي أن يستغل الحاقدون حادثة مقتل ساوجي، فتلقفوها وطفقوا ينسجون من حولها الأقاويل والافتراءات ليرفدوا من خلالها فريتهم عن الفتوى الشرعية المزعومة التي تبيح للسطان العثماني المسلم قتل من يشاء من بني رحمه. وكان من الطبيعي أن يشتط الحقد بأعداء الإسلام، فينفثوا حقدهم ضد السلطان مراد ويتهمونه بالوحشية، وتحجُّر عاطفة الأبوة في قلبه، وما دروا أن صدق الالتزام بالإسلام يجعل وشيجة العقيدة فوق كل وشيجة. وصلوات الله وسلامه على نبينا محمد الذي علّم المسلمين هذه الحقيقة الإيمانية حين قال: »واللهِ لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يدها «.

وأنتقلُ إلى حادثة قتل السلطان بايزيد بن مراد (الصاعقة) لأخيه الصغير يعقوب، فلا أجد غضاضة في تأكيد وقوعها، ولا أجد حاجة إلى محاولة تبريرها. فقد استهل يايزيد عهده فعلاً بارتكاب جريمة بشعة حيث أقدم على قتل أخيه الصغير يعقوب بتحريض من بعض أنصاره الذين طفقوا يوغرون صدره ضد أخيه، الذي كان شجاعاً، قوي الشخصية، ووجدتْ وشايةُ المغرضين هوى في نفس بايزيد الذي خشي أن يزاحمه يعقوب على السلطنة، واشتطت به وساوسه حين أخذ الوشاةُ يذكرونه بأن جده أورخان بن عثمان ولي السلطنة رغم كونه الأصغر سناً من أخيه الأمير علاء الدين. ولئن كنت أنكر أن بايزيد قد ارتكب جريمته البشعة فعلاً، بعد أن غلبه هواه، وزينت له وساوسه أن يقترف تلك الجريمة، وطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله. فالجريمة يتحمل وزرها بايزيد وحده، وليس من العدل ولا من المنطق أن يزجّ بالإسلام في عملية تبريرها. وينبغي أن أشير هنا إلى أن الجفاء كان مستحكماً بين العلماء والسلطان بايزيد، لدرجة أستبعد معها أن يجد بايزيد عالماً واحداً يستجيب له فيصدر تلك الفتوى التي ينسب استصدارها في بعض المراجع إلى بايزيد .ولقد بلغ من حدة ذلك الجفاء أن العالم المؤمن القاضي شمس الدين محمد حمزة الفناري ردّ شهادة السلطان بايزيد في إحدى القضايا، فلما راجعه بايزيد في ذلك، أجابه القاضي المؤمن بأنه ردّ شهادته لأنه تارك لصلاة الجماعة. بل لقد بلغ الجفاء بين العلماء والسلطان بايزيد إلى حد أقرب ما يكون إلى القطيعة بسبب استنكارهم لوقوعه تحت سيطرة وتأثير زوجته النصرانية الأميرة أوليفيرا شقيقة ملك الصرب لازار، ونماديه بتحريض منه على إدمان شرب الخمر، وإقامة حفلات اللهو، ويذكر المؤرخ التركي المعاصر إسماعيل حامي دنشمند في كتابه »موسوعة التاريخ العثماني« أن بايزيد ذهب ليتفقد العمل في بناء مسجد »أولو جامع« في بورصة، وكان قد أوشك بناؤه على الانتهاء، فالتقى خلال تجواله في المسجد بالعالم المؤمن محمد شمس الدين البخاري، فسأله على مسمع من الناس عن رأيه في نابء المسجد، وهل يرى في البناء أي نقص..؟ فأجابه العالم المؤمن بجواب ساخر يحمل بين طياته مشاعر عدم الرضى عن سيرة بايزيد المنافية للإسلام، فقال له :بالنسبة لنا نحن المسلمين، فإننا لا نجد أي نقص في بناء المسجد، أما بالنسبة إليك يا بايزيد، فإني أخشى أن تكون قد نسيت أن تضع خزانة تحفظ بها خمورك بجانب المحراب .أفيعقل بعد هذا أن يجد بايزيد عالماً واحداً يفتي بقتل أخيه من غير مسوّغ شرعي؟ ولقد وجد الحاقدون رافداً جديداً يدعمون به فريتهم فيما وقع من صراع دموي بين أبناء بايزيد الصاعقة، حين قتل محمد بن بايزيد إخوته عيسى ثم سليمان ثم موسى ليتفرد بحكم السلطنة. ولئن اشتط المغرضون في حقدهم فزعموا أن محمد بن بايزيد قد قتل إخوته بموجب تلك الفتوى الشرعية المزعومة، فإن الحقائق التاريخية تؤكد أن ما جرى بين أبناء بايزيد من اقتتال دموي كان اقتتالاً مصلحياً من أجل الطموحات الشخصية بكل واحد منهم للجلوس على عرش السلطنة، وليس من العدل والإنصاف إن يزج بالإسلام في هذا المقام .

وينبغي أن أشير إلى أن شهوة الجلوس على عرش السلطنة قد اشتطت بأبناء بايزيد لدرجة لم يجدوا معها غضاضة في الاستعانة بأعداء الإسلام من البيزنطيين ضد بعضهم بعضاً، كما فعل سليمان بن بايزيد حين تنازل لملك الروم »إيمانويل الثاني« عن مدينة سلانيك وسواحل البحر الأسود مقابل الوقوف إلى جانبه ضد أخويه الآخرين عيسى ومحمد .

هذا، وينبغي أن أشير إلى أن بعض المؤرخين المغرضي زعموا أن الفتوى الشرعية المزعومة التي تبيح للسلطان قتل بني رحمه من غير مسوغ شرعي هي تلك الفتوى التي أصدرها الشيخ سعيد أحد تلاميذ الشيخ التفتازاني، والتي ورد نصّها على النحو التالي« :من أتاكم وأمركم جميعاً على رجل واحد، يريد أن يشق عصاكم، ويفرق جمعكم، فاقتلوه ».

والحقيقة أن هذه الفتوى قد صدرت عام [٨٢٣هـ/١٤٢٠م] كما يورد المؤرخ التركي عبد القادر داده أوغلو في كتابه »التاريخ العثماني المصوّر« ضد أحد قضاة العسكر وهو الشيخ بدر الدين الذي ثار على السلطان وتزعم

حركة تنادي بإلغاء التفرقة بين الأديان، وبتوزيع الأموال سواسية بين الناس، وقد اندس في حركة الشيخ بدر الين، كما يروي الأستاذ محمد فريد في كتابه «تاريخ الدولة العلية العثمانية»عدد من اليهود والنصارى، وعندما وقع بدر الدين في الأسر بعد معركة حامية الوطيس، حوكم أمام هيئة من كبار العلماء والقضاة، فصدرت بحقه الفتوى بنصها الذي أوردته آنفاً، وبتوقيع الشيخ شعيد، ويروي المؤرخ التركي المعاصر إسماعيل حامي دنشمند في كتابه «موسوعة التاريخ العثماني» أن الشيخ بدر الدين قد وقع بنفسه أيضاً على الفتوى اعترافاً بذنبه، وتم إعدامه شنقاً على ملأ من الناس في السوق الرئيسي في مدينة سراز .

ولقد وجد المغرضون مبرراً آخر لرفد بهتانهم بخصوص الفتوى المزعومة في حادثة إعدام السلطان مراد الثاني لعمه مصطفى بن بايزيد .

وحقيقة الأمر أن مصطفى بن بايزيد كان قد اختفى وانقطعت أخباره بعد هزيمة بايزيد) الصاعقة) في معركة أنقرة أمام تيمورلنك، ثم ظهر فجأة في زمن أخيه السلطان محمد جلبي بن بايزيد مطالباً بالسلطنة لنفسه، واستنجد بأعداء الإسلام من البيزنطيين فأمدوه المساعدات، وأوعزوا لأمير بلاد الفلاخ بإمداده بجيش كبير، ولكن مصطفى فشل في تحقيق أي نجاح، واضطر إلى اللجوء إلى سلانيك التي كان الأمير سليمان بن بايزيد قد أعادها إلى السيطرة البيزنطية مقابل وعدهم له بمساعدته ضد إخوته، كما أسلفت قبل قليل، واتفق السلطان محمد جلبي مع إمبراطور بيزنطة على إبقاء أخيه مصطفى في سلانيك تحت مراقبة الإمبراطور، مقابل مبلغ من المالن استمر الأمر على هذا النحو إلى أن ولي السلطنةمراد الثاني بن جلبي فتحرش به الإمبراطور «إيمانويل الثاني» في محاولة منه لإعادة هيبة الإمبراطورية، وطلب منه عقد معاهدة يتعهد مراد بموجبها بعدم القيام بأية محاولة لغزو القسطنطينية، فلما وقف السلطان مراد موقفاً حازماً في وجه إيمانويل ورفض مطالبه عمد عمانويل إلى استدعاء الأمير مصطفى وأمده بعشر سفن حربية مدججة بالجنود والسلاح، فتمكن مصطفى من الإستيلاء على مدينة وميناء غاليبولي، ثم تمكن من التغلب على الجيش العثماني الذي أرسله السلطان مراد لمحاربته بقيادة وزيره بايزيد باشا، فسار السلطان مراد الثاني بنفسه لملاقاة عمه مصطفى الذي لم يلبث أن وقع في أسر مراد، ليواجه عقوبة الإعدام شنقاً، جزاء خيانته لله ولرسوله وللمؤمنين، وهل من خيانة لله ولرسوله وللمؤمنين أعظم من موالاة في جماعة المسلمين، ينبري هؤلاء ليزعموا أن الإسلام يبيح للسلطان قتل بني رحمه كيفما يشاء..؟ فرية باطلة ... وبهتان عظيم ..

وأجدني هنا مضطراً للتوقف وقفة أردّ بها فرية خبيثة ألصقت بالسلطان محمد الفاتح، فقد درج بعض المؤرخين، وهم يؤرخون لحياته، على الزعم بأنه قام بقتل أخيه الرضيع أحمد جلبي بعد أيام قليلة من تسلمه مسؤولية السلطنة بعد وفاة أبيه السلطان مراد، خشية أن يزاحمه على السلطنة، ومن المؤسف أن هذا الزعم لم يقتصر على المؤرخين غير المسلمين، وإنما وقع في أحبولته عدد من المؤرخين المسلمين .

ولئن كانت هذه الفرية التي ألصقت بالسلطان محمد الفاتح تكون أوهمن من بيت العنكبوت، إلا أنني أجد من الواجب التوقف عندما وتفنيدها، لكي لا يبقى بعد ذلك عذر لأي مؤرخ يحترم نفسه، ويحترم شرف الكلمة التي يؤرخ بها، أن يستمر في ترديد هذا البهتان العظيم ضد السلطان محمد الفاتح. هل يعقل أن سلطاناً ولي السلطنة في عهد أبيه، وتحت كنفه، ثم وليها من بعد وفاة أبيه، وقد اشتدّ ساعده، ونضجت خبرته، والتفت الأمة من حوله تحوطه بالحب والطاعة، هل يعقل أن هذا السلطان يغار من أخ له رضيع، فيخشى أن ينازعه على السلطة..؟ وكيف يتسنّى لطفل رضيع، وأنى له، أن ينازع على السلطنة، وهو الرضيع الذي إن تأخرت أمه عليه بالحليب يوماً مات جوعاً. ثم هل يصدق إنسان عاقل، أن محمداً الفاتح، الذي تربى على مائدة القرآن، على يد خيرة علماء عصره، أمثال الشيخ أحمد بن إسماعيل الكوراني الذي كان الفاتح يسميه «أبا حنيفة زمانه»، والشيخ تمجيد أوغلو، والشيخ محمد جلبي زاده، والشيخ مولا إياش، والشيخ الغوراني، والشيخ سراج الدين الحلبي، والشيخ آق

شمس الدين، ويمكن أن يفكر بمثل هذا الأمر الفظيع..؟ بل، لنفرض جدلاً أن محمداً الفاتح كان يوجس خيفة أن ينازعه أخوه الرضيع على السلطنة، أفما كان يستطيع أن يحتويه تحت كنفه، ويربيه على الإخلاص له، بدل أن يقتله؟ ولماذ يستبق محمد الفاتح الأمور فيقتل أخاه الرضيع، وقد كان بإمكانه أن ينتظر وهو مطمئن البال بضعة عشر عاماً حتى يكبر أخوه، فيتحقق من نوازعه ونواياه؟ من هنا نستطيع أن نتبين انتفاء المصلحة الشخصية للسلطان محمد الفاتح من قتل أخيه الرضيع .

ولننتقل الآن إلى مناقشة الطريقة التي تمت بها عملية القتل المزعومة، فقد زعم مروّجو هذه الفرية أن السلطان محمداً الفاتح أرسل أحد قواده، واسمه علي بك، إلى جناح النساء لقتل أخيه الرضيع، فلما علم علي بك أن الطفل موجود في حمام النساء حيث تقوم مربيته بغسله، اقتحم الحمام وأمسك بالطفل الرضيع وغطسه تحت الماء حتى مات مختنقاً غرقاً ..

هل يصدق عاقل أن محمد الفاتح، وهو الذكي المحنك، يقدم على قتل أخيه الرضيع بهذه الصورة المكشوفة الساذجة؟ وهل كان عاجزاً عن تكليف إحدى النساء، كزوجته، أو إحدى خادماتها، بتنفيذ عملية القتل دون إثارة انتباه أحد، بدل من أن يرسل رجلاً إلى جناح النساء، وهو أمر غير مألوف، بله أن يسمح له بأن يقتحم هذا الرجل حمام النساء، حيث يكنّ فيه متحللات من حجابهن، ومتخففات من كثير من ملابسهن، وفي ذلك ما فيه من خروج مستهجن عن المألوف، من شأنه لو تحقق فعلاً أن يثير من هياج النساء، وضجيجهن، وصخبهن، ما يضطر ذلك الرجل إلى الفرار قبل أن ينفذ مأربه، مهما بلغت به الجرأة والنذالة؟ إذن، ما هي حقيقة هذه الفرية؟ الحقيقة أن المربية التي كان موكلاً إليها أمر العناية بالطفل الرضيع أحمد، انشغلت عنه لبعض شأنها بينما كانت تغسله، فوقع في حوض الماء، فمات مختنقاً غرقاً قبل أن تتداركه الأيدي التي امتدت لإنقاذه بعد فوات الأوان. وتصادف بعد غرق الطفل بأيام قليلة أن أحد ضباط الجيش، واسمه علي بك، ارتكب جريمة عقابها الإعدام، فلما أعدم، وجد الحاقدون مادة جديدة خيّل إليهم أنهاتدعم بهتانهم، فطفقوا يزعمون أن علي بك هو الذي أغرق الطفل الرضيع أحمد، وأن السلطان محمد الفاتح خشي أن يفشي هذا الرجل سره فقتله، ومن هنا جاءت الفرية على النحو الذي أشرت إليه، وينبغي الإشارة إلى أن «إدوارد سي كريسي» يتبنى هذا الزعم في كتابه» تاريخ العثمانيين الأتراك« المطبوع بالإنجليزية في بيروت في عام ١٩٦١م، ويدّعي أن السطان الفاتح أقدم على قتل الضابط علي بك متهماً إياه بقتل أخيه الرضيع دون أن يكون للسلطان علم بذلك. ولو أنهم توقفوا عند هذه الفرية وحدها لهانَ الأمر، ولكنهم ما برحوا أن بدأوا ينسجون من حولها المزيد من الافتراءات، فزعموا أن محمداً الفاتح، لم يكتف بقتل أخيه، بل أصدر قانوناً أعطى للسلطان الحق في قتل من يشاء من إخوته وأبنائه وأبناء عمومته وخؤولته، لقطع الطريق على أي منهم أن ينافسه على السلطة .

ولقد أوضح المؤرخ التركي المعاصر إسماعيل حامي دنشمند في كتابه «موسوعة التاريخ العثماني» الدافع الذي جعل السلطان محمد الفاتح يصدر هذا القانون فقال: «حين وجد السلطان محمد الفاتح أن أكبر خطر يهدد الدولة العثمانية في الفترة التي سبقت توليه مقاليد السلطنة، نجم عن تكرار حوادث الانشقاق التي كانت تقع بين الأمراء العثمانيين، والتي كانت تصل في أكثر الأحيان إلى درجة الاقتتال، وتؤدي إلى انقسام الدولة إلى فريقين أو أكثر، مما كان يؤثر على وحدة الدولة، ويغري خصوم الإسلام بها، فقد رأى السلطان محمد الفاتح أن يضع قانوناً أسماه «قانون حفظ النظام للرعية» أكد بموجبه أن الموت سيكون مصير كل من يعلن العصيان المسلح ضد السلطان، ويتعاون مع أعداء الإسلام ضد المسلمين.» ويردف إسماعيل حامي دنشمند أن هذا القانون كان سبباً في انحسار، أو على الأقل، في تقليص حوادث العصيان المسلح، التي كادت أن تصبح أمراً شائعاً في الدولة العثمانية قبل صدور هذا القانون. وإن المرء لتتملكه الدهشة، حين يرى أن كل دول الدنيا، قديمها وحديثها، لا تخلو قوانينها من مثل هذا القانون، ومع ذلك لا تجد أحداً يعترض عليها أو يشوه مقاصدها، كما كان يفعل المغرضون تجاه الدولة العثمانية! وبعد :

فإني أحسب أن القارئ الفطن، يدرك من خلال ما أوردتُ من حقائق، أن الحاقدين إنما يهدفون من وراء التركيز على تحريف تاريخ الأتراك العثمانيين المسلمين إلى الإساءة إلى الإسلام ذاته، ومن خلال الإساءة إلى الأتراك العثمانيين المسلمين، حين يظهرونهم بمظهر القوم المتوحشين الذين انعدمت الرحمة من قلوبهم، ومن خلال الإيحاء بأن مسألة قتل السلاطين لإخوانهم كانت أمراً عادياً مألوفاً عندهم. أقول هذا، ولا أنفي أن يكون في تاريخ بني عثمان، وخاصة في عصورهم المتأخرة، بعض الأمور التي لا تنسجم مع الإسلام، وتتعارض مع أحكامه، وليس الذنب في ذلك ذنب الإسلام، وإنما ذنب المسيء نفسه

جذور الأتراك وأصولهم ومواطنهم

في منطقة ما وراء النهر والتي نسميها اليوم (تركستان) والتي تمتد من هضبة منغوليا وشمال الصين شرقاً إلى بحر الخزر (بحر قزوين) غرباً ، ومن السهول السيبيرية شمالاً إلى شبه القارة الهندية وفارس جنوباً ، استوطنت عشائر الغز وقبائلها الكبرى تلك المناطق وعرفوا بالترك أو الأتراك.

ثم تحركت هذه القبائل في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي ، في الانتقال من موطنها الأصلي نحو آسيا الصغرى في هجرات ضخمة ، وذكر المؤرخون مجموعة من الأسباب التي ساهمت في هجرتهم ، فالبعض يرى أن ذلك بسبب عوامل اقتصادية ، فالجدب الشديد وكثرة النسل جعلت هذه القبائل تضيق ذرعاً بمواطنها الأصلية فهاجرت بحثاً عن الكلأ والمراعي والعيش الرغيد ، والبعض الآخر يعزو تلك الهجرات لأسباب سياسية حيث تعرضت تلك القبائل لضغوط كبيرة من قبائل أخرى أكثر منها عدداً وعدة وقوة وهي المغولية فأجبرتها على الرحيل لتبحث عن موطن آخر وتترك أراضيها بحثاً عن نعمة الأمن والاستقرار.

واضطرت تلك القبائل المهاجرة أن تتجه غرباً ، ونزلت بالقرب من شواطئ نهر جيحون ، ثم استقرت بعض الوقت في طبرستان وجرجان ، فأصبحوا بالقرب من الأراضي الإسلامية والتي فتحها المسلمون بعد معركة نهاوند سنة ٢١ هـ.

في عام ٢٢ هـ تحركت الجيوش الإسلامية إلى بلاد الباب لفتحها وكانت تلك الأراضي يسكنها الأتراك ، وهناك التقى قائد الجيش الإسلامي عبد الرحمن بن ربيعة بملك الترك شهربراز ، فطلب من عبد الرحمن الصلح وأظهر استعداده للمشاركة في الجيش الإسلامي لمحاربة الأرمن ، فأرسله عبد الرحمن إلى القائد العام سراقة بن عمرو ، الذي قبل منه ذلك وكتب يعلم عمر بن الخطاب بذلك فوافقه عليه ، وعقد الصلح ولم يقع بين المسلمين والترك قتال ، بل ساروا جميعاً لفتح بلاد الأرمن . وزالت دولة الفرس وتم الاتصال بالشعوب الإسلامية واعتنق الأتراك الإسلام وانضموا لصفوف المجاهدين.

وفي عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه تم فتح بلاد طبرستان ، ثم عبر المسلمون نهر جيحون سنة ٣١ هـ ونزلوا بلاد ما وراء النهر ، فدخل كثير من الترك في دين الإسلام.

وواصلت الجيوش الإسلامية تقدمها في تلك الأقاليم ، فتم فتح بلاد بخارى في عهد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وتوغلت تلك الجيوش حتى وصلت سمرقند ، حتى صارت جميع تلك الأقاليم تحت الحكم الإسلامي.

وزاد عدد الترك في بلاط الخلفاء والأمراء العباسيين وشرعوا في تولي المناصب القيادية والإدارية في الدولة ، فكان منهم الجند والقادة والكتاب ، وقد التزموا بالهدوء والطاعة حتى نالوا أعلى المراتب.

ولما تولى المعتصم العباسي الخلافة فتح الأبواب أمام النفوذ التركي وأسند إليهم مناصب الدولة القيادية وأصبحوا يشاركون في تصريف شؤون الدولة ، مما أدى إلى سخط شديد لدى الناس والجند فخشي المعتصم من نقمة الناس فأسس مدينة جديدة هي سامراء وسكنها هو وجنده وأنصاره.

وهكذا ظهر الأتراك وعلا شأنهم حتى أسسوا لهم دولة كبيرة كانت على صلة بخلفاء الدولة العباسية عرفت بالدولة السلجوقية.

****

الأناضول قبل العثمانيين

كانت بلاد الأناضول أو آسيا الصغرى من ضمن أملاك الإمبراطورية البيزنطية قبل الإسلام ، ولما جاء الإسلام قضى على الإمبراطورية الفارسية ، وانتزعت الدولة الإسلامية من الإمبراطورية البيزنطية بلاد الشام ومصر ثم سائر الشمال الإفريقي، وتمكن المسلمون من انتزاع أجزائها الشرقية من أطراف أرمينيا .

ومن ناحية أخرى حاصر المسلمون القسطنطينية منذ عام ٥٠ هـــ في أيام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما غير أنهم عجزوا عن فتحها ، وتكرر الغزو مرات ولكنهم لم يوفقوا فيه ، وبقيت قاعدة للإمبراطورية البيزنطية.

وبقيت ذرا جبال طوروس حداً فاصلاً بين المسلمين والبيزنطيين مدة أيام الدولة الأموية ، وقد أقيمت الثغور على تلك الذرا ، وتتعاقب الصوائف والشواتي على تلك الثغور وعلى أعمال الغزو والجهاد التي ما انقطعت ، واشتهر من القادة مسلمة بن عبد الملك ومروان بن محمد بن عبد الملك الذي أصبح خليفة فيما بعد .

وجاء العباسيون وعملوا على توطين أقسام من جيش خراسان في الأجزاء الأناضولية الخاضعة لهم ، وكان الخليفة المهدي يستقدم الأتراك من فرغانة وبلخ ويسكنهم الثغور وكلها في المنطقة الجبلية الفاصلة بين المسلمين والروم.

وقد زاد عدد الترك في هذه المناطق في عهد المأمون والمعتصم ، وكانت أعمال الجهاد تتجاوز الثغور أحياناً وتدخل إلى الجهات الغربية ، ودخل المعتصم عمورية وهي تبعد عن منطقة الثغور أكثر من خمسمائة كيلومتر ، وخرب المعتصم المدينة ، وأحرقها.

وفي عهد المتوكل أصبح الأتراك هم عماد الجيش في الدولة ، وغدت الثغور الأناضولية تحت إمرتهم ، وكانوا يخضعون للخليفة العباسي في بغداد ، أو للحمدانيين في حلب ، أو للطولونيين في الفسطاط ، ورغم هذا الانقسام فإن القتال لم ينقطع بين المسلمين والروم ، وكانت الحروب سجالاً ، بين مد وجزر.

وضعفت الدولة العباسية وفكر الإمبراطور البيزنطي بالقضاء على الدولة العباسية ، وفي هذا الوقت كان السلاجقة الأتراك قد وصلوا إلى غربي الدولة ، ودخل زعيمهم طغرل بك بغداد ، وأصبح السيد المطاع فيها ، وبدأ صراعه مع الروم ، فاتجه إلى ديار بكر ، وقاتل البيزنطيين وانتصر عليهم ، وعقد معهم هدنة ، واشترط فيها بناء مسجد القسطنطينية ، فأقيم المسجد وأقيمت فيه الصلاة والجمعة ، وخطب لطغرل بك فيه .وتوفي طغرل بك فخلفه ابن أخيه سليمان بن داود ، غير أن أخاه ألب أرسلان قد ثار عليه وتسلم الأمر ، ودخل مع الروم في الحرب وانتصر عليهم انتصاراً حاسماً في معركة ملاذكرت عام ٤٦٣ (اقرأ تفاصيل المعركة في قسم منعطفات ، إن شئت) . وانساح السلاجقة بعد تلك المعركة في الأناضول حتى الجهات الغربية فملؤوها ، وأسسوا أمارات فيها ، ثم قتل ألب أرسلان عام 465 على يد كمين نصب له وهو في طريقه إلى الصين.

وتمكن هؤلاء السلاجقة الذين انتشروا في الأناضول أن يقدموا خدمات للمسلمين في أول أمرهم إذا استردوا من الروم بعض الأجزاء التي سبق لهم أن أخذوها من المسلمين ومنها أنطاكية ومنبج ، وتأسست أمارات سلجوقية في الأناضول وأرمينيا ومن أبرزها التي أسسها سليمان بن قطلمش بن أرسلان بن سلجوق والتي كان مقرها قونية والتي أطلق عليها سلاجقة الروم ، ثم أعقبها قيام إمارات أخرى.

وفي الوقت نفسه قامت دويلات أرمنية في أرمينيا ، وأسس الأرمن الذين فروا من وجه السلاجقة واتجهوا

إلى الغرب دويلة في كيليكيا مقرها أضنة ، وبقيت قائمة حتى انهارت على يد المغول ، وزاد توسع السلاجقة وانتشارهم في الأناضول في أيام ملكشاه بن ألب أرسلان.

وجاء الصليبيون عام ٤٨٩ بدافع صليبي وحقد ، وإن كانوا قد احتجوا بأن السلاجقة يسيئون معاملة النصارى وهم في طريقهم إلى القدس ، واستطاع هؤلاء الصليبيون أن يجتازوا الأناضول التي يعمرها السلاجقة ، وأن يفصلوا المناطق الغربية عن المناطق الداخلية ،

وفي الوقت نفسه فقد أسسوا إمارة صليبية في الرها ، ودعمهم الأرمن الذين كانت لهم دويلة في كيليكيا ، واضطر الأمير السلجوقي قليج أرسلان صاحب نيقية أن ينقل مقر أمارته من نيقية إلى قونية ، ثم اختلف الإمبراطور البيزنطي مع الصليبيين فتركهم وشأنهم ، واتجه لاسترداد بعض أملاك السلاجقة فدخل أزمير وأفسوس لانقطاع هذه المناطق عن بقية السلاجقة في الداخل بالصليبيين .

وقامت الحروب الصليبية في بلاد الشام ووقف آل زنكي في وجههم ، وتوفي نور الدين محمود ، وقام صلاح الدين الأيوبي بالجهاد ، وانتصر على الصليبيين ودخل القدس ، وبموته انفرط عقد الدولة الأيوبية وتفرقت كلمة أمرائها ، واستقل كل من أولاده في جزء منها ، ولم تكن هناك دولة أيوبية واحدة ، ولم تجد تدخلات الخليفة العباسي للصلح بينهم.

وفي هذه الأثناء بدأ الهجوم المغولي من الشرق ، فخاف بعض الحكام فانضموا إليه ، وحدث اجتماع لهؤلاء الذين تحالفوا مع المغول عام ٦٣٤، وتقدم المغول نحو الغرب ، ووقعت بلاد سلاجقة الروم عام ٦٤١ هـ تحت سيطرة المغول ، واستسلم أمراؤها لهم ، وصاروا معهم حرباً على المسلمين ، وفتحوا بلادهم لهم ، وهادن أمير الموصل هولاكو ، ويعد الأراتقة في ماردين عمالاً للمغول ، وساهم ملك الأرمن في احتلال بغداد ، ومشى مع المغول نحو القدس ليملكها ، ولم يتعرض المغول فعلاً للنصارى بل كانت بيوتهم آمنة في بغداد ودمشق.
ثم هزم المغول في عين جالوت عام ٦٥٨ ، وخرجوا من بلاد الشام ، فسار الظاهر بيبرس عام ٦٧٥ إلى بلاد سلاجقة الروم لينتقم منهم ، والتقى بهم وبحلفائهم المغول والكرج في معركة البستان شمال مرعش ، وانتصر عليهم انتصاراً مبيناً ، ثم سار حتى فتح عاصمتهم قيصرية ، وقد أحسن إلى أهلها ، وأعطاهم الأمان ، وخطب له في مساجدها.

ومع ضعف المغول زالت دولة سلاجقة الروم ، وقامت عدة إمارات في الأناضول التي كانت متنافسة مع بعضها البعض ، وتنتقل المدن من يد إمارة إلى أخرى أو المناطق ثم تعود للإمارة الأولى عندما تتقوى أو تجد لها دعماً ، حتى قضت الدولة العثمانية عليها جميعاً في أوقات متفاوتة.

****

قيام الدولة العثمانية

ينتسب العثمانيون إلى قبيلة قاتي التركمانية والتي كانت عند بداية القرن السابع الهجري الموافق الثالث عشر الميلادي تعيش في كردستان ، وتزاول حرفة الرعي.
ونتيجة للغزو المغولي بقيادة جنكيزخان تحركت نحو الغرب قاصدة دولة خوارزم بالدرجة الأولى .
ثم توجهت بعد ذلك نحو العراق ومناطق شرق آسيا الصغرى ، وكان يرأسهم (سليمان شاه بن قيا ألب) جد عثمان ، الذي قرر الهجرة في عام ٦١٧ هـ الموافق ١٢٢٠م مع قبيلته وفيها ألف فارس من كردستان إلى بلاد الأناضول فاستقر في مدينة أخلاط – تقع في شرق تركيا الحالية
ولما هدأت موجة المد المغولي رغب في الرجوع إلى موطنه الأول ، وتابع إلى ديار بكر ، واتجه نحو الرقة ، وأراد عبور نهر الفرات فهوى فيه وغرق عام ٦٢٨ هـ ، فدفن هناك قرب قلعة جعبر.

واختلف أبناؤه الأربعة في الطريق التي يجب أن يسلكوها ، أما ابنه الأكبر) سنقورتكن) فقد حقق رغبة أبيه ورجع مع أخيه (كون طغري) إلى موطنهم الأول ، وكان) سنقورتكن) هو الذي تولى إمرة القبيلة وزعامتها بعد موت أبيه ، وأما أخواه الآخران وهما (أرطغرل) و (دندان) فقد عادا أدراجهما ، وكان (أرطغرل) الأوسط وزعيم المجموعة المتبقية من القبيلة ، والذي واصل تحركه نحو الشمال الغربي من الأناضول ، وكان معه حوالي مائة أسرة وأكثر من أربعمائة فارس.
وأرسل أرطغرل ابنه (ساوجي) ليطلب من الأمير علاء الدين السلجوقي أمير إمارة قرمان أرضاً تعيش فيها القبيلة كي لا تقع في نزاعات ، غير أن ساوجي لم يعد إلى أبيه إذ توفي الطريق .
وفي هذه الأثناء إذ بأرطغرل يسمع عن بعد جلبة وضوضاء ، فلما دنا منها وجد قتالاً حامياً بين مسلمين ونصارى ، وكانت كفة الغلبة للجيش البيزنطي ، فما كان من أرطغرل إلا أن تقدم بكل حماس وثبات لنجدة إخوانه في الدين والعقيدة ، فكان ذلك التقدم سبباً في نصر المسلمين على النصارى.

وبعد انتهاء المعركة قدر قائد الجيش الإسلامي السلجوقي الأمير علاء الدين السلجوقي هذا الموقف لأرطغرل ومجموعته ، فأقطعهم أرضاً في الحدود الغربية للأناضول بجوار الثغور في الروم ، وأتاحوا لهم بذلك فرصة توسيعها على حساب الروم ، وكانت مساحة هذه الأرض ٢٠٠٠ كيلومتر مربع استطاع أرطغرل أثناء جهاده ضد البيزنطيين توسيعها إلى ٤٨٠٠ كيلو متر مربع.

وحقق السلاجقة بذلك حليفاً قوياً ومشاركاً في الجهاد ضد الروم ، وقد قامت بين هذه الدولة الناشئة وبين سلاجقة الروم علاقة حميمة نتيجة وجود عدو مشترك لهم في العقيدة والدين ، وقد استمرت هذه العلاقة طيلة حياة أرطغرل ، حتى إذا توفي سنة ٦٨٧ هـ خلفه من بعده في الحكم ابنه عثمان الذي سار على سياسة أبيه السابقة في أراضي الروم ، والذي إليه تنسب الدولة العثمانية فهو مؤسسها وأول حكامها.

وليس صحيحاً ما يقال من أن عثمان هو أول من أسلم من تلك القبيلة ، فإن القبيلة كانت مسلمة بالأصل قبل أن ترحل من مكانها الأول مع جده ، إذ معروف أن هذه القبيلة تركمانية ، وكلمة تركمان تطلق على الترك الذين يعتنقون الإسلام ، واسم زعيمها سليمان دليل على ذلك.

****

عثمان بن أرطغرل

قد تعاقب على إمارة السلطنة العثمانية قبل أن تعلن نفسها خلافة إسلامية سلاطين أقوياء ، ويعتبر عثمان بن أرطغرل هو مؤسس الدولة وبانيها ، فماذا صنع عثمان:
لقد بدأ عثمان يوسع إمارته فتمكن أن يضم إليه عام ٦٨٨ قلعة قره حصا) القلعة السوداء) أو أفيون قره حصار ، فسر الملك علاء الدين بهذا كثيراً. فمنحه لقب) بيك). والأراضي التي يضمها إليه كافة ، وسمح له بضرب العملة ، وأن يذكر اسمه في خطبة الجمعة.

وفي عام ٦٩٩ أغارت المغول على إمارة علاء الدين ففر من وجههم ، والتجأ إلى إمبراطور بيزنطية ، وتوفي هناك في العام نفسه ، وإن قيل أن المغول قد تمكنوا من قتله ، وتوليه ابنه غياث الدين مكانه ، ثم إن المغول قد قتلوا غياث الدين ، ففسح المجال لعثمان إذ لم تعد هناك سلطة أعلى منه توجهه أو يرجع إليها في المهمات ، فبدأ يتوسع ، وإن عجز عن فتح أزميد (أزميت) ، وأزنيق (نيقية) رغم محاصرتهما ، واتخذ مدينة (يني شهر) أي المدينة الجديدة قاعدة له ، ولقب نفسه باديشاه آل عثمان .
واتخذ راية له ، وهي علم تركيا اليوم ، ودعا أمراء الروم في آسيا الصغرى إلى الإسلام ، فإن أبوا فعليهم أن يدفعوا الجزية ، فإن رفضوا فالحرب هي التي تحكم بينه وبينهم ، فخشوا على أملاكهم منه ، فاستعانوا بالمغول عليه ، وطلبوا منهم أن ينجدوهم ضده ، غير أن عثمان قد جهز جيش بإمرة ابنه أورخان الذي قارب الثلاثين من العمر ، وسيره لقتال المغول فشتت شملهم.

ثم عاد واتجه إلى بورصة (بروسة (فاستطاع أن يدخلها عام ٧١٧ وتعد من الحصون الرومية المهمة في آسيا الصغرى ، وأمن أهلها وأحسن إليهم فدفعوا له ثلاثين ألفاً من عملتهم الذهبية ، وأسلم حاكمها)أفرينوس) ، فمنحه عثمان لقب بيك ، وأصبح من القادة العثمانيين البارزين. وتوفي عثمان عام ٧٢٦ ، وقد عهد لابنه أورخان بالحكم بعده.

أهم الصفات القيادية في عثمان:

- الشجاعة : عندما تنادى أمراء النصارى في بورصة ومادانوس وأدره نوس وكته وكستله البيزنطيون في عام ٧٠٠هـــ لتشكيل حلف صليبي لمحاربة عثمان واستجابت النصارى لهذا النداء وتحالفوا تقدم عثمان بجنوده وخاض الحروب بنفسه وشتت الجيوش الصليبية وظهرت منه شجاعة أصبحت مضرب المثل.

- الحكمة : لقد رأى من الحكمة أن يقف مع السلطان علاء الدين ضد النصارى ، وساعده في افتتاح جملة من مدن منيعة ، وعدة قلاع حصينة ، ولذلك نال رتبة الإمارة من السلطان السلجوقي علاء الدين. وسمح له سك العملة باسمه ، مع الدعاء له في خطبة الجمعة في المناطق التي تحته.

- الإخلاص : عندما لمس سكان الأرضي القريبة من إمارة عثمان إخلاصه للدين تحركوا لمساندته والوقوف معه لتوطيد دعائم دولة إسلامية تقف سداً منيعاً أمام الدولة المعادية للإسلام والمسلمين.

- الصبر : وظهرت هذه الصفة في شخصيته عندما شرع في فتح الحصون والبلدان ، ففتح في سنة ٧٠٧هـــ حصن كته ، وحصن لفكة ، وحصن آق حصار ، وحصن قوج حصار. وفي سنة ٧١٢هـــ فتح صحن كبوه وحصن يكيجه طرا قلوا ، وحصن تكرر بيكاري وغيرها ، وقد توج فتوحاته هذه بفتح مدينة بروسة في عام ٧١٧هـــ ، وذلك بعد حصار صعب و شديد دام عدة سنوات ، كان من أصعب ما واجهه عثمان في فتوحاته.

- الجاذبية الإيمانية : وتظهر هذه الصفة عندما احتك به اقرينوس قائد بروسه واعتنق الإسلام أعطاه

السلطان عثمان لقب (بك) وأصبح من قادة الدولة العثمانية البارزين فيما بعد ، وقد تأثر كثير من القادة البيزنطيين بشخصية عثمان ومنهجه الذي سار عليه حتى امتلأت صفوف العثمانيين منهم ، بل إن كثيراً من الجماعات الإسلامية انخرطت تحت لواء الدولة العثمانية كجماعة (غزياروم) أي غزاة الروم ، وهي جماعة إسلامية كانت ترابط على حدود الروم وتصد هجماتهم عن المسلمين منذ العصر العباسي ، وجماعة)الإخيان) (أي الإخوان) وهم جماعة من أهل الخير يعينون المسلمين ويستضيفونهم ويصاحبون جيوشهم لخدمة الغزاة ويتولون إقامة المساجد والتكايا و الفنادق، وجماعة) حاجيات روم) أي حجاج أرض الروم ، وكانت جماعة على فقه بالإسلام ومعرفة دقيقة لتشريعاته ، وكان هدفها معاونة المسلمين عموماً والمجاهدين خصوصاً وغير ذلك من الجماعات.

- عدله : تروى معظم المراجع التركية التي أرخت للعثمانيين أن أرطغرل عهد لابنه عثمان مؤسس الدول العثمانية بولاية القضاء في مدينة قره جه حصار بعد الاستيلاء عليها من البيزنطيين في عام ٦٨٤هـ ، وأن عثمان حكم لبيزنطي نصراني ضد مسلم تركي ، فاستغرب البيزنطي وسأل عثمان : كيف تحكم لصالحي وأنا على غير دينك ، فأجابه عثمان : بل كيف لا أحكم لصالحك ، والله الذي نعبده ، يقول لنا : ((إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ((فاهتدى الرجل وقومه إلى الإسلام. لقد عثمان استخدم العدل مع رعيته وفي البلاد التي فتحها ، فلم يعامل القوم المغلوبين بالظلم أو الجوار أو التعسف أو التجبر ، أو الطغيان ، أو البطش.

- الوفاء : كان شديد الاهتمام بالوفاء بالعهود ، فعندما اشترط أمير قلعة اولوباد البيزنطية حين استسلم للجيش العثماني ، أن لا يمر من فوق الجسر أي عثماني مسلم إلى داخل القلعة التزم بذلك وكذلك من جاء بعده .

- التجرد : فلم تكن أعماله وفتوحاته من أجل مصالح اقتصادية أو عسكرية أو غير ذلك ، بل كان فرصة تبليغ دعوة الله ونشر دينه ولذلك وصفه المؤرخ احمد رفيق بأنه) كان عثمان متديناً للغاية ، وكان يعلم أن نشر الإسلام وتعميمه واجب مقدس وكان مالكاً لفكر سياسي واسع متين ، ولم يؤسس عثمان دولته حباً في السلطة وإنما حباً في نشر الإسلام). ويقول مصر أوغلو : " لقد كان عثمان بن أرطغرل يؤمن إيماناً عميقاً بأن وظيفته الوحيدة في الحياة هي الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله ، وقد كان مندفعاً بكل حواسه وقواه نحو تحقيق هذا الهدف.

لقد كانت شخصية عثمان متزنة وخلابة بسبب إيمانه العظيم بالله تعالى واليوم الآخر ، ولذلك لم تطغ قوته على عدالته ، ولا سلطانه على رحمته ، ولا غناه على تواضعه ، وأصبح مستحقاً لتأييد الله وعونه ، ولذلك أكرمه الله تعالى بالأخذ بأسباب التمكين والغلبة ، فجعل له مكنة وقدرة على التصرف في آسيا الصغرى من حيث التدبير والرأي وكثرة الجنود والهيبة والوقار ، لقد كانت رعاية الله له عظيمة ولذلك فتح له باب التوفيق وحقق ما تطلع إليه من أهداف وغاية سامية.

الدستور الذي سار عليه العثمانيون:

كانت حياة الأمير عثمان جهاداً ودعوة في سبيل الله ، وكان علماء الدين يحيطون بالأمير ويشرفون على التخطيط الإداري والتنفيذ الشرعي في الإمارة، ولقد حفظ لنا التاريخ وصية عثمان لابنه أورخان وهو على فراش الموت وكانت تلك الوصية فيها دلالة حضارية ومنهجية شرعية سارت عليها الدولة العثمانية فيما بعد، يقول عثمان في وصيته : (يا بني : إياك أن تشتغل بشيء لم يأمر به الله رب العالمين ، وإذا واجهتك في الحكم معضلة فاتخذ من مشورة علماء الدين موئلاً.. يا بني : أحط من أطاعك بالإعزاز، وأنعم على

الجنود ، ولا يغرك الشيطان بجندك وبمالك ، وإياك أن تبتعد عن أهل الشريعة.. يا بني : إنك تعلم أن غايتنا هي إرضاء الله رب العالمين ، وأن بالجهاد يعم نور ديننا كل الآفاق ، فتحدث مرضات الله جل جلاله ..

يا بنى : لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة الحكم أو سيطرة أفراد ، فنحن بالإسلام نحيا ونموت ، وهذا يا ولدي ما أنت له أهل).

وفي كتاب (التاريخ السياسي للدولة العلية العثمانية) تجد رواية أخرى للوصية (اعلم يا بني ، أن نشر الإسلام ، وهداية الناس إليه ، وحماية أعراض المسلمين وأموالهم ، أمانة في عنقك سيسألك الله عز وجل عنها)

وفي كتاب (مأساة بني عثمان) نجد عبارات أخرى من وصية عثمان لابنه أورخان تقول : (يا بني ، أنني انتقل إلى جوار ربي ، وأنا فخور بك بأنك ستكون عادلاً في الرعية ، مجاهداً في سبيل الله ، لنشر دين الإسلام.. يا بني ، أوصيك بعلماء الأمة ، أدم رعايتهم ، وأكثر من تبجيلهم ، وانزل على مشورتهم ، فانهم لا يأمرون إلا بخير ..يا بني ، إياك أن تفعل أمراً لا يرضى الله عز وجل ، وإذا صعب عليك أمر فاسأل علماء الشريعة ، فانهم سيدلونك على الخير.. واعلم يا بني أن طريقنا الوحيد في هذه الدنيا هو طريق الله ، وأن مقصدنا الوحيد هو نشر دين الله ، وأننا لسنا طلاب جاه ولا دنيا.)

وفي (التاريخ العثماني المصور) عبارات أخرى من وصية عثمان تقول: (وصيتي لأبنائي وأصدقائي ، أديموا علو الدين الإسلامي الجليل بإدامة الجهاد في سبيل الله . أمسكوا راية الإسلام الشريفة في الأعلى بأكمل جهاد. اخدموا الإسلام دائما ، لأن الله عز وجل قد وظف عبداً ضعيفاً مثلي لفتح البلدان ، اذهبوا بكلمة التوحيد إلى أقصى البلدان بجهادكم في سبيل الله ومن انحرف من سلالتي عن الحق والعدل حرم من شفاعة الرسول الأعظم يوم المحشر. يا بني: ليس في الدنيا أحد لا يخضع رقبته للموت ، وقد اقترب أجلي بأمر الله جل جلاله أسلمك هذه الدولة وأستودعك المولى عز وجل ، اعدل في جميع شؤونك.)

لقد كانت هذه الوصية منهجاً سار عليه العثمانيون، فاهتموا بالعلم وبالمؤسسات العلمية، وبالجيش والمؤسسات العسكرية، وبالعلماء واحترامهم ، وبالجهاد الذي أوصل فتوحاً إلى أقصى مكان وصلت إليه راية جيش مسلم ، وبالإمارة وبالحضارة.

ونستطيع أن نستخرج الدعائم والقواعد والأسس التي قامت الدولةالعثمانية من خلال تلك الوصية.

****

السلطان أورخان بن عثمان (٧٢٦-٧٦١هـ)

ولد عام ٦٨٧ في السنة التي تولى أبوه فيها الحكم، وهو ثاني أبناء أبيه من حيث السن، لكن يبدو أنه كان أكثرهم نباهة، وأشجعهم، فنال بذلك الملك ، ولم يخالفه أخوه الأكبر منه علاء الدين ، ولكنه رضي بذلك.

فقدره أخوه أورخان ، وسلمه الوزارة ، فانصرف علاء الدين إلى الأمور الداخلية ، وتوجه أورخان إلى الأعمال الخارجية.

نقل أورخان قاعدته إلى بورصة، وضرب العملة الفضية والذهبية، وأسس الجيش (يني تشري) أي الجيش الجديد من أبناء الأسرى، والصغار الذين يقعون في الأسر ، فيربون في ثكنات عسكرية تربية إسلامية ويدربون تدريباً عسكرياً ، ويتخرجون لا يعرفون إلا القتال والحياة العسكرية والإسلام والجهاد في سبيل الله ، ليس روابط قبلية أو عشائرية إذ لا يعرفون إلا السلطان سيداً لهم ، لذا كانوا قوة كبيرة ساعدت العثمانيين في ضرب خصومهم ، وامتداد الفتوحات العثمانية ، وكان يمكن أن تبقى كذلك لو بقي السلاطين أقوياء لا يسمحون لهم بالتدخل في غير ما اختصوا به ، ولا أن يعطوهم أكثر من قدراهم فتتغير طباعهم ، فما تدخل العسكريون في شؤون الحكم إلا أفسدوه ، ولا تصرفوا في أمور البلاد إلا أضاعوها إلا من عصم ربك ، وهكذا كان شأنهم في النهاية إذ غدوا طريق الهزيمة وسبب المفاسد حتى قضي عليهم عام ١٤٤٢ في أيام السلطان محمود الثاني.

فتح أزميت، ثم حاصر أزنيق وفتحها ، وعين ابنه الكبير سليمان حاكما عليها ، وأحسن إلى أهلها ، فسمح بالهجرة إلى من يردها ، وسمح لمن بقي بإقامة شعائر دينه ، وبعد مدة توفي أخوه علاء الدين فعين مكانه سلمان بن أورخان.
وفي عام ٧٣٦ توفي حاكم إمارة (قره سي) الواقعة جنوب بحر مرمرة وإلى الشرق من بحرإيجه، واختلف ولداه فيما بينهما على السلطة، فأسرع أورخان وضمها إلى إمارته كي لا تقع فريسة بيد الروم.
وفي عام ٧٥٦ طلب إمبراطور بيزنطة يوحنا الخامس (يوحنا باليوج) من أورخان مساعدته ضد إمبراطور الصرب اصطفان دوشان الملقب بالقوي الذي تحالف مع البندقية، والإمارات الصربية للهجوم على القسطنطينية، ووعد بأن يزوجه ابنة الوصي على العرش يوحنا كانتا كوزين التي تزوج هو أختها الأخرى، أي يصبح عديلاً له، وأرسل له أورخان الجند ، غير أن اصطفان دوشان قد أدركه الموت ، وتوقف الاستعداد ، وعاد الجنود العثمانيون إلى بلادهم دون قتال ، وتزوج أورخان ابنة الوصي.

وشعر أورخان بضعف الإمبراطورية البيزنطية بعد أن طلب الإمبراطور منه المساعدة للوقوف في وجه الصرب ، ورأى أن ينتقل إلى الضفة الغربية من مضيق الدردنيل ليتقدم بعدها في أوربا ، ويتمكن من الإحاطة بالقسطنطينية ، والهجوم عليها من الغرب فقد عجز المسلمون من قبل عن فتحها بالهجوم عليها من الشرق ، وإن لم يكن هو فمن يأتي بعده ، فقرر الجهاد ، وأرسل ابنه الكبير سليمان ، ووزير الدولة الأول لدراسة الغزو والتخطيط له ، وفي عام ٧٥٨ اجتاز سليمان مضيق الدردنيل ليلاً مع أربعين رجلاً من أبطاله ، ولما وصلوا إلى الضفة الغربية استولوا على الزوارق الرومية الراسية هناك ، وعادوا بها إلى الضفة الشرقية ، إذ لم يكن للعثمانيين أسطول حيث لا تزال دولتهم في بداية تأسيسها ، وفي الضفة الشرقية أمر سليمان جنوده أن يركبوا في الزوارق حيث نقلهم إلى الشاطئ الأوربي ، حيث احتلوا قلعة (تزنب) ، وغاليبولي التي فيها قلعة) جنا قلعة) المشهورة ، وابسالا ، ورودستو ، وكلها تقع على مضيق الدردنيل من الجنوب إلى الشمال حتى تصبح رودستو على بحر مرمرة.

وفي عام ٧٦٠ توفي ولي العهد سليمان ، نتيجة سقوطه عن جواده ، وأصبح ولي العهد مراد ، وفي العام التالي توفي السلطان أورخان فخلفه ابنه مراد .

سياسة أورخان الداخلية والخارجية:

قد كان مما تهدف إليه الدولة العثمانية الناشئة أن ترث دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى وترث ما كانت تملكه ، واستمر الصراع لذلك بينها وبين الإمارات الأخرى حتى أيام الفاتح حيث تم إخضاع آسيا الصغرى برمتها لسلطانه.

واهتم أورخان بتوطيد أركان دولته وإلى الأعمال الإصلاحية والعمرانية ، ونظم شؤون الإدارة ، وقوى الجيش ، وبنى المساجد، وانشأ المعاهد العلمية ، وأشرف عليها خيرة العلماء والمعلمين ، وكانوا يحظون بقدر كبير من الاحترام في الدولة ، وكانت كل قرية بها مدارسها وكل مدينة بها كليتها التي تعلم النحو والتراكيب اللغوية والمنطق وفقه اللغة وعلم الإبداع اللغوي والبلاغة والهندسة والفلك وبالطبع تحفيظ القرآن الكريم وتدريس علومه والسنة والفقه والعقائد.

وهكذا أمضى أورخان بعد استيلائه على إمارة قره سي سنة٦٢٧عشرين سنة دون أن يقوم بأي حروب ، بل قضاها في صقل النظم المدنية والعسكرية التي أوجدتها الدولة ، وفي تعزيز الأمن الداخلي ، وبناء المساجد ورصد الأوقاف عليها ، وإقامة المنشآت العامة الشاسعة ، مما يشهد بعظمة أورخان وتقواه ، وحكمته وبعد نظره ، فإنه لم يشن الحرب تلو الحرب طمعاً في التوسع وإنما حرص على تعزيز سلطانه في الأراضي التي يتاح له ضمها. وحرص على طبع كل أرض جديدة بطابع الدولة المدني والعسكري والتربوي والثقافي وبذلك تصبح جزءاً لا يتجزأ من أملاكهم، بحيث أصبحت أملاك الدولة في آسيا الصغرى متماثلة ومستقرة. وهذا يدل على فهم واستيعاب أورخان لسنة التدرج في بناء الدول وإقامة الحضارة وإحياء الشعوب.

العوامل التي ساعدت السلطان أورخان في تحقيق أهدافه:

-المرحلية التي سار عليها أورخان ، واستفادته من جهود والده عثمان، ووجود الإمكانيات المادية والمعنوية التي ساعدتهم على فتح الأراضي البيزنطية في الأناضول وتدعيم سلتطهم فيها. ولقد تميزت جهودا أورخان بالخطى الوئيدة والحاسمة في توسيع دولته ومد حدودها ، ولم ينتبه العالم المسيحي إلى خطورة الدولة العثمانية إلا بعد أن عبروا البحر واستولوا على غاليبولي.

-كان العثمانيون – يتميزون – في المواجهة الحربية التي تمت بينهم وبين الشعوب البلقانية — بوحدة الصف و الهدف، ووحدة المذهب الديني وهو المذهب السني.

-وصول الدولة البيزنطية إلى حالة من الإعياء الشديد ، وكان المجتمع البيزنطي قد أصابه تفكك سياسي وانحلال ديني واجتماعي ، فسهل على العثمانيين ضم أقاليم هذه الدولة.

-ضعف الجبهة المسيحية نتيجة لعدم الثقة بين السلطات الحاكمة في الدولة البيزنطية وبلغاريا وبلاد الصرب والمجر ، ولذلك تعذر في معظم الأحيان تنسيق الخطط السياسة والعسكرية للوقوف في جبهة واحدة ضد العثمانيين.

-الخلاف الديني بين روما والقسطنطينة أي بين الكاثوليك والأرثودكسية الذي استحكمت حلقاته وترك آثاراً عميقة الجذور في نفوس الفريقين.

-ظهور النظام العسكري الجديد على أسس عقدية ، ومنهجية تربوية وأهداف ربانية وأشرف عليه خيرة قادة العثمانيين.

السلطان مراد الأول (٧٦١-٧٩١هـ)

ولد مراد في عام ٧٢٦ ، وهو العام الذي تولى فيه والده الحكم ، فكان عمره يوم أصبح سلطاناً ستاً وثلاثين سنة .

وفي هذه الأثناء أثناء انتقال الحكم من سلطان إلى آخر أخذت الحماسة أمير دولة القرمان في انقره فاستنهض همم الأمراء المستقلين في آسيا الصغرى لقتال العثمانيين ، وعمل على تجميعهم ، غير أن هذا الأمير وهو علاء الدين لم ير إلا وجيش مراد الأول يحيط بمدينته أنقره ، ويدخلها فاتحاً ، فاضطر إلى عقد الصلح معه يتنازل فيه عن انقره ، ويعترف السلطان مراد بالأمير علاء الدين أميراً على بقية أملاك دولة القرمان ، وتزوج مراد الأول ابنة علاء الدين.

وفي عام ٧٦٢ فتح العثمانيون مدينة (أدرنة) ، وقد سلمها القائد الرومي بعد أن يئس من المقاومة ، فنقل مراد الأول عاصمته إليها؛ ليكون على مقربة من الجهاد في أوروبا ، وليكون الهجوم على القسطنطينية من جهة الغرب أكثر قوة ، ولاستغلال مناعة استحكاماتها الحربية . وبقيت هذه المدينة عاصمة للعثمانيين حتى فتحوا القسطنطينية عام ٨٥٧ .
كما فتحت مدينة (فيلبه) قاعدة الروමللي الشرقي) جنوبي بلغاريا اليوم). وأصبحت القسطنطينية محاطة بالعثمانيين ، وتقدم إمبراطورها فدفع الجزية طواعية ، وقلبه مليء بالأحقاد.

وخاف الأمراء الأوربيون الذين أصبح العثمانيون على حدودهم فكتبوا إلى ملوك أوربا الغربية وإلى البابا يستنجدون بهم ضد المسلمين ، حتى إمبراطور القسطنطينية ذهب إلى البابا وركع أمامه وقبل يديه ورجليه ورجاه الدعم رغم الخلاف المذهبي بينهما. فلبى البابا النداء ، وكتب إلى ملوك أوروبا عامة يطلب منهم الاستعداد للقيام بحرب صليبية جديدة حفاظاً على النصرانية من التقدم الإسلامي الجديد ، غير أن ملك الصرب (أوروك الخامس) الذي خلف (اصطفان دوشان (لم يتوقع هذا الدعم السريع من البابا وملوك أوربا ، لذا فقد استنهض همة الأمراء المجاورين له والذين أصبحوا على مقربة من الخطر على حد زعمهم ، فلبى دعوته أمراء البوسنة (غربي يوغوسلافيا) والافلاق (جنوبي رومانيا) ، وأعداد من فرسان المجر المرتزقة ، وسار الجميع نحو أدرنة حاضرة العثمانيين ، مستغلين انشغال مراد الأول ببعض حروبه في آسيا الصغرى ، غير أن الجيش العثماني قد أسرع للقاء أعدائه فاصطـــدم بهم على نهـــر (مارتيزا) ، فهزمهم هزيمة منكرة ، وولوا الأدبار.

واضطرت بعد ذلك إمارة نصرانية صغيرة على بحر الإدرياتيك على ساحل يوغسلافيا اليوم ، وهي إمارة)راجوزه) أن ترسل وفداً إلى السلطان ، ويعقد معه صلحاً تدفع الإمارة بموجبه للدولة العثمانية ٥٠٠ دوكاً ذهباً لجزية سنوية.

وحاول ملك الصرب الجديد (لازار بلينا نوفتش) وأمير البلغار سيسمان الاتفاق على قتال العثمانيين ، وقد وجدوا نفسيهما ضعيفين رغم أنهما لم يخوضا سوى المعارك الجانبية ، فاضطرا إلى دفع جزية سنوية ، وتزوج السلطان ابنة أمير البلغار عام ٧٨٠.

ونظمت فرق الخيالة في عهد السلطان مراد الأول ، وهي التي عرفت بـــ (سيباه) أو السباهية ويقصد بها الفرسان ، وأصبح لها نظام خاص بحيث يعطى كل فارس جزءاً من الأرض إقطاعاً له ، ويبقي بيد أصحابه سواء أكانوا من المسلمين أم من النصارى يعملون به ، ويدفعون خراجاً معيناً لصاحب الإقطاع الذي يسكن وقت السلم في إقطاعه ، ويعدون وقت الحرب ونفقته ، ويجهز معه جندياً آخر ، وهذا النظام وإن قدم

خدمات في بداية الأمر إلا أن هؤلاء السباهية قد أصبحوا في النهاية أصحاب نفوذ يصعب السيطرة عليهم ، ويختلفون مع أصحاب الأرض الأصليين وبيدهم القوة فينفذون ما يريدون ، ويتضايق أصحاب الأرض

الأصليين وبيدهم القوة فينفذون ما يريدون ، ويتضايق أصحاب الأرض فينقمون على السباهية وبالتالي
على الحكم ، وتكون الفوضى والفجوة بين الحكم والرعية.

ولم ينس السلطان مراد الأول آسيا الصغرى بل بقي دائب التفكير فيها وفي التخلص من تلك الإمارات الصغيرة التي تشكل رقعاً محدودة المساحة ، فهو لا يريد أن يأخذها بالقوة ويشكل نقمة عليه ، ولا يريد أن يتركها تتصارع بينها ، وتجعل مجالاً للتدخل في شؤونها من قبل الغرباء ، وفي الوقت نفسه لا تنفق وتتوحد لتقوم بغزو القسطنطينية يداً واحدة ، وتجاهد كقوة واحدة ، ورأى أن يحل مشكلاتها تدريجياً مع الزمن ، وقد بدأ بإمارة (كرميان) أقرب الإمارات إلى أملاكه ، فزوج ابنه بايزيد من ابنة أمير كرميان فقدم الأب لابنته مدينة(كوتاهية) فضمت إلى الدولة العثمانية ، وفي عام ٧٨٢ ألزم أمير دويلة الحميد الواقعة بين إمارات (قرمان ، وتكه ، ومنتشا) بالتنازل عن أملاكه للدولة العثمانية.

وتأخر الصرب والبلغار في دفع الجزية ويبدو أنه على اتفاق بينهما في هذا التأخير ، فتوجهت الجيوش العثمانية إلى بلادهم ففتحت بعض البلاد الصربية التي تقع اليوم في جنوبي يوغوسلافيا ، كما حاصرت عاصمة البلغار (صوفيا) وفتحتها عام ٧٨٤ بعد حصار استمر ثلاث سنوات ، كما فتحت مدينة(سلانيك) المدينة اليونانية المشهورة والواقعة على بحر ايجه.
تمرد ساوجي بن السلطان على أبيه بالاتفاق مع ابن إمبراطور القسطنطينية (اندرونيكوس بن يوحنا باليوج) ، وكان يوحنا قد حرم ابنه هذا من ولاية العهد وأعطاها لابنه الآخر (عمانويل) ، فأرسل السلطان لابنه جيشاً انتصر عليه وقتله ، كما أرسل إلى الإمبراطور البيزنطي فقتل ابنه أيضاً.

وقام أمير دويلة القرمان علاء الدين ، وبعض الأمراء المستقلين بحرب الدولة العثمانية فأرسل لهم جيشاً انتصر عليهم في سهل (قونية) ، وأخذ الأمير علاء الدين أسيراً ، غير أن ابنته زوجة السلطان قد توسطت له فأطلق سراحه ، وأبقى له إمارته ، ولكنه فرض عليه دفع مبلغ من المال سنوياً وذلك عام ٧٨٧

واستغل الصرب انشغال الجيوش العثمانية في الأناضول لقتال علاء الدين أمير القرمان ومن معه ، فهاجموا القوات العثمانية في جنوب الصرب وحصلوا على بعض النجاح عام ٧٨٨ ، وتأهب أمير البلغار سيسمان للقيام بدوره أيضاً غير أن الجيوش العثمانية قد داهمته واحتلت بعض أجزاء من بلاده ففر إلى الشمال ، واعتصم في مدينة(نيكوبلي) القريبة من الحدود الرومانية ، وجمع فلول جيشه وهاجم بها العثمانيين غير أنه هزم ، ووقع أسيراً ، لكن السلطان أحسن إليه فأبقاه أميراً على نصف بلاده ، وضم الباقي إلى الدولة العثمانية كي لا يعاود الهجوم.

ولما علم ملك الصرب لازار ما تم بأمير البلغار انسحب بجيوشه نحو الغرب للانضمام إلى الألبانيين ومحاربة العثمانيين معه، غير أن الجيوش العثمانية أدركته قبل وصوله إلى مبتغاه ، والتقت معه عام ٧٩١ في معركة وسط سهل (قوص اوه) أي (إقليم كوسوفو) جنوبي يوغسلافيا ، وكان القتال سجالاً بين الطرفين إلا أن صهر لازار قد انحاز إلى جانب المسلمين بفرقته المؤلفة من عشرة آلاف مقاتل ، فانهزم الصربيون ، ووقع ملكهم لازار أسيراً بأيدي العثمانيين ، وهو جريح فقتلوه لما فعل من أفاعيل خسيسة بأسراه من المسلمين.
وإذا كانت الصرب قد فقدت استقلالها غير أن السلطان مراد الأول ذهب في المعركة أيضاً ، وبينما كان يتفقد نتائج المعركة ويتفحص الجثث إذ قام إليه جندي صربي من بين الجثث وطعنه بخنجر فأرداه قتيلاً ، وقتل الجند العثمانيون القاتل الصربي مباشرة.

لقد ورث مراد الأول عن والده إمارة كبيرة بلغت ٩٥٠٠٠ كيلومتر مربع ، وعند استشهاده تسلم ابنه

بايزيد هذه الإمارة العثمانية بعد أن بلغت ٥٠٠٠٠٠ كيلو متر مربع بمعنى أنها زادت في مدى حوالي ٢٩ سنة أكثر من خمسة أمثال ما تركها له والده أورخان.

****

السلطان بايزيد الأول .. الصاعقة (٧٩١-٨٠٥)

ولد بايزيد عام ٧٦١ أي في العام الذي تولى فيه أبوه السلطنة ، فكان عمره ثلاثين عاماً عندما تسلم الحكم بعد وفاة والده.
وكان دائم الجهاد ينتقل من أوروبا إلى الأناضول ثم يعود مسرعاً إلى أوروبا يحقق فيها نصراً جديداً أو تنظيماً حديثاً حتى لقب باسم (يلدرم) أي الصاعقة نظراً لتلك الحركة السريعة والانقضاض المفاجئ.

سياسته مع الصرب:

عين اصطفان بن لازار ملكاً على الصرب في عام ٧٩٢ ، وسمح له بالحكم على مقتضى نظمهم وشرائعهم مقابل دفع جزية سنوية ، وتقديم عدد من المقاتلين ينضمون إلى الجيوش العثمانية وقت الحرب وحينما يطلب السلطان ذلك .كما تزوج السلطان أخت اصطفان وهي (اوليفير) وربما فعل ذلك كي لا يبقى مشغولاً في موضوع الصرب وغاراتهم وحركاتهم ، وحتى يجعلهم حاجزاً بينه وبين المجر، ولشعوره بضرورة اتخاذ حليف له في سياسته العسكرية النشطة التي استهدفت الإمارات السلجوقية التركية في آسيا الصغرى.

ضم أمارات تركية للدولة:

انتقل إلى الأناضـــــول فضم عـــام ٧٩٣ إمـــارة (منتشا) ، وإمارة (آيدين) ، وإمـــارة (صاروخان (إلى العثمانيين دون قتال ، ولكن فر أبناء حكامها إلى قسطموني مركز ولاية (اسفنديار (، كما تنازل أمير دولة القرمان عن جزء من أملاكه إلى السلطان كي يبقي له الجزء الباقي ، كما فتح مدينة الأشهر بقرب أزمير ، وهي آخر مدينة كانت قد بقيت للروم غرب بلا د الأناضول. وبذا يكون قد أمن خلفه ، إذ كان حكام هذه الإمارات يمكن أن يتعاونوا مع أية قوة في سبيل المحافظة على إمارتهم.

حصار القسطنطينية:

اتجه إلى الغرب وحاصر القسطنطينية عام ٧٩٤ ، وضيق الحصار ، واستطاع أن يفرض على الإمبراطور أن يعين قاضياً في القسطنطينية للفصل في شؤون المسلمين ، وما لبث أن حاصر العاصمة البيزنطية ، وقبل الإمبراطور إيجاد محكمة إسلامية وبناء مسجد وتخصيص ٧٠٠ منزل داخل المدينة للجالية الإسلامية ، كما تنازل لبايزيد عن نصف حي غلطة الذي وضعت فيه حامية عثمانية قوامها ٦٠٠٠ جندي ، وزيدت الجزية المفروضة على الدولة البزنطية ، وفرضت الخزانة العثمانية رسوماً على الكروم ومزارع الخضروات الواقعة خارج المدينة ، وأخذت الآذان إلى العاصمة البيزنطية.
ثم تركها محاصرة ، وسار بجيش إلى الأفلاق – الجزء الجنوبي من رومانيا اليوم - ، وأجبر حاكمها على توقيع معاهدة يعترف فيها بسيادة العثمانيين على بلاده ، ويدفع جزية سنوياً ، ثم أبقاه حاكماً على بلاده ، يحكم فيها بقوانينهم الخاصة ونظمهم.

إلى الأناضول من جديد:

اضطر السلطان بايزيد إلى العودة إلى الأناضول مسرعاً ، لأن أمير دولة القرمان علاء الدين قد ندم على تنازله عن جزء من أملاكه للعثمانيين ، ووجد السلطان مشغولاً بأوروبا وحربه لحاكم الأفلاق ، فاستغل هذا الظرف ، وعبأ جنده ، وأثار خصوم السلطان مع بعض الأمراء ، وهاجم العثمانيين في الأناضول ، فأسرع السلطان ، وهزمه ، ولاحقه حتى أخذه وولديه أسرى ، وأنهى دولة القرمان ، كما أنهى إمارة سيواس و توقات ، ثم التفت إلى (اسفنديار) التي كانت ملجأ لأبناء الأمراء الفارين من وجه العثمانيين فطالب

السلطان أمير أبناء الأمراء الذين يحتمون عنده فلما أبى هاجم وضم بلاده و أما الأمير فقد فر إلى تيمورلنك.

إخضاع بلغاريا للسيادة العثمانية:

استمر حصار القسطنطينية، سار السلطان إلى بلاد البلغار عام٧٩٧هـ، فاستولى عليها وأخضع سكانها ، و قتل أميرها سيسمان ، فجعل تلك البلاد ولاية عثمانية ، وأسلم ابن الأمير مقتول ، فأخذه السلطان وجعل والياً على(صامسون)

التكتل المسيحي الصليبي ضد الدولة العثمانية:

قام(سيجسموند) ملك المجر والبابا (بونيفاس التاسع (بدعوة لتكتل أوروبي صليبي مسيحي ضد الدولة العثمانية، وكان ذلك التكتل من أكبر التكتلات التي واجهتها الدولة العثمانية في القرن الرابع عشر ، من حيث عدد الدول التي اشتركت فيه ، ثم أسهمت فيه بالسلاح والعتاد والأموال والقوات ،وبلغ العدد الإجمالي لهذه الحملة الصليبية ١٢٠,٠٠٠ مقاتل من مختلف الجنسيات (ألمانيا وفرنسا وإنجلترا واسكتلندا وسويسرا ولوكسمبورج والأراضي المنخفضة الجنوبية وبعض الأمارات الإيطالية.(

وتحركت الحملة عام (٨٠٠ هـ / ١٣٩٦م) إلى المجر ، ولكن زعماءها وقادتها اختلفوا مع سيجسموند قبل بدء المعركة. فقد كان سيجسموند يؤثر الانتظار حتى يبدأ العثمانيون الهجوم ، ولكن قواد الحملة شرعوا بالهجوم ، وانحدروا مع نهر الدانوب حتى وصلوا إلى نيكوبوليس شمال البلقان وبدؤوا في حصارها وتغلبوا في أول الأمر على القوات العثمانية ، إلا أن يزيد ظهر فجأة ومعه حوالي مئة ألف جندي ، وهو عدد يقل قليلاً عن التكتل الأوروبي الصليبي ، ولكنه يتفوق عليهم نظاماً وسلاحاً ، وكان بقيادة أمير الصرب (اصطفان بن لازار) ومعه كثير من الشعوب النصرانية الخاضعة للحماية العثمانية ، إضافة إلى الجند العثمانيين ، وكان اللقاء في يوم ٢٣ ذي القعدة798 ، فانهزم معظم النصارى ولاذوا بالفرار والهروب وقتل وأسر عدد من قادتهم. وخرج العثمانيون من معركة نيكوبوليس بغنائم كثيرة وفيرة واستولوا على ذخائر العدو. وفي نشوة النصر والظفر قال السلطان بايزيد أنه سيفتح ايطاليا ويطعم حصانه الشعير في مذبح القديس بطرس بروما.
لقد وقع كثير من أشراف فرنسا منهم (الكونت دي نيفر) نفسه في الأسر ، فقبل السلطان بايزيد دفع الفدية وأطلق سراح الأسرى و(الكونت دي ينفر) وكان قد ألزم بالقسم على أنه لا يعود لمحاربته قال له : إني أجيز لك أن لا تحفظ هذا اليمين فأنت في حل من الرجوع لمحاربتي ؛إذ لا شيء أحب إليّ من محاربة جميع مسيحي أوروبا والانتصار عليهم.

أما سيجموند ملك المجر كان قد بلغ به الغرور والاعتداد بجيشه وقوته أن قال : لو انقضت السماء من عليائها لأمسكناها بحرابنا – فقد ولى هارباً ومعه رئيس فرسان رودس، ولما بلغا في فرارهما شاطئ البحر الأسود وجد هناك الأسطول النصراني فوثبا على إحدى السفن وفرت بهما مسرعة لا تلوي على شيء، وتضاءلت مكانة المجر في عيون المجتمع الأوروبي بعد معركة نيكويوليس ، وتبخر ما كان يحيط بها من هيبة ورهبة.

لقد كان ذلك النصر المظفر له أثر على بايزيد والمجتمع الإسلامي ، فقام بايزيد ببعث رسائل إلى كبار حكام الشرق الإسلامي يبشرهم بالانتصار العظيم على النصارى ، واصطحب الرسل معهم إلى بلاطات ملوك المسلمين مجموعة منتقاة من الأسرى المسيحيين باعتبارهم هدايا من المنتصر ودليلاً مادياً على انتصاره.

واتخذ بايزيد لقب (سلطان الروم) كدليل على وراثته لدولة السلاجقة وسيطرته على كل شبه جزيرة الأناضول. كما أرسل إلى الخليفة العباسي المقيم بالقاهرة يطلب منه أن يقر هذا اللقب حتى يتسنى له بذلك أن يسبغ على السلطة التي مارسها هو وأجداده من قبل طابعاً شرعياً رسمياً فتزداد هيبته في العالم الإسلامي ، وبالطبع وافق السلطان المملوكي برقوق حامي الخليفة العباسي على هذا الطلب لأنه يرى بايزيد

حليفه الوحيد ضد قوات تيمورلنك التي كانت تهدد الدولة المملوكية والعثمانية ، وهاجر إلى الأناضول آلاف المسلمين الذين قدموا لخدمة الدولة العثمانية

****

محمد جلبي – محمد الأول (٨١٦- ٨٢٤)

ولد السلطان محمد عام (٧٨١ ١٣٧٩م) ، وانفرد بالسلطة عام ٨١٦ بعد وفاة والده بايزيد ، وعرف في التاريخ (بمحمد جلبي.(

**كان متوسط القامة، مستدير الوجه ، متلاصق الحاجبين ، أبيض البشرة ، أحمر الخدين ، واسع الصدر ، صاحب بدن قوي ، في غاية النشاط ، وجسوراً ، يمارس المصارعة ، ويسحب أقوى أوتار الأقواس.
اشترك أثناء حكمه في ٢٤ حرباً ، وأصيب بأربعين جرحاً.**

استطاع السلطان محمد جلبي أن يقضي على الحرب الأهلية بسبب ما أوتي من الحزم والكياسة وبعد النظر، وتغلب على أخوته واحداً واحداً حتى خلص له الأمر وتفرد بالسلطان ، وقضي سني حكمه الثماني في إعادة بناء الدولة وتوطيد أركانها ، ويعتبره بعض المؤرخين المؤسس الثاني للدولة العثمانية.

**إلا أن الفتن الداخلية قد تتابعت رغم الخوف من السلطان بسبب قتله إخوته ، فإذا فعل هذا بإخوته فكيف يكون مع الآخرين ؟
يبدو أنه كان مع الآخرين أرحم بكثير مما كان مع إخوته ، لأن الملك عقيم ، فقد انتصر على أمير القرامان ، وأخذه أسيراً ، وعفا عنه ، وأقسم له بالطاعة ، غير أن الأمير قد حنث بيمينه ، وعاد إلى قتال السلطان فانتصر عليه ، وأخذه أسيراً مرة أخرى ، وعفا عنه أيضاً. وانتصر على أمير أزمير (قره جنيد) ، وعفا عنه ، وعينه حاكماً على مدينة (نيكوبولي) ، وقام بالدعوة إلى الاشتراكية بدر الدين الذي كان قاضي الجيش عند الأمير موسى ، وكثر أتباعه فقاتله ، وانتصر عليه ، وقتله.**

وظهر الأمير مصطفى بن بايزيد وأخو السلطان محمد ، وهو الذي كان قد اختفى بعد معركة أنقره ، وطالب أخاه بالحكم ، وانضم إليه (قره جنيد) ، ودخل إلى بلاد اليونان ، ولكنه هزم أمام جند أخيه ، ففر إلى مدينة (سلانيك) ، وكانت تتبع الدولة البيزنطية منذ هزيمة العثمانيين في أنقره ، فطلب السلطان تسليمه ، فأبى الإمبراطور ولكن وعد بإبقائه تحت الإقامة الجبرية ما دام السلطان على قيد الحياة ، فوافق السلطان على ذلك وخصص لأخيه راتباً شهرياً.

ويبدو أن السلطان بعد أن قتل إخوته السابقين قد خفف من شدة وطأته وقسوته على أقربائه وعلى الآخرين ، أو أحس بجريمة القتل ، وقدوم الموت بعد أن سبقه إخوته إليه على يديه. وكذلك عفا عن (قره جنيد) عام ٨٢٢.

وكانت سياسته تهدف إلى إعادة بناء الدولة وتقويتها من الداخل ؛ ولذلك سالم إمبراطور القسطنطينية وحالفه وأعاد إليه بعض المدن على شاطئ البحر الأسود ، وفي تساليا ، وصالح البندقية بعد هزيمة أسطوله أمام (كليتبولي) ، وقمع الفتن والثورات في آسيا وأوروبا، وأخضع بعض الأمارات الآسيوية التي أحياها تيمورلنك ودانت له بالطاعة والولاء.

ومات السلطان عام ٨٢٤ بعد أن أوصى لابنه مراد من بعده ، وقد كان يوم وفاة أبيه في أماسيا ، وكتم وفاة السلطان حتى وصل مراد إلى أدرنة بعد واحد وأربعين يوماً ، ودفن محمد جلبي في بورصة.

****

مراد الثاني(٨٢٤-٨٥٥هـ)

ولد في عام ٨٠٦، وتولى أمر السلطنة بعد وفاة أبيه عام ٨٢٤، فكان عمره لا يزيد على ثماني عشرة سنة ، رأى أن يعمل قبل كل شيء على إعادة الإمارات في الأناضول إلى حظيرة الدولة العثمانية بعد أن أعادها تيمورلنك عند سيطرته على المنطقة .

ولهذه الغاية فقد عقد هدنة مع ملك المجر لمدة خمس سنوات ، كما صالح أمير القرامان ، وأما إمبراطور القسطنطينية ، فقد طلب من السلطان أن يتعهد له بعدم قتاله ، وكي يكون هذا العهد مضموناً فيجب على السلطان أن يسلمه اثنين من إخوته رهينة ، وإذا ما فكر السلطان بالحرب فإن الإمبراطور على استعداد لأن يطلق سراح عم السلطان وهو مصطفى بن بايزيد المحجوز في سلانيك.

رفض السلطان هذا التعهد فما كان من الإمبراطور إلا أن أطلق سراح مصطفى ودعمه بعشرة مراكب كمساعدة له على حصار مدينة) غاليبولي) على شاطئ مضيق الدردنيل، ولم يتمكن مصطفى من دخول قلعتها رغم دخوله المدينة فترك في المدينة حامية لحصار القلعة كي لا يصل إليها المدد، وسار نحو أدرنة ، فالتقى بالقائد العثماني بايزيد باشا فانتصر عليه وقتله ، وتابع سيره نحو ابن أخيه مراد ، غير أن قواد مصطفى لم يطيعوه وتخلوا عنه مع جنودهم وقت الشدة ففر ، وسار نحو مدينة (غاليبولي) ، فقبض عليه وأعدم .

وسار السلطان مراد نحو القسطنطينية انتقاماً من إمبراطورها وألقى عليه الحصار، وهاجمها في مطلع رمضان من عام ٨٢٥ كي تكون الروح المعنوية أقوى، غير أنه عجز عن فتحها، واضطر إلى رفع الحصار عنها لأن أخاه مصطفى قد شق عصا الطاعة عليه وساعده أمراء الدويلات في الأناضول، وقد تمكن من هزيمة أخيه مصطفى وقتله، ووجد أن هدفه الأول وهو إعادة الإمارات إلى الدولة يجب أن يعود إليه، وأن يقدمه على غيره، وإن قتال هذه الإمارات فيه كلام لأن كل الطرفين مسلم، وتركها لا يمكنه معها الجهاد فهي مطمع للأعداء أولاً، ودخول إلى المعركة من غير قوة.

وخاف أمير قسطموني على نفسه إذ كان يدعم الأمير مصطفى وقد انتهى أمره، لذا فقد أسرع وتنازل عن نصف إمارته، وزوجه ابنته عام.826

وقام (قره جنيد) واستولى على إمارة آيدين ، وأعلن انفصاله عن الدولة ، غير أنه هزم وقتل. ثم دخل السلطان إمارات آيدين، ومنتشا، وصاروخان، وقتل أمير القرامان محمد، وعين مكانه ابنه إبراهيم الذي تنازل للعثمانيين عن اقليم الحميد، وتوفي عام ٨٣١ أمير دويلة الكرميان ولم يكن له عقب فأوصى أن تلتحق الإمارة بالدولة العثمانية. وانتهى بذلك من كل مشكلة في الأناضول، وأصبح بإمكانه التوجه إلى أوروبا ، لتصفية حسابه مع الحكام الذين أساءوا للعثمانيين في أثناء المحنة التي حلت بهم أيام السلطان بايزيد ، وبعدها يصفو له الجو لفتح القسطنطينية ومعاقبة إمبراطورها الذي حرض عليه.

وكان السلطان مراد الثاني يرى أن القتال في أوروبا أسهل فهو جهاد والروح المعنوية لدى المسلمين تكون عالية ما داموا يقاتلون ضد النصارى ، ويعملون مجاهدين لنشر دينهم على حين كانوا يساقون لقتال أمراء الدويلات في الأناضول دفعاً.

بدأ بقتال ملك المجر وعقد معه معاهدة تنازل فيها للسلطان عن أملاكه التي تقع على الضفة اليمنى لنهر

الدانوب الذي سيكون حداً فاصلاً بين الطرفين.

ورأى أمير الصرب (جورج برنكوفتش) عجزه فعقد معاهدة مع السلطان تقضي بدفع الجزية سنوية وقدرها خمسين ألف دوك ذهبي ، وأن يقدم فرقة من جنوده لمساعدة السلطان في حروبه ، وأن يقطع علاقاته مع

ملك المجر ، وأن يتنازل عن بعض المواقع للعثمانيين ، كما تزوج السلطان ابنه (جورج برنكوفتش) مارا. واستعاد مدينة سلانيك عام ٨٣٣ من البندقية، وكان إمبراطور القسطنطينية قد تنازل عنها لهم ، وقد حاصرها السلطان خمسة عشر يوماً. واعترف أمير الأفلاق بسيادة العثمانيين على بلاده عام ٨٣٦. وخضعت له ألبانيا بعد حروب بسيطة ، واشترط أميرها عدم التعرض لعقائد السكان ، وسلم أولاده الأربعة رهينة للسلطان ، وعندما توفي هذا الأمير عام 834 ضم السلطان أملاكه إليه.

ظن السلطان أن وضعه في أوربا قد استقر ، وأن إمبراطور القسطنطينية لم يبق له سند لا في الأناضول ، ولا في أووربا وبإمكانه الآن التوجه إليه وإلزامه على الاستسلام ، ودخول القسطنطينية عسى أن يكون مغفوراً له ، كما بشر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما أن بدأ يستعد لمهمته حتى عاد حكام أوروبا المتعاقدين معه على نقض العهد وإعلان العصيان. لقد حرض ملك المجر أمير الأفلاق وأمير الصرب فثارا فأدبهما السلطان ، ثم سار إلى ملك المجر فخرب عدداً من المدن ، وعاد بعدد عظيم من الأسرى.

عاد أمير الصرب (جورج برنكوفتش) فثار، فهاجمه السلطان، وفتح جزءاً من بلاد الصرب، وحاصر العاصمة بلغراد ستة أشهر، وغادرها أميرها متوجهاً إلى ملك المجر ، ثم غادرها ، وأرسل جيشه للهجوم على(ترانسلفانيا (من أملاك المجر - وتقع شمال الأفلاق وإلى الغرب من البغدان ، وتشكل اليوم الجزء الغربي من دولة رومانيا - غير أن جيشه قد هزم وقتل قائده مع عشرين ألفاً من الجند ، وانسحب العثمانيون إلى ما بعد نهر الدانوب ، فأرسل السلطان جيشاً آخر قوامه ثمانون ألفاً غير أنه هزم أيضاً ، وأسر قائده ذلك إلى بلاد الصرب فالتقى عام ٨٤٦ بالسلطان مراد الثاني نفسه فنشبت بين الفريقين ثلاثة معارك هزم فيها السلطان كلها ، واضطر إلى توقيع معاهدة تنازل فيها السلطان عن الأفلاق للمجر ، ورد للصرب بعض المواقع ، وقامت بين الطرفين هدنة مدتها عشر سنوات.

شعر السلطان بالتعب فرأى أن يخلد إلى الراحة ، ثم إن ابنه الأمير علاء مات ففجع به السلطان واشتد حزنه عليه وزهد في الدنيا والملك ، فترك الحكم لابنه الثاني محمد الذي لم يبلغ من العمر الرابعة عشرة ، وسافر إلى غربي الأناضول في ولاية آيدين حيث الهدوء.

كان البابا يراقب الأحداث ، وكم سره هزيمة السلطان وخاصة أن كان قد اشترك مع المجريين أعداد من الصليبيين من بولنديين ، وفرنسيين ، وألمان، وبنادقة ، وجنوبيين ،إضافة إلى الأفلاق ، والصرب وغيرهم. وأثارت الباب تلك المعاهدة التي وقعها السلطان مع المجريين وأنهت الحرب بين الطرفين لمدة عشر سنوات؛ لذا فقد أرسل مندوباً من قبله وهو (سيزاريني (إلى ملك المجر ، وطلب نقض العهد ، وليس في هذا النقض شيء من الناحية الدينية ، فليس مع الكفار المسلمين نقض لعهد أو حنث بقسم.

تنادى ملوك النصارى لشن حملة صليبية جديدة ، فجمعوا جموعهم ، وهاجموا بلاد البلغار ، وساعدهم على ذلك أن السلطان كان في مكان عزلته في مقاطعة (آيدين) في مدينة (مغنيسيا) ، وأن طفله لم يتمرس بعد على القتال ، ووصل الخبر إلى السلطان فغادر مكانه ، واتجه إلى أوروبا ، فقاد الجيش وسار نحو الأعداء فوجدهم يحاصرون مدينة (فارنا) البلغارية الواقعة على ساحل البحر الأسود ، فنازلهم ، وقتل ملك المجر بنفسه في ساحة المعركة ، وحمل العثمانيون رأسه قائلين : (أيها الكفار هذا رأس ملككم) فاختل ترابط الجند ، فهاجم السلطان معسكر الأعداء ، واحتله ، وقتل الكاردينال (سيزاريني) مندوب البابا ، وتم النصر للمسلمين في ٢٨ رجب عام ٨٤٨، في سهل قوصوه ، بعد أن استمرت ثلاثة أيام ، وقد أخرجت هذه

المعركة بلاد المجر لعشر سنوات على الأقل من عداد الدول التي تستطيع النهوض بعمليات حربية هجومية ضد العثمانيين . وعاد السلطان فترك الأمر إلى ابنه ، ورجع إلى مغنيسيا

ولم تطل إقامته أكثر من ثلاثة أشهر إذ اضطر للعودة إلى أدرنه قاعدة الدولة حيث استصغر قادة الجيش العثمانيين من الانكشارية السلطان الصغير، إذ عصوا أمره ، ونهبوا المدينة ، ووصل السلطان فأدب القادة وأشغلهم بالقتال في بلاد اليونان ، وذلك أن إمبراطور القسطنطينية قد قسم أملاكه بين أولاده إذ أعطى ابنه حنا مدينة القسطنطينية وابنه قسطنطين بلاد الموره أي جنوب اليونان ، فسار السلطان لحرب اليونان ، واستعمل المدافع لأول مرة ، ولم يتمكن من فتحها بسبب تمرد اسكندر بك.

كان اسكندر أحد أبناء أمير ألبانيا الذين عاشوا رهينة عند السلطان عندما سلم أبوه البلاد للسلطان فأظهر اسكندر الإسلام، ولما وجد السلطان مشغولاً بالحروب فر إلى إلبانيا ، وطرد العثمانيين منها. فسار إليه السلطان بقوة كبيرة وهزمه ، وأخذ منه بعض المواقع عام ٨٥١ ، ثم اضطر إلى تركه للتوجه إلى مقابلة الجيش المجري الذي أراد أن يثأر من معركة (فارنا) ، والتقى به في وادي كوسوفو ، وانتصر عليه انتصاراً مؤزراً عام ٨٥٢ ، ثم عاد فاتجه إلى اسكندر بك ، وحاصر مدينة (آق حصار) ، ولم يتمكن من فتحها لتعب جيوشه ، فأراد أن يتفق مع اسكندر بك بحيث يسلمه حكم ألبانيا مقابل جزية سنوية ، غير أن اسكندر بك لم يقبل ، واضطر السلطان أن يعود إلى أدرنة ليستعد بصورة أفضل ، وبينما هو كذلك إذ وافته المنية مطلع عام ٨٥٥ (٥ محرم) عن عمر يناهز التاسعة والأربعين ، ونقلت جثته إلى بورصة حيث دفن هناك ، وتسلم السلطنة ابنه محمد باسم محمد الثاني ، وهو الفاتح.

وفاته ووصيته:

قال صاحب النجوم الزاهرة في وفيات عام ٨٥٥هـ في مراد الثاني : (وكان خير ملوك زمانه شرقاً وغرباً ، مما اشتمل عليه من العقل والحزم والعزم والكرم والشجاعة والسؤدد ، وأفنى عمره في الجهاد في سبيل الله تعالى ، غزا عدة غزوات ، وفتح عدة فتوحات ، وملك الحصون المنيعة ، والقلاع والمدن من العدو المخذول. على أنه كان منهمكاً في اللذات التي تهواها النفوس ، ولعل حاله كقول بعض الأخيار – وقد سئل عن دينه – فقال : أمزقه بالمعاصي وأرقعه بالاستغفار – فهو أحق بعفو الله وكرمه ، فإن له المواقف المشهورة ، وله اليد البيضاء في الإسلام ونكاية العدو ، حتى قيل إنه كان سياجاً للإسلام والمسلمين عفا الله عنه ، وعوض شبابه الجنة

وبناء على وصيته رحمه الله دفن في جانب جامع مرادية في بورصة. ووصى بأن لا يبنى على قبره شيء، وأن يعمل أماكن في جوانب القبر يجلس فيها الحفاظ لقراءة القرآن الكريم ،وأن يدفن في يوم الجمعة فنفذت وصيته.

وترك في وصيته شعراً ، بعد أن كان قلقاً يخشى أن يدفن في قبر ضخم ، وكان يريد ألا يبنى شيء على مكان دفنه ، فكتبها شعراً ليقول : فليأت يوم يرى الناس فيه ترابي.

لقد قام السلطان مراد ببناء جوامع ومدارس، وقصوراً وقناطر فمنها جامع أدرنة ذو ثلاثة شرف ،وبنى بجانب هذا الجامع مدرسة وتكية يطعم فيها الفقراء والمساكين.

****

محمد الثاني (الفاتح) (٨٥٥هـ - ٨٨٦)

يعتبر السلطان محمد الثاني العثماني السابع في سلسلة آل عثمان، يلقب بالفاتح وأبي الخيرات. حكم ما يقرب من ثلاثين عاماً كانت خيراً وعزة للمسلمين.
ولقد امتاز السلطان محمد الفاتح بشخصية فذة جمعت بين القوة والعدل، كما أنه فاق أقرانه منذ حداثته في كثير من العلوم التي كان يتلقاها في مدرسة الأمراء وخاصة معرفته لكثير من لغات عصره وميله الشديد لدراسة كتب التاريخ، مما ساعده فيما بعد على إبراز شخصيته في الإدارة وميادين القتال حتى أنه اشتهر أخيراً في التاريخ بلقب محمد الفاتح، لفتحه القسطنطينية.

وقد انتهج المنهج الذي سار عليه والده وأجداده في الفتوحات، ولقد برز بعد توليه السلطة في الدولة العثمانية بقيامه بإعادة تنظيم إدارات الدولة المختلفة، واهتم كثيراً بالأمور المالية فعمل على تحديد موارد الدولة وطرق الصرف منها بشكل يمنع الإسراف والبذخ أو الترف.
وكذلك ركز على تطوير كتائب الجيش وأعاد تنظيمها ووضع سجلات خاصة بالجند، وزاد من مرتباتهم وأمدهم بأحدث الأسلحة المتوفرة في ذلك العصر.
وعمل على تطوير إدارة الأقاليم، وأقر بعض الولاة السابقين في أقاليمهم، وعزل من ظهر منه تقصير أو إهمال، وطور البلاط السلطاني، وأمدهم بالخبرات الإدارية والعسكرية الجيدة مما ساهم في استقرار الدولة والتقدم إلى الإمام.

وبعد أن قطع أشواطاً مثمرة في الإصلاح الداخلي تطلع إلى المناطق المسيحية في أوروبا لفتحها ونشر الإسلام فيها، ولقد ساعدته عوامل عدة في تحقيق أهدافه، منها الضعف الذي وصلت إليه الإمبراطورية البيزنطية بسبب المنازعات مع الدول الأوروبية الأخرى، وكذلك بسبب الخلافات الداخلية التي عمت جميع مناطقها ومدنها، ولم يكتف السلطان محمد بذلك بل أنه عمل بجد من أجل أن يتوج انتصاراته بفتح القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، والمعقل الاستراتيجي الهام للتحركات الصليبية ضد العالم الإسلامي لفترة طويلة من الزمن، والتي طالما اعتزت بها الإمبراطورية البيزنطية بصورة خاصة والمسيحية بصورة عامة، وجعلها عاصمة للدولة العثمانية وتحقيق ما عجز عن تحقيقه أسلافه من قادة الجيوش الإسلامية.

ولد محمد الثاني عام ٨٣٣، وتولى السلطنة عام ٨٥٥، فكان عمره يومذاك اثنين وعشرين سنة، وأراد أن يتمم ما بدأ به أبوه .
وكان أول عمل قام به أن أرجع زوجة أبيه الأميرة الصربية (مارا) إلى أبيها. وقتل أخاً له رضيعاً اسمه أحمد، [وهذا القتل لا يصح أبداً ، فالطفل رضيع ولا ذنب له ، ولا يتحمل وزر غيره إن كانت هناك أوزار يريد السلطان أن ينتهي منها ، فهذا القتل مخالفة شرعية وحدها القتل.]
ثم بنى قلعة على مضيق البوسفور على الشاطئ الأوروبي مقابل القلعة التي بناها السلطان بايزيد على الشاطئ الآسيوي كي يتحكم بالمضيق ، ويمنع وصول الإمدادات إلى القسطنطينية من مملكة طرابزون الروحية الواقعة على ساحل البحر الأسود شمال شرقي الأناضول ، ورأى قسطنطين أن محمد الثاني عازم على دخول مدينته فعرض دفع الجزية التي لم يريد فرفض السلطان ، ورأى أن يتزوج بأرملة السلطان مراد الثاني أم السلطان محمد وكانت لا تزال على نصرانيتها فرفضت واعتكفت في بعض الأديرة.

أراد السلطان الفاتح بعدئذ أن يتوجه إلى بلاد المورة لفتحها، فأرسل ملكها وفداً إليه يعرض عليه دفع جزية

سنوية قدرها ١٢ ألف دوك ذهب.
ثم بدأ الإمبراطور يستنجد الدول النصرانية، وتم حصار القسطنطينية وفتحها بعد عامين فقط من توليه السلطة ، [سنتحدث قريباً عن هذا الفتح العظيم. [

وصالح أمير الصرب مقابل جزية قدرها ثمانون ألف دوك عان ٨٥٧، وفي السنة الثانية دخل السلطان إلى بلاد الصرب، وحاصر بلغراد، ودافع عنها المجر، ولم يتمكن العثمانيون من فتحها، ثم صار الصدر الأعظم محمود باشا ففتحها بين ٨٦١ – ٨٦٣.

وتمكن من فتح بلاد الموره عام ٨٦٣، وفر ملكها إلى إيطاليا، كما فتح الجزر التي في بحر إيجه قرب مضيق الدردنيل. وعقد صلحاً مع اسكندر بك أمير ألبانيا.
توجه سراً إلى الأناضول ففتح ميناء (اماستريس) الذي يتبع جنوه، وأكثر سكانه من التجار، كما دخل ميناء سينوب ، واحتل مملكة طرابزون دون مقاومة ، وكانت تتبع القسطنطينية.

سار إلى أوروبا لمحاربة أمير الأفلاق لظلمه وتعديه على العثمانيين ، فطلب الأمير صلحاً مقابل جزية سنوية قدرها عشرة آلاف دوك ، فوافق السلطان غير أن هذا الأمير لم يطلب هذا الصلح إلا لتتاح له الفرصة ليتفق مع ملك المجر لمحاربة العثمانيين. فلما اتفقا، وعلم السلطان أرسل إليه رجلين يستوضح الخبر فقتلهما أمير الأفلاق، وسار مغيراً على أملاك الدولة العثمانية في بلغاريا، فأفسد فيها ، واستاق الأسرى. فأرسل إليه السلطان وفداً يطلب منه أن يعيد الأسرى، ويبقى على صلحه ، فمثل بهم شر تمثيل ، فسار إليه السلطان ففر أمير الأفلاق إلى ملك المجر ، فضم السلطان الأفلاق إلى العثمانيين ، وعين أخا أمير الأفلاق والياً عليها من قبله.
واصطدم السلطان مع البنادقة الذين يملكون بعض المواقع في بلاد المورة، وجزراً كثيرة في بحر إيجه ، وقد هاجم البنادقة بعض المراكز العثمانية ودخلوها ، فسار إليهم السلطان ففروا من مواقعهم ، ودخلها العثمانيون. وبعد هدنة سنة عاد البنادقة لغيهم إذ أرادوا استعادة ما فقدوه ، وبدؤوا يغيرون على الدولة فكانت النتيجة أن فقدوا بعض مواقعهم المهمة.
و بدأ البابا يدعو إلى حرب صليبية فشجع اسكندر بك أمير ألبانيا على نقض عهده مع السلطان، ودعا ملوك أوربا وأمرائها لمساندته، غير أن البابا قد توفي ولم تقم الحرب الصليبية، لكن اسكندر بك نقض العهد، وحارب العثمانيين، وكانت الحرب سجالاً بين الطرفين. وتوفي اسكندر بك عام ٨٧٠.

اتجه السلطان إلى الأناضول فضم إليه إمارة القرمان نهائياً إذ اختلف أبناء أميرهم إبراهيم الذي أوصى عند وفاته لابنه إسحاق فنازعه إخوته، فأيد السلطان إخوة إسحاق عليه وهزمه ، وعين مكانه أحد إخوته ، فلما رجع السلطان إلى أوروبا ، احتل إسحاق قونية وفرض نفسه ، فرجع إليه السلطان وهزمه ، وضم الإمارة إلى الدولة العثمانية.

عرض السلطان عام ٨٧٨ على أمير البغدان اصطفان الرابع الجزية حتى لا يحاربه فلم يقبل الأمير، فأرسل إليه جيشاً وانتصر عليه بعد حروب عنيفة، ولكن لم يستطيع فتح هذا الإقليم ، فعزم السلطان على دخول القرم للإفادة من فرسانها في قتال البغدان ، وتمكن من احتلال أملاك الجنوبيين الممتدة على شواطئ شبه جزيرة القرم ، ولم يقاوم التتار سكان القرم العثمانيين بل دفعوا لهم مبلغاً من المال سنوياً . وأقلعت السفن الحربية العثمانية من القرم إلى مصب نهر الدانوب فدخلت ، وكان السلطان يدخل بلاد البغدان عن طريق البر ، فانهزم اصطفان الرابع ، فتبعه السلطان في طريق مجهولة ، فانقض عليه اصطفان الرابع وانهزم السلطان ، وارتفع اسم اصطفان الرابع وذلك عام ٨٨١.

وصالح السلطان البنادقة ، وانهزم أمام المجر عندما سار لفتح ترانسلفانيا ، ولكنه في البحر فتح الجزر التي بين اليونان وايطاليا ، كما فتح مدينة) اوترانت) في جنوبي شبه جزيرة ايطاليا عام ٨٨٥ ، وحاصر في العام نفسه جزيرة) رودوس) ولم يتمكن من فتحها.

وفي أثناء حصار القسطنطينية عرف ضريح أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري رضي الله عنه، فبنى عنده مسجداً ، وأصبح تنصيب السلاطين يتم بهذا المسجد.

وتوفي السلطان محمد الفاتح يوم ٤ ربيع الأول عام ٨٨٦ عن عمر ينوف على خمس وخمسين سنة بعد أن حكم إحدى وثلاثين سنة.

أهم أعمال السلطان محمد الفاتح

١) اهتمامه بالمدارس والمعاهد :

فقد كان محباً للعلم والعلماء، لذلك اهتم ببناء المدارس والمعاهد في جميع أرجاء دولته، وفاق أجداده في هذا المضمار، وبذل جهوداً كبيرة في نشر العلم وإنشاء المدارس المعاهد، وأدخل بعض الإصلاحات في التعليم وأشرف على تهذيب المناهج وتطويرها، وحرص على نشر المدارس والمعاهد في كافة المدن والقرى وأوقف عليها الأوقاف العظيمة .
ونظم هذه المدارس ورتبها على درجات ومراحل، ووضع لها المناهج، وحدد العلوم والمواد التي تدرس في كل مرحلة، ووضع لها نظام الامتحانات الدقيقة للانتقال للمرحلة التي تليها، وكان ربما يحضر امتحانات الطلبة ويزور المدارس ولا يأنف من سماع الدروس التي يلقيها الأساتذة، ولا يبخل بالعطاء للنابغين من الأساتذة والطلبة ، وجعل التعليم في كافة مدارس الدولة بالمجان ، وكانت المواد التي تدرس في تلك المدارس: التفسير والحديث والفقه والأدب والبلاغة وعلوم اللغة والهندسة، وأنشأ بجانب مسجده الذي بناه بالقسطنطينية ثمان مدارس على كل جانب من جوانب المسجد أربعة مساجد يتوسطها صحن فسيح، وفيها يقضي الطالب المرحلة الأخيرة من دراسته وألحقت بهذه المدارس مساكن الطلبة ينامون فيها ويأكلون طعامهم ووضعت لهم منحة مالية شهرية، وأنشأ بجانبها مكتبة خاصة وكان يشترط في الرجل الذي يتولى أمانة هذه المكتبة أن يكون من أهل العلم والتقوى متبحراً في أسماء الكتب والمؤلفين، وكانت مناهج المدارس يتضمن نظام التخصص، فكان للعلوم النقلية والنظرية قسم خاص وللعلوم التطبيقية قسم خاص أيضاً.

٢) اهتمامه بالعلماء :

فقد قرب العلماء ورفع قدرهم وشجعهم على العمل والإنتاج وبذل لهم الأموال ووسع لهم في العطايا والمنح والهدايا ويكرمهم غاية الإكرام، ولما هزم أوزون حسن أمر السلطان بقتل جميع الأسرى إلا من كان من العلماء وأصحاب المعارف.
وكان من مكانة الشيخ أحمد الكوراني أنه كان يخاطب السلطان باسمه ولا ينحني له، ولا يقبل يده بل يصافحه مصافحة، وأنه كان لا يأتي إلى السلطان إلا إذا أرسل إليه، وكان يقول له :مطعمك حرام وملبسك حرام فعليك بالاحتياط.

٣) اهتمامه بالشعراء والأدباء:

فكان شاعراً مجيداً مهتماً بالأدب عامة والشعر خاصة، وكان يصاحب الشعراء ويصطفيهم، واستوزر الكثير منهم، وكان في بلاطه ثلاثون شاعراً يتناول كل منهم راتباً شهرياً قدره ألف درهم، وكان مع هذا ينكر على الشعراء التبذل والمجون والدعارة ويعاق الذي يخرج عن الآداب بالسجن أو يطرده من بلاده.

٤) اهتمامه بالترجمة :

فقد كان متقناً للغة الرومية، وأمر بنقل كثير من الآثار المكتوبة باليونانية واللاتينية والعربية والفارسية إلى اللغة التركية، ونقل إلى التركية كتاب التصريف في الطب للزهراوي، وعندما وجد كتاب بطليموس في الجغرافيا وخريطة له طلب من العالم الرومي جورج اميروتزوس وابنه أن يقوما بترجمته إلى العربية

وإعادة رسم الخريطة بالغتين العربية والرومية و كافأهما على هذا العمل بعطايا واسعة، وقام العلامة القوشجي بتأليف كتاب بالفارسية ونقله للعربية وأهداه للفاتح.

كما كان مهتماً باللغة العربية فقد طلب من المدرسين بالمدارس الثماني أن يجمعوا بين الكتب الستة في تدريسهم وبين علم اللغة كالصحاح.. ودعم الفاتح حركة الترجمة والتأليف لنشر المعارف بين رعاياه

بالإكثار من نشر المكاتب العامة وأنشأ له في قصره خزانة خاصة احتوت على غرائب الكتب والعلوم، وكان بها اثنا عشر ألف مجلد عندما احترقت.

٥) اهتمامه بالعمران والبناء والمستشفيات:

كان السلطان محمد الفاتح مغرماً ببناء المساجد والمعاهد والقصور والمستشفيات والخانات والحمامات والأسواق الكبيرة والحدائق العامة، وأدخل المياه إلى المدينة بواسطة قناطر خاصة .

وشجع الوزراء وكبار رجال الدولة والأغنياء والأعيان على تشييد المباني وإنشاء الدكاكين والحمامات وغيرها من المباني التي تعطى المدن بهاء ورونقاً، واهتم بالعاصمة) استنبول) اهتماماً خاصاً، وكان حريصاً على أن يجعلها (أجمل عواصم العالم) وحاضرة العلوم والفنون.

وكثر العمران في عهد الفاتح وانتشر ، واهتم بدور الشفاء ، ووضع لها نظاماً مثالياً في غاية الروعة والدقة والجمال، فقد كان يعهد بكل دار من هذه الدور إلى طبيب – ثم زيد إلى اثنين – من حذاق الأطباء من أي جنس كان، يعاونهما كحال وجراح وصيدلي وجماعة من الخدم والبوابين ، ويشترط في جميع المشتغلين بالمستشفي أن يكونوا من ذوي القناعة والشفقة والإنسانية، ويجب على الأطباء أن يعودوا المرضى مرتين في اليوم ، وأن لاتصرف الأدوية للمرضى إلا بعد التدقيق من إعدادها، وكان يشترط في طباخ المستشفي أن يكون عارفاً بطهي الأطعمة والأصناف التي توافق المرضى منها ، وكان العلاج والأدوية في هذه المستشفيات بالمجان ويغشاها جميع الناس بدون تمييز بين أجناسهم وأديانهم.

٦) الاهتمام بالتجارة والصناعة:

اهتم السلطان محمد الفاتح بالتجارة والصناعة وعمل على إنعاشهما بجميع الوسائل والعوامل والأسباب. وكان العثمانيون على دراية واسعة بالأسواق العالمية ، وبالطرق البحرية والبرية وطوروا الطرق القديمة ، وأنشأوا الكباري الجديدة مما سهل حركة التجارة في جميع أجزاء الدولة ، واضطرت الدول الأجنبية من فتح موانيها لرعايا الدولة العثمانية ليمارسوا حرفة التجارة في ظل الراية العثمانية.
وكان من أثر السياسة العامة للدولة في مجال التجارة والصناعة أن عم الرخاء وساد اليسر والرفاهية في جميع أرجاء الدولة، وأصبحت للدولة عملتها الذهبية المتميزة، ولم تهمل ا لدولة إنشاء دور الصناعة ومصانع الذخيرة والأسلحة ، وأقامت القلاع والحصون في المواقع ذات الأهمية العسكرية في البلاد.

٧) الاهتمام بالتنظيمات الإدارية:

عمل السلطان محمد الفاتح على تطوير دولته ؛ ولذلك قنن قوانين حتى يستطيع أن ينظم شؤون الإدارة المحلية في دولته ، وكانت تلك القوانين مستمدة من الشرع الحكيم .
وشكل السلطان محمد لجنة من خيار العلماء لتشرف على وضع (قانون نامه) المستمد من الشريعة الغراء وجعله أساساً لحكم دولته، وكان هذا القانون مكوناً من ثلاثة أبواب ، يتعلق بمناصب الموظفين وببعض التقاليد وما يجب أن يتخذ من التشريفات والاحتفالات السلطانية وهو يقرر كذلك العقوبات والغرامات ، ونص صراحة على جعل الدولة حكومة إسلامية قائمة على تفوق العنصر الإسلامي أياً كان أصله وجنسه. واهتم محمد الفاتح بوضع القوانين التي تنظم علاقة السكان من غير المسلمين بالدولة ومع جيرانهم من

المسلمين ، ومع الدولة التي تحكمهم وترعاهم ، وأشاع العدل بين رعيته ، وجد في ملاحقة اللصوص وقطاع الطرق ، وأجرى عليهم أحكام الإسلام ، فاستتب الأمن وسادت الطمأنينة في ربوع الدولة العثمانية. وعندما تعلن الدولة الجهاد وتدعوا أمراء الولايات وأمراء الألوية، كان عليهم أن يلبوا الدعوة ويشتركوا في الحرب بفرسان يجهزونهم تجهيزاً تاماً ، وذلك حسب نسب مبينة، فكانوا يجهزون فارساً كامل السلاح قادراً على القتال عن كل خمسة آلاف آقجه من إيراد اقطاعه ، فإذا كان إيراد إقطاعه خمسمائة ألف آقجة

مثلاً كان عليه أن يشترك بمائة فارس ، وكان جنود الإيالات مؤلفة من مشاة وفرسان ، وكان المشاة تحت قيادة وإدارة باشوات الإيالات وبكوات الألوية.
وقام محمد الفاتح بحركة تطهير واسعة لكل الموظفين القدماء غير الأكفاء وجعل مكانهم الأكفاء ، واتخذ الكفاية وحدها أساساً في اختيار رجاله ومعاونيه وولاته.

٨) اهتمامه بالجيش والبحرية:
وقد تميز عصر السلطان محمد الفاتح بجانب قوة الجيش البشرية وتفوقه العددي ، بإنشاءات عسكرية عديدة متنوعة ، فأقام دور الصناعة العسكرية لسد احتياجات الجيش من الملابس والسروج والدروع ومصانع الذخيرة والأسلحة ، وأقام القلاع والحصون في المواقع ذات الأهمية العسكرية ، وكانت هناك تشكيلات متنوعة في تمام الدقة وحسن التنظيم من فرسان ومشاة ومدفعية وفرق مساعدة ، تمد القوات المحاربة بما تحتاجه من وقود وغذاء وعلف للحيوان وإعداد صناديق الذخيرة حتى ميدان القتال.
وكان هناك صنف من الجنود يسمى ، " لغمجية" وظيفته الحفر للألغام وحفر الأنفاق تحت الأرض أثناء محاصرة القلعة المراد فتحها وكذلك السقاؤون كان عليهم تزويد الجنود بالماء.
ولقد تطورت الجامعة العسكرية في زمن الفاتح وأصبحت تخرج الدفعات المتتالية من المهندسين والأطباء والبيطريين وعلماء الطبيعيات والمساحات ، وكانت تمد الجيش بالفنيين المختصصين .
استحق معه أن يعده المؤرخون مؤسس الأسطول البحري العثماني ، ولقد استفاد من الدول التي وصلت إلى مستوى رفيع في صناعة الأساطيل مثل الجمهوريات الإيطالية وبخاصة البندقية وجنوا أكبر الدول البحرية في ذلك الوقت.

٩) اهتمامه بالعدل:
إن إقامة العدل بين الناس كان من واجبات السلاطين العثمانيين ، وكان السلطان محمد شأنه في ذلك شأن من سلف من آبائه – شديد الحرص على إجراء العدالة في أجزاء دلته، ولكي يتأكد من هذا الأمر كان يرسل بين الحين والحين إلى بعض رجال الدين من النصارى بالتجوال والتطواف في أنحاء الدولة ، ويمنحهم مرسوماً مكتوباً يبين مهمتهم وسلطتهم المطلقة في التنقيب والتحري والاستقصاء لكي يطلعوا كيف تساس أمور الدولة وكيف يجري ميزان العدل بين الناس في المحاكم ، وقد أعطى هؤلاء المبعوثون الحرية الكاملة في النقد وتسجيل ما يرون ثم يرفعون ذلك كله إلى السلطان.
وقد كانت تقرير هؤلاء المبعوثين النصارى تشيد دائماً بحسن سير المحاكم وإجراء العدل بالحق والدقة بين الناس بدون محاباة أو تمييز ، وكان السلطان الفاتح عند خروجه إلى الغزوات يتوقف في بعض الأقاليم وينصب خيامه ليجلس بنفسه للمظالم ويرفع إليه من شاء من الناس شكواه ومظلمته.
وقد اعتنى الفاتح بوجه خاص برجال القضاء الذين يتولون الحكم والفصل في أمور الناس ، فلا يكفي في هؤلاء أن يكونوا من المتضلعين في الفقه والشريعة والاتصاف بالنزاهة والاستقامة وحسب بل لا بد إلى جانب ذلك أن يكونوا موضع محبة وتقدير بين الناس ، وأن تتكفل الدولة بحوائجهم المادية حتى تسد طرق الإغراء والرشوة ، فوسع لهم الفاتح في عيشهم كل التوسعة ، وأحاط منصبهم بحالة مهيبة من الحرمة والجلالة والقداسة والحماية. أما القاضي المرتشي فلم يكن له عند الفاتح من جزاء غير القتل.
وكان السلطان الفاتح - برغم اشتغاله بالجهاد والفتوحات - إلا أنه كان يتتبع كل ما يجري في أرجاء دولته بيقظة واهتمام ، وأعانه على ذلك ما حباه الله من ذكاء قوي وبصيرة نفاذة وذاكرة حافظة وجسم قوي ، وكان كثيراً ما ينزل بالليل إلى الطرقات والدروب ليتعرف على أحوال الناس بنفسه ويستمع إلى شكاواهم بنفسه، كما ساعده على معرفة أحوال الناس جهاز أمن الدولة الذي كان يجمع المعلومات والأخبار التي لها

علاقة بالسلطنة وترفع إلى السلطان الذي كان يحرص على دوام المباشرة لأحوال الرعية ، وتفقد أمورها والتماس الإحاطة بجوانب الخلل في أفرادها وجماعاتها.

****

السلطان الفاتح و فتح القسطنطينية

أولاً: الإعداد للفتح:

لقد اعتنى السلطان محمد الفاتح بإقامة قلعة (روملي حصار) في الجانب الأوروبي على مضيق البسفور في أضيق نقطة منه مقابل القلعة التي أسست في عهد السلطان بايزيد في البر الآسيوي، وقد حاول الإمبراطور البيزنطي ثني السلطان الفاتح عن بناء القلعة مقابل التزامات مالية تعهد به إلا أن الفاتح أصر على البناء لما يعلمه من أهمية عسكرية لهذا الموقع ، حتى اكتملت قلعة عالية ومحصنة ، وصل ارتفاعها إلى ٨٢ متراً، وأصبحت القلعتان متقابلتين ولا يفصل بينهما سوى ٦٦٠م تتحكمان في عبور السفن من شرقي البسفور إلى غربيه وتستطيع نيران مدافعهما منع أي سفينة من الوصول إلى القسطنطينية من المناطق التي تقع شرقها مثل مملكة (طرابزون (وغيرها من الأماكن التي تستطيع دعم المدينة عند الحاجة .

أ- اهتمام السلطان بجمع الأسلحة اللازمة:

اعتنى السلطان عناية خاصة بجمع الأسلحة اللازمة لفتح القسطنطينية، ومن أهمها المدافع التي أخذت اهتماماً خاصاً منه حيث أحضر مهندساً مجرياً يدعى (أوربان) كان بارعاً في صناعة المدافع فأحسن استقباله ووفر له جميع الإمكانيات المالية والمادية والبشرية، وقد تمكن هذا المهندس من تصميم وتنفيذ العديد من المدافع الضخمة كان على رأسها المدفع السلطاني المشهور، والذي ذكر أن وزنه كان يصل إلى مئات الأطنان وأنه يحتاج إلى مئات الثيران القوية لتحريكه، وقد أشرف السلطان بنفسه على صناعة هذه المدافع وتجريبها.

ب- الاهتمام بالأسطول:

ويضاف إلى هذا الاستعداد ما بذله الفاتح من عناية خاصة بالأسطول العثماني حيث عمل على تقويته وتزويده بالسفن المختلفة ليكون مؤهلاً للقيام بدوره في الهجوم على القسطنطينية، تلك المدينة البحرية التي لا يكمل حصارها دون وجود قوة بحرية تقوم بهذه المهمة ،وقد ذكر أن السفن التي أعدت لهذا الأمر بلغت أكثر من أربعمائة سفينة.

ج- عقد معاهدات:

كما عمل الفاتح قبل هجومه على القسطنطينية على عقد معاهدات مع أعدائه المختلفين ليتفرغ لعدو واحد، فعقد معاهدة مع إمارة (غلطة) المجاورة للقسطنطينية من الشرق ويفصل بينهما مضيق (القرن الذهبي (، كما عقد معاهدات مع (المجد) و (البندقية) وهما من الأمارات الأوروبية المجاورة ، ولكن هذه المعاهدات لم تصمد حينما بدأ الهجوم الفعلي على القسطنطينية ، حيث وصلت قوات من تلك المدن وغيرها للمشاركة في الدفاع عن القسطنطينية مشاركة لبني عقيدتهم من النصارى متناسين عهودهم ومواثيقهم مع المسلمين.

في هذه الأثناء التي كان السلطان يعد العدة فيها للفتح استمات الإمبراطور البيزنطي في محاولاته لثنيه عن هدفه ، بتقديم الأموال والهدايا المختلفة إليه ، بمحاولة رشوة بعض مستشاريه ليؤثروا على قراره ولكن السلطان كان عازماً على تنفيذ مخططه ولم تثنه هذه الأمور عن هدفه ، ولما رأى الإمبراطور البيزنطي شدة عزيمة السلطان على تنفيذ هدفه عمد إلى طلب المساعدات من مختلف الدول والمدن الأوربية وعلى رأسها البابا زعيم المذهب الكاثوليكي ، في الوقت الذي كانت فيه كنائس الدولة البيزنطية وعلى رأسها القسطنطينية تابعة للكنيسة الأرثوذكسية وكان بينهما عداء شديد ، وقد اضطر الإمبراطور لمجاملة البابا بأن يتقرب إليه ويظهر له استعداده للعمل على توحيد الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية لتصبح خاضعة له ، في الوقت الذي لم يكن الأرثوذكس يرغبون في ذلك ، وقد قام البابا بناءً على ذلك بإرسال مندوب منه إلى القسطنطينية ، خطب في كنيسة آيا صوفيا ودعا للبابا وأعلن توحيد الكنيستين ، مما أغضب جمهور الأرثوذكس في المدينة ، وجعلهم يقومون بحركة مضادة لهذا العمل الإمبراطوري الكاثوليكي المشترك ،

حتى قال بعض زعماء الأرثوذكس : (إنني أفضل أن أشاهد في ديار البيزنط عمائم الترك على أن أشاهد القبعة اللاتينية.(

ثانياً :الهجوم:

كانت القسطنطينية محاطة بالمياه البحرية في ثلاث جبهات، مضيق البسفور، وبحر مرمرة، والقرن الذهبي الذي كان محمياً بسلسلة ضخمة جداً تتحكم في دخول السفن إليه، وبالإضافة إلى ذلك فإن خطين من الأسوار كانت تحيط بها من الناحية البرية من شاطئ بحر مرمرة إلى القرن الذهبي، يتخللها نهر ليكوس، وكان بين السورين فضاء يبلغ عرضه ٦٠ قدماً ويرتفع السور الداخلي منها ٤٠ قدماً وعليه أبراج يصل ارتفاعها إلى ٦٠ قدماً، وأما السور الخارجي فيبلغ ارتفاعه قرابة خمس وعشرين قدماًوعليه أبراج موزعة مليئة بالجند، وبالتالي فإن المدينة من الناحية العسكرية تعد من أفضل مدن العالم تحصيناً، لما عليها من الأسوار والقلاع والحصون إضافة إلى التحصينات الطبيعية، وبالتالي فإنه يصعب اختراقها، ولذلك فقد استعصت على عشرات المحاولات العسكرية لاقتحامها ومنها إحدى عشرة محاولة إسلامية سابقة.

كان السلطان الفاتح يكمل استعدادات القسطنطينية ويعرف أخبارها ويجهز الخرائط اللازمة لحصارها ، كما كان يقوم بنفسه بزيارات استطلاعية يشاهد فيها استحكامات القسطنطينية وأسوارها ، وقد عمل السلطان على تمهيد الطريق بين أدرنة والقسطنطينية لكي تكون صالحة لجر المدافع العملاقة خلالها إلى القسطنطينية ، وقد تحركت المدافع من أدرنة إلى قرب القسطنطينية ، في مدة شهرين حيث تمت حمايتها بقسم من الجيش حتى وصلت الأجناد العثمانية يقودها الفاتح بنفسه إلى مشارف القسطنطينية في يوم الخميس ٢٦ ربيع الأول ٨٥٧هـ الموافق ٦ أبريل ١٤٥٣م ، فجمع الجند وكانوا قرابة مائتين وخمسين ألف جندي ، فخطب فيهم خطبة قوية حثهم فيها على الجهاد وطلب النصر أو الشهادة ، وذكرهم فيها بالتضحية وصدق القتال عند اللقاء ، وقرأ عليهم الآيات القرآنية التي تحث على ذلك ، كما ذكر لهم الأحاديث النبوية التي تبشر بفتح القسطنطينية وفضل الجيش الفاتح لها وأميره ، وما في فتحها من عز الإسلام والمسلمين ، وقد بادر الجيش بالتهليل والتكبير والدعاء.

وكان العلماء مبثوثين في صفوف الجيش مقاتلين ومجاهدين مما أثر في رفع معنوياتهم حتى كان كل جندي ينتظر القتال بفارغ الصبر ليؤدي ما عليه من واجب.

وفي اليوم التالي قام السلطان بتوزيع جيشه البري أمام الأسوار الخارجية للمدينة، مشكلاً ثلاثة أقسام رئيسية تمكنت من إحكام الحصار البري حول مختلف الجهات، كما أقام الفاتح جيوشاً احتياطية خلف الجيوش الرئيسية، وعمل على نصب المدافع أمام الأسوار، ومن أهمها المدفع السلطاني العملاق الذي أقيم أمام باب طب قابي، كما وضع فرقاً للمراقبة في مختلف المواقع المرتفعة والقريبة من المدينة، وفي نفس الوقت انتشرت السفن العثمانية في المياه المحيطة بالمدينة، إلا أنها لم تستطع الوصول إلى القرن الذهبي بسبب وجود السلسلة الضخمة التي منعت أي سفينة من دخوله بل وتدمر كل سفينة تحاول الدنو والاقتراب، واستطاع الأسطول العثماني أن يستولي على جزر الأمراء في بحر مرمرة.

وحاول البيزنطيون أن يبذلوا قصارى جهدهم للدفاع عن القسطنطينية ووزعوا الجنود على الأسوار، وأحكموا التحصينات، وأحكم الجيش العثماني قبضته على المدينة، ولم يخلُ الأمر من وقوع قتال بين العثمانيين المهاجمين والبيزنطيين المدافعيين منذ الأيام الأولى للحصار، وفتحت أبواب الشهادة وفاز عدد كبير من العثمانيين بها خصوصاً من الأفراد الموكلين بالاقتراب من الأبواب.

وكانت المدفعية العثمانية تطلق مدافعها من مواقع مختلفة نحو المدينة، وكان لقذائفها ولصوتها الرهيب دور كبير في إيقاع الرعب في قلوب البيزنطيين، وقد تمكنت من تحطيم بعض الأسوار حول المدينة، ولكن

المدافعين كانوا سرعان ما يعيدون بناء الأسوار وترميمها.

ولم تنقطع المساعدات المسيحية من أووربا، ووصلت إمدادات من (جنوة) مكونة من خمس سفن وكان يقودها القائد الجنوي) جستنيان) يرافقه سبعمائة مقاتل متطوع من دول أوربية متعددة، واستطاعت سفنهم أن تصل إلى العاصمة البيزنطية العتيقة بعد مواجهة بحرية مع السفن العثمانية المحاصرة للمدينة، وكان

لوصول هذه القوات أثر كبير في رفع معنويات البيزنطيين، وعين قائدها) جستنيان) قائداً عاماً للقوات المدافعة عن المدينة.

وقد حاولت القوات البحرية العثمانية تخطي السلسلة الضخمة التي تتحكم في مدخل القرن الذهبي والوصول بالسفن الإسلامية إليه ، وأطلقوا سهامهم على السفن الأوروبية والبيزنطية ولكنهم فشلوا في تحقيق مرادهم في البداية وارتفعت الروح المعنوية للمدافعين عن المدينة.

ولم يكل القس ورجال الدين النصارى، فكانوا يطوفون بشوارع المدينة، وأماكن التحصين ويحرضون المسيحيين على الثبات والصبر، ويشجعون الناس على الذهاب إلى الكنائس ودعاء المسيح والسيدة والعذراء أن يخلصوا المدينة، وأخذ الإمبراطور قسطنطين يتردد بنفسه على كنيسة أيا صوفيا لهذا الهدف.

ثالثاً: مفاوضات بين محمد الفاتح وقسطنطين:

استبسل العثمانيون المهاجمون على المدينة وعلى رأسهم محمد الفاتح، وصمد البيزنطيون بقيادة قسطنطين صموداً بطولياً في الدفاع، وحاول الإمبراطور البيزنطي أن يخلص مدينته وشعبه بكل ما يستطيع من حيلة، فقدم عروضاً مختلفة للسلطان ليغريه بالانسحاب مقابل الأموال أو الطاعة، أو غير ذلك من العروض التي قدمها.

ولكن الفاتح رحمه الله يرد بالمقابل طالباً تسليم المدنية تسليماً، وأنه في هذه الحالة لن يتعرض أحد من أهلها ولا كنائسها للأذى، وكان مضمون الرسالة: (فليسلم لي إمبراطوركم مدينة القسطنطينية وأقسم بأن جيشي لن يتعرض لأحد في نفسه وماله وعرضه، ومن شاء بقي في المدينة وعاش فيها في أمن وسلام، ومن شاء رحل عنها حيث أراد في أمن وسلام أيضاً.(

كان الحصار لا يزال ناقصاً ببقاء مضيق القرن الذهبي في أيدي البحرية البيزنطية، ومع ذلك فإن الهجوم العثماني كان مستمراً دون هوادة حيث أظهر جنود الانكشارية شجاعة فائقة، وبسالة نادرة، فكانوا يقدمون على الموت دون خوف في أعقاب كل قصف مدفعي، وفي يوم ١٨ أبريل تمكنت المدافع العثمانية من فتح ثغرة في الأسوار البيزنطية عند (وادي ليكوس) في الجزء الغربي من الأسوار، فاندفع إليها الجنود العثمانيون بكل بسالة محاولين اقتحام المدينة من الثغرة، كما حالوا اقتحام الأسوار الأخرى بالسلالم التي ألقوها عليها، ولكن المدافعين عن المدينة بقيادة (جستنيان) استماتوا في الدفاع عن الثغرة والأسوار، واشتد القتال بين الطرفين، وكانت الثغرة ضيقة وكثرت السهام والنبال والمقذوفات على الجنود المسلمين ، ومع ضيق المكان وشدة مقاومة الأعداء وحلول الظلام أصدر الفاتح أوامره للمهاجمين بالانسحاب بعد أن أثاروا الرعب في قلوب أعدائهم متحينين فرصة أخرى للهجوم.

وفي اليوم نفسه حاولت بعض السفن العثمانية اقتحام القرن الذهبي بتحطيم السلسلة الحاجزة عنه، ولكن السفن البيزنطية والأوروبية المشتركة، إضافة إلى الفرق الدفاعية المتمركزة خلف السلسلة الضخمة من المدافعين عن مدخل الخليج، استطاعوا جميعاً من صد السفن الإسلامية وتدمير بعضها، فاضطرت بقية السفن إلى العودة بعد أن فشلت في تحقيق مهمتها.

رابعاً: عزل قائد الأسطول العثماني وشجاعة محمد الفاتح:

بعد هذه المعركة بيومين وقعت معركة أخرى بين البحرية العثمانية وبعض السفن الأوروبية التي حاولت الوصول إلى الخليج، حيث بذلت السفن الإسلامية جهوداً كبيرة لمنعها، أشرف الفاتح بنفسه على المعركة

من على الساحل وكان قد أرسل إلى قائد الأسطول وقال له: (إما أن تستولي على هذه السفن وإما أن تغرقها، إذا لم توفق في ذلك فلا ترجع إلينا حياً) لكن السفن الأوروبية نجحت في الوصول إلى هدفها ولم تتمكن السفن العثمانية من منعها، رغم الجهود العظيمة المبذولة لذلك، وبالتالي غضب السلطان محمد الفاتح غضباً شديداً فعزل قائد الأسطول بعد ما رجع إلى مقر قيادته واستدعاه وعنف محمد الفاتح قائد الأسطول) بالطه أوغلي) وعنفه واتهمه بالجبن، وتأثر(بالطة أو غلي) لهذا قال: (إني استقبل الموت

بجنان ثابت، ولكن يؤلمني أن أموت وأنا متهم بمثل هذه التهمة. لقد قاتلت أنا ورجالي بكل ما كان في وسعنا من حيلة وقوة، ورفع طرف عمامته عن عينه المصابة). أدرك محمد الفاتح عند ذلك أن الرجل قد أعذر، فتركه ينصرف واكتفى بعزله من منصبه، وجعل مكانه حمزة باشا.

خامساً: عبقرية حربية فذة:

لاحت للسلطان فكرة بارعة وهي نقل السفن من مرساها في (بشكطاش) إلى القرن الذهبي، وذلك بجرها على الطرق البري الواقع بين الميناءين مبتعداً عن (حي غلطة) خوفاً على سفنه من الجنويبين ، وقد كانت المسافة بين الميناء نحو ثلاثة أميال ، ولم تكن أرضاً مبسوطة سهلة ولكنها كانت وهاداً وتلالاً غير ممهدة.

جمع محمد الفاتح أركان حربه وعرض عليهم فكرته، وحدد لهم مكان معركته القادمة، فتلقى منهم كل تشجيع، وأعربوا عن إعجابهم بها.

بدأ تنفيذ الخطة، وأمر السلطان محمد الثاني فمهدت الأرض وسويت في ساعات قليلة وأتى بألواح من الخشب دهنت بالزيت والشحم، ثم وضعت على الطريق الممهد بطريقة يسهل بها انزلاج السفن وجرها، وكان أصعب جزء من المشروع هو نقل السفن على انحدار التلال المرتفعة ، إلا أنه بصفة عامة كانت السفن العثمانية صغيرة الحجم خفيفة الوزن.

وجرت السفن من البسفور إلى البر حيث سحبت على تلك الأخشاب المدهونة بالزيت مسافة ثلاثة أميال ، حتى وصلت إلى نقطة آمنة فأنزلت في القرن الذهبي ، وتمكن العثمانيون في تلك الليلة من سحب أكثر من سبعين سفينة وإنزالها في القرن الذهبي على حين غفلة من العدو ، بطريقة لم يسبق إليها السلطان الفاتح قبل ذلك ، وقد كان يشرف بنفسه على العملية التي جرت في الليل بعيداً عن أنظار العدو ومراقبته.

وقد تم كل ذلك في ليلة واحدة ، واستيقظ أهل المدينة البائسة صباح يوم ٢٢ أبريل على تكبيرات العثمانيين المدوية ، وهتافاتهم المتصاعدة ، وأناشيدهم الإيمانية العالية ، في القرن الذهبي ، وفوجئوا بالسفن العثمانية وهي تسيطر على ذلك المعبر المائي ، ولم يعد هناك حاجز مائي بين المدافعين عن القسطنطينية وبين الجنود العثمانيين ، ولقد عبر أحد المؤرخين البيزنطيين عن عجبهم من هذا العمل فقال : (ما رأينا ولا سمعنا من قبل بمثل هذا الشيء الخارق ، محمد الفاتح يحول الأرض إلى بحار وتعبر سفنه فوق قمم الجبال بدلاً من الأمواج ، لقد فاق محمد الثاني بهذا العمل الإسكندر الأكبر).ظهر اليأس في أهل القسطنطينية وكثرت الإشاعات والتنبؤات بينهم، وانتشرت شائعة تقول :ستسقط القسطنطينية عندما ترى سفن تمخر اليابسة.

وكان لوجود السفن الإسلامية في القرن الذهبي دور كبير في إضعاف الروح المعنوية لدى المدافعين عن المدينة الذين اضطروا لسحب قوات كبيرة من المدافعين عن الأسوار الأخرى لكي يتولوا الدفاع عن الأسوار الواقعة على القرن الذهبي إذ أنها كانت أضعف الأسوار، ولكنها في السابق تحميها المياه، مما أوقع الخلل في الدفاع عن الأسوار الأخرى.

وقد حاول الإمبراطور البيزنطي تنظيم أكثر من عملية لتدمير الأسطول العثماني في القرن الذهبي إلا أن محاولته المستميتة كان العثمانيون لها بالمرصاد حيث أفشلوا كل الخطط والمحاولات.

واستمر العثمانيون في دك نقاط دفاع المدينة وأسوارها بالمدافع ، وحاولوا تسلق أسوارها ، وفي الوقت نفسه انشغل المدافعون عن المدينة في بناء وترميم ما يتهدم من أسوار مدينتهم ورد ا لمحاولات المكثفة لتسلق الأسوار مع استمرار الحصار عليهم مما زاد في مشقتهم وتبعهم وإرهاقهم وشغل ليلهم مع نهارهم وأصابهم اليأس.

كما وضع العثمانيون مدافع خاصة على الهضاب المجاورة للبسفور والقرن الذهبي، مهمتها تدمير السفن البيزنطية والمتعاونة معها في القرن الذهبي والبسفور والمياه المجاورة مما عرقل حركة سفن الأعداء وأصابها بالشلل تماماً.

سادساً :الحرب النفسية العثمانية:

وشرع السلطان محمد الفاتح في نصب المدافع القوية على الهضاب الواقعة خلف (غلطة)، وبدأت هذه المدافع في دفع قذائفها الكثيفة نحو الميناء وأصابت إحدى القذائف سفينة تجارية فأغرقتها في الحال ، فخافت السفن الأخرى واضطرت للفرار ، واتخذت من أسوار (غلطة) ملجأ لها ، وظل الهجوم العثماني البري في موجات خاطفة وسريعة هجمة تلوى الأخرى، وكان السلطان محمد الفاتح يوالي الهجمات وإطلاق القذائف في البر والبحر دون انقطاع ليلاً ونهاراً من أجل إنهاك قوى المحاصرين ، وعدم تمكينهم من أن ينالوا أي قسط من راحة وهدوء بال ، وهكذا أصبحت عزائمهم ضعيفة ونفوسهم مرهقة كليلة ، وأعصابهم متوترة مجهدة تثور لأي سبب.

واضطر الإمبراطور (قسطنطين)إلى عقد مؤتمر ثاني، اقترح فيه أحد القادة مباغتة العثمانيين بهجوم شديد عنيف لفتح ثغرة توصلهم بالعالم الخارجي وبينما هو في مجلسهم يتدارسون هذا الاقتراح، قطع عليهم أحد الجنود اجتماعهم وأعلمهم بأن العثمانيين شنوا هجوماً شديداً مكثفاً على وادي(ليكونس)، فترك قسطنطين الاجتماع ووثب على فرسه، واستدعى الجند الاحتياطي ودفع بهم إلى مكان القتال ، واستمر القتال إلى آخر الليل حتى انسحب العثمانيون.

لجأ العثمانيون إلى طريقة عجيبة في محاولة دخول المدينة حيث عملوا على حفر أنفاق تحت الأرض من مناطق مختلفة إلى داخل المدينة وسمع سكانها ضربات شديدة تحت الأرض أخذت تقترب من داخل المدينة بالتدريج، فأسرع الإمبراطور بنفسه ومعه قواده ومستشاروه إلى ناحية الصوت وأدركوا أن العثمانيين يقومون بحفر أنفاق تحت الأرض، للوصول إلى داخل المدينة، فقرر المدافعون الإعداد لمواجهتها بحفر أنفاق مماثلة مقابل أنفاق المهاجمين دون أن يعلموا، حتى إذا وصل العثمانيون إلى الأنفاق التي أعدت لهم ظنوا أنهم وصلوا إلى سراديب خاصة وسرية تؤدي إلى داخل المدينة ففرحوا بهذا، ولكن الفرحة لم تطل إذا فاجأهم الروم، فصبوا عليهم ألسنة النيران والنفط المحترق والمواد الملتهبة، فاختنق كثير منهم واحترق قسم آخر وعاد الناجون منهم أدراجهم من حيث أتوا.

لكن هذا الفشل لم يفت في عضد العثمانيين، فعاودوا حفر أنفاق أخرى، وفي مواضع مختلفة، من المنطقة الممتدة بين (أكرى فبو) وشاطئ القرن الذهبي وكانت مكاناً ملائماً للقيام بمثل هذا العمل، وظلوا على ذلك حتى أواخر أيام الحصار، وقد أصاب أهل القسطنطينية من جراء ذلك خوف عظيم وفزع لا يوصف حتى صاروا يتوهمون أن أصوات أقدامهم وهو يمشون إن هي أصوات خفية لحفر يقوم به العثمانيون ويملئون المدينة ، فكانوا يتلفتون يمنة ويسرة ، ويشيرون هنا وهناك في فزع ويقولون) : هذا تركي ، ... هذا تركي) ويجرون هرباً من أشباح يحسبونها أنها تطاردهم.

سابعاً: مفاجأة عسكرية عثمانية:

لجأ العثمانيون إلى أسلوب جديد في محاولة الاقتحام وذلك بأن صنعوا قلعة خشبية ضخمة شامخة متحركة تتكون من ثلاثة أدوار، وبارتفاع أعلى من الأسوار، وقد كسيت بالدروع والجلود المبللة بالماء لتمنع عنها

النيران، وأعدت تلك القلعة بالرجال في كل دور من أدوارها، وكان الذين في الدور العلوي من الرماة يقذفون بالنبال كل من يطل برأسه من فوق الأسوار، وقد وقع الرعب في قلوب المدافعين عن المدينة حينما زحف العثمانيون بهذه القلعة واقتربوا بها من الأسوار عن باب(رومانوس)، فاتجه الإمبراطور بنفسه ومعه قواده ليتابع صد تلك القلعة ودفعها عن الأسوار، وقد تمكن العثمانيون من لصقها بالأسوار ودار بين من فيها وبين النصارى عند الأسوار قتل شديد، واستطاع بعض المسلمين ممن في القلعة تسلق الأسوار

ونجحوا في ذلك، وقد ظن قسطنطين أن الهزيمة حلت به، إلا أن المدافعين كثفوا من قذف القلعة بالنيران حتى أثرت فيها وتمكنت منها النيران فاحترقت، ووقعت على الأبراج البيزنطية المجاورة لها فقتلت من فيها من المدافعين، وامتلأ الخندق المجاور لها بالحجارة والتراب.

ثامناً: المفاوضات الأخيرة بين محمد الفاتح وقسطنطين:

أيقن محمد الفاتح أن المدينة على وشك السقوط، ومع ذلك حاول أن يكون دخولها بسلام، فكتب إلى الإمبراطور رسالة دعاه فيه إلى تسليم المدينة دون إراقة دماء ، وعرض عليه تأمين خروجه وعائلته وأعوانه وكل من يرغب من سكان المدينة إلى حيث يشاؤون بأمان ، وأن تحقن دماء الناس في المدينة ولا يتعرضوا لأي أذى ويكونوا بالخيار في البقاء في المدينة أو الرحيل عنها ، ولما وصلت الرسالة إلى الإمبراطور جمع المستشارين وعرض عليهم الأمر ، فمال بعضهم إلى التسليم وأصر آخرون على استمرار الدفاع عن المدينة حتى الموت ، فمال الإمبراطور إلى رأي القائلين بالقتال حتى آخر لحظة ، فرد الإمبراطور رسول الفاتح برسالة قال فيها : (إنه يشكر الله إذ جنح السلطان إلى السلم وأنه يرضى أن يدفع له الجزية أما القسطنطينية فإنه أقسم أن يدافع عنها إلى آخر نفس في حياته فإما أن يحفظ عرشه أو يدفن تحت أسوارها) ، فلما وصلت الرسالة إلى الفاتح قال : (حسناً عن قريب سيكون لي في القسطنطينية عرش أو يكون لي فيها قبر.(

وعمد السلطان بعد اليأس من تسليم المدينة صلحاً إلى تكثيف الهجوم وخصوصاً القصف المدفعي على المدينة، حتى أن المدافع السلطاني الضخم انفجر من كثرة الاستخدام، وقتل المشتغلين له وعلى رأسهم المهندس المجري(أوربان)الذي تولى الإشراف على تصميم المدفع، ومع ذلك فقد وجه السلطان بإجراء عمليات التبريد للمدافع بزيت الزيتون، وقد نجح الفنيون في ذلك، وواصلت المدافع قصفها للمدينة مرة أخرى، بل تمكنت من توجيه القذائف بحيث تسقط وسط المدينة بالإضافة إلى ضربها للأسوار والقلاع.

تاسعاً: محمد الفاتح يوجه تعليماته ويتابع جنوده بنفسه:

في يوم الأحد ١٨ جمادى الأول ٢٧ من مايو وجه السلطان محمد الفاتح الجنود إلى الخشوع وتطهير النفوس والتقرب إلى الله تعالى بالصلاة وعموم الطاعات والتذلل والدعاء بين يديه ، لعل الله أن ييسر لهم الفتح ، وانتشر هذا الأمر بين عامة المسلمين ، كما قام الفاتح بنفسه ذلك اليوم بتفقد أسوار المدينة ومعرفة آخر أحوالها ، وما وصلت إليه وأوضاع المدافعين عنها في النقاط المختلفة ، وحدد مواقع معينة يتم فيها تركيز القصف العثماني ، تفقد فيها أحوالهم وحثهم على الجد والتضحية في قتال الأعداء.

وفي مساء اليوم نفسه أوقد العثمانيون ناراً كثيفة حول معسكرهم وتعالت صيحاتهم وأصواتهم وبالتهليل والتكبير، حتى خيل للروم أن النار قد اندلعت في معسكر العثمانية، فإذا بهم يكتشفون أن العثمانيين يحتفلون بالنصر مقدماً، مما أوقع الرعب في قلوب الروم، وفي اليوم التالي ٢٨ مايو كانت الاستعدادات العثمانية على أشدها والمدافع ترمي البيزنط بنيرانها ، والسلطان يدور بنفسه على المواقع العسكرية المختلفة متفقداً موجهاً ومذكراً بالإخلاص والدعاء والتضحية والجهاد.

وبعد أن عاد الفاتح إلى خيمته ودعا إليه كبار رجال جيشه أصدر إليهم التعليمات الأخيرة، ثم ألقى عليهم الخطبة التالية: "إذا تم لنا فتح القسطنطينية تحقق فينا حديث من أحاديث رسول الله ومعجزة من معجزاته، وسيكون من حظنا ما أشاد به هذا الحديث من التمجيد والتقدير فأبلغوا أبناءنا العساكر فرداً فرداً، أن الظفر العظيم الذي سنحرزه سيزيد الإسلام قدراً وشرفاً، ويجب على كل جندي أن يجعل تعاليم شريعتنا الغراء نصب عينيه فلا يصدر عن أحد منهم ما يجافي هذه التعاليم، وليتجنبوا الكنائس والمعابد ولا يمسوها بأذى

ويدعوا القسس والضعفاء والعجزة الذين لا يقاتلون.

وتوجه قسطنطين نحو صورة) يزعمون أنها صورة المسيح) معلقة في أحد الغرف فركع تحتها وهمهم بعض الدعوات ثم نهض ولبس المغفر على رأسه وخرج من القصر نحو منتصف الليل مع زميله ورفيقه

وأمينه المؤرخ(فرانتزتس) ثم قاما برحلة تفقدية لقوات النصارى المدافعة ولا حظوا حركة الجيش العثماني النشطة المتوثبة للهجوم البري والبحري.

عاشراً: فتح من الله ونصر قريب:
عند الساعة الواحدة صباحا من يوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الأولى سنة ٨٥٧هـ الموافق ٢٩ مايو ١٤٣٥م بدأ الهجوم العام على المدينة بعد أن أصدرت الأوامر للمجاهدين الذين علت أصواتهم بالتكبير وانطلقوا نحو الأسوار ، وخاف البيزنطيون خوفا عظيما ، وشرعوا في دق نواقيس الكنائس والتجأ إليها كثير من النصارى ، وكان الهجوم النهائي متزامنا بريا وبحرياً في وقت واحد حسب خطة دقيقة أعدت بإحكام ، وكان المجاهدون يرغبون في الشهادة ، ولذلك تقدموا بكل شجاعة وتضحية وإقدام نحو الأعداء ونال الكثير من المجاهدين الشهادة ، وكان الهجوم موزعا على كثير من المناطق ، ولكنه مركز بالدرجة الأولى في منطقة وادي ليكوس ، بقيادة السلطان محمد الفاتح نفسه ، وكانت الكتائب الأولى من العثمانيين تمطر الأسوار والنصارى بوابل من القذائف والسهام محاولين شل حركة المدافعين ، ومع استبسال البيزنطيين وشجاعة العثمانيين كان الضحايا من الطرفين يسقطون بأعداد كبيرة.

وبعد أن انهكت الفرقة الأولى الهجومية كان السلطان قد أعد فرقة أخرى فسحب الأولى ووجه الفرقة الثانية ، وكان المدافعون قد أصابهم الإعياء ، وتمكنت الفرقة الجديدة ، من الوصول إلى الأسوار وأقاموا عليها مئات السلالم في محاولة جادة للاقتحام ، ولكن النصارى استطاعوا قلب السلالم واستمرت تلك المحاولات المستميتة من المهاجمين ، والبيزنطيون يبذلون قصارى جهودهم للتصدي لمحاولات التسلق ، وبعد ساعتين من تلك المحاولات أصدر الفاتح أوامره للجنود لأخذ قسط من الراحة ، بعد أن أرهقوا المدافعين في تلك المنطقة ، وفي الوقت نفسه أصدر أمرا إلى قسم ثالث من المهاجمين بالهجوم على الأسوار من نفس المنطقة ، وفوجئ المدافعون بتلك الموجة الجديدة بعد أن ظنوا أن الأمر قد هدأ وكانوا قد أرهقوا ، في الوقت الذي كان المهاجمون دماء جديدة معدة ومستريحة وفي رغبة شديدة لأخذ نصيبهم من القتال.

كما كان القتال يجري على قدم وساق في المنطقة البحرية مما شتت قوات المدافعين وأشغلهم في أكثر من جبهة في وقت واحد ، ومع بزوغ نور الصباح أصبح المهاجمون يستطيعون أن يحددوا مواقع العدو بدقة أكثر ، وشرعوا في مضاعفة جهودهم في الهجوم ، وكان المسلمون في حماسة شديدة وحريصين على إنجاح الهجوم ، ومع ذلك أصدر السلطان محمد الأوامر إلى جنوده بالانسحاب لكي يتيحوا الفرصة للمدافع لتقوم بعملها مرة أخرى حيث أمطرت الأسوار والمدافعين عنها بوابل من القذائف ، واتبعتهم بعد سهرهم طوال الليل ، وبعد أن هدأت المدفعية جاء قسم جديد من شجعان الإنكشارية يقودهم السلطان نفسه تغطيهم نبال وسهام المهاجمين التي لا تنفك عن محاولة منع المدافعين عنها ، وأظهر جنود الإنكشارية شجاعة فائقة وبسالة نادرة في الهجوم واستطاع ثلاثون منهم تسلق السور أمام دهشة الأعداء ، ورغم استشهاد مجموعة منهم بمن فيهم قائدهم فقد تمكنوا من تمهيد الطريق لدخول المدينة عند (طوب قابي (ورفعوا الأعلام العثمانية مما زاد في حماس بقية الجيش للاقتحام كما فتوا في عضد الأعضاء.

وفي نفس الوقت أصيب قائد المدافعين(جستنيان) بجراح بليغة دفعته إلى الانسحاب من ساحة المعركة مما أثر في بقية المدافعين ، وقد تولى الإمبراطور قسطنطين قيادة المدافعين بنفسه محل جستنيان الذي ركب أحد السفن فاراً من أرض المعركة ، وقد بذل الإمبراطور جهودا كبيرة في تثبيت المدافعين الذين دب اليأس في قلوبهم من جدوى المقاومة ، في الوقت الذي كان فيه الهجوم بقيادة السلطان شخصياً على أشده، محاولاً استغلال ضعف الروح المعنوية لدى المدافعين.
وقد واصل العثمانيون هجومهم في ناحية أخرى من المدينة حتى تمكنوا من اقتحام الأسوار والاستيلاء على بعض الأبراج والقضاء على المدافعين في باب أدرنة ورفعت الأعلام العثمانية عليها ، وتدفق الجنود

العثمانيون نحو المدينة من تلك المنطقة ، ولما رأى قسطنطين الأعلام العثمانية ترفرف على الأبراج الشمالية للمدينة ، أيقن بعدم جدوى الدفاع وخلع ملابسه حتى لا يعرف ، ونزل عن حصانه وقاتل حتى قتل في ساحة المعركة.

وكان لانتشار خبر موته دور كبير في زيادة حماس المجاهدين العثمانيين وسقوط عزائم النصارى المدافعين ، وتمكنت الجيوش العثمانية من دخول المدينة من مناطق مختلفة وفر المدافعون بعد انتهاء قيادتهم ، وهكذا تمكن المسلمون من الاستيلاء على المدينة ، وكان الفاتح رحمه الله مع جنده في تلك اللحظات يشاركهم فرحة النصر ، ولذة الفوز بالغلبة على الأعداء من فوق صهوة جواده ، وكان قواده يهنئونه وهو يقول : (الحمد لله ليرحم الله الشهداء ويمنح المجاهدين الشرف والمجد ولشعبي الفخر والشكر.(

كانت هناك بعض الجيوب الدفاعية داخل المدينة التي تسببت في استشهاد عدد من المجاهدين ، وقد هرب أغلب أهل المدينة إلى الكنائس ولم يأت ظهيرة ذلك اليوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الأولى ٨٥٧هـــ الموافق ٢٩ من مايو ١٤٥٣م ، إلا والسلطان الفاتح في وسط المدينة يحف به جنده وقواده وهو يرددون ما شاء الله ، فالتفت إليهم وقال : لقد أصبحتم فاتحي القسطنطينية الذي أخبر عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهنأهم بالنصر ونهاهم عن القتل والنهب والسلب، وأمرهم بالرفق بالناس والإحسان إليهم ، ثم ترجل عن فرسه واستقبل القبلة وسجد لله على الأرض شكراً وحمداً وتواضعاً لله تعالى.

حادي عشر : معاملة محمد الفاتح للنصارى المغلوبين:
توجه محمد الفاتح إلى كنيسة(آيا صوفية) وقد اجتمع فيها خلق كبير من الناس ومعهم القسس والرهبان الذين كانوا يتلون عليهم صلواتهم وأدعيتهم ، وعندما اقترب من أبوابها خاف النصارى داخلها خوفاً عظيماً ، وقام أحد الرهبان بفتح الأبواب له فطلب من الراهب تهدئة الناس وطمأنتهم والعودة إلى بيوتهم بأمان ، فأطمأن الناس وكان بعض الرهبان مختبئين في سراديب الكنيسة ، فلما رأوا تسامح الفاتح وعفوه خرجوا وأعلنوا إسلامهم ، وصلى فيها الفاتح صلاة العصر ، وقد أمر الفاتح بعد ذلك بتحويل الكنيسة إلى مسجد وأن يعد لهذا الأمر حتى تقام بها أول جمعة قادمة ، وقد أخذ العمال يعدون لهذا الأمر ، فأزالوا الصلبان والتماثيل وطمسوا الصور بطبقة من الجير وعملوا منبراً للخطيب ، وقد يجوز تحويل الكنسية إلى المسجد لأن البلد فتحت عنوة والعنوة لها حكمها في الشريعة الإسلامية.
ثم أمر بدفن الإمبراطور بما يليق بمكانته ، وقد أعطى السلطان للنصارى حرية إقامة الشعائر الدينية واختيار رؤسائهم الدينين الذين لهم حق الحكم في القضايا المدينة ، كما أعطى هذا الحق لرجال الكنيسة في الأقاليم الأخرى ولكنه في الوقت نفسه فرض الجزية على الجميع.

لقد حاول المؤرخ الإنجليزي (ادوارد شيبرد كريسي) في كتابة (تاريخ العثمانيين الأتراك) أن يشوه صوره الفتح العثمانية للقسطنطينية، ووصف السلطان محمد الفاتح بصفات قبيحة حقداً منه وبغضاً للفتح الإسلامي المجيد ، وسارت الموسوعة الأمريكية المطبوعة في عام ١٩٨٠م في حمأة الحقد الصليبي ضد الإسلام ، فزعمت أن السلطان محمد قام باسترقاق غالبية نصارى القسطنطينية ، وساقهم إلى اسواق الرقيق في مدينة دارنة حيث تم بيعهم هناك.

إن الحقيقة التاريخية الناصعة تقول : إن السلطان محمد الفاتح عامل أهل القسطنطينية معاملة رحيمة وأمر جنوده بحسن معاملة الأسرى و الرفق بهم ، وافتدى عدداً كبيراً من الأسرى من ماله الخاص وخاصة أمراء اليونان ، ورجال الدين ، واجتمع مع الأساقفة وهدأ من روعهم ، وطمأنهم إلى المحافظة على عقائدهم وشرائعهم وبيوت عبادتهم ، وأمرهم بتنصيب بطريرك جديد فانتخبوا (أجناديوس) بطريكا ، وتوجه هذا بعد انتخابه في موكب حافل من الأساقفة إلى مقر السلطان ، فاستقبله السلطان محمد الفاتح بحفاوة بالغة وأكرمه أيما تكريم ، وتناول معه الطعام وتحدث معه في موضوعات شتى ، دينية وسياسية واجتماعية ، وخرج البطريريك من لقاء السلطان ، وقد تغيرت فكرته تماماً على السلاطين العثمانيين وعن الأتراك ، بل والمسلمين عامة ، وشعر أنه أمام سلطان مثقف صاحب رسالة وعقيدة دينية راسخة وإنسانية رفيعة ، ورجولة مكتملة ، ولم يكن الروم أنفسهم أقل تأثراً ودهشة من بطريقهم ، فقد كانوا يتصورون أن القتل العام لا بد لاحقهم ، فلم تمض أيام قليلة حتى كان الناس يستأنفون حياتهم المدنية العادية في اطمئنان وسلام.

وهكذا فتحت مدينة الروم ، وكان عمر الفاتح آنذاك الخامسة والعشرين عاماً ، وبعد حصار دام خمسين يوماً ، وهي المدينة التي حوصرت تسعاً وعشرين مرة ، وكان بها من السكان آنذاك أزيد من ٣٠٠ ألف نسمة.

****

موقف السلطـان بايزيـد الثاني من مسلمي الأندلس

وقوفه مع مسلمي الأندلس:

تطورت الأحداث في شبه الجزيرة الأيبرية في مطلع العصور الحديثة ، فأصبح اهتمام الأسبان ينحصر في توحيد أراضيهم ، وانتزاع ما تبقى للمسلمين بها خصوصاً بعد ما خضعت لسلطة واحدة بعد زواج إيزابيلا ملكة قشتالة وفريدناند ملك أراغون ، فاندفعت الممالك الأسبانية المتحدة قبيل سقوط غرناطة في تصفية الوجود الإسلامي في كل أسبانيا ، حتى يفرغوا أنفسهم ويركزوا اهتمامهم على المملكة الإسلامية الوحيدة غرناطة ، التي كانت رمز للمملكة الإسلامية الذاهبة .

وفرضت أسبانيا أقسى الإجراءات التعسفية على المسلمين في محاولة لتنصيرهم وتضييق الخناق عليهم حتى يرحلوا عن شبه الجزيرة الأيبرية.

نتيجة لذلك لجأ المسلمون المورسكيون إلى القيام بثورات وانتفاضات في أغلب المدن الأسبانية التي يوجد بها أقلية مسلمة وخاصة غرناطة وبلنسية ، وأخمدت تلك الثورات بدون رحمة ولا شفقة من قبل السلطات الأسبانية التي اتخذت وسيلة تعميق الكره والحقد للمسلمين ، ومن جهة أخرى كان من الطبيعي أن يرنوا المورسكيون بأنظارهم إلى ملوك المسلمين في المشرق والمغرب لإنقاذهم ، وتكررت دعوات وفودهم ورسائلهم إليهم للعمل على إنقاذهم مما يعانوه من ظلم ، وخاصة من قبل رجال الكنيسة ودواوين التحقيق التي عاثت في الأرض فساداً وأحلت لنفسها كل أنواع العقوبات وتسليطها عليهم.

وكانت أخبار الأندلس قد وصلت إلى المشرق فارتج لها العالم الإسلامي. وبعث الملك الأشرف في مصربوفود إلى البابا وملوك النصرانية يذكرهم بأن النصارى الذين هم تحت حمايته يتمتعون بالحرية ، في حين أن أبناء دينه في المدن الأسبانية يعانون أشد أنواع الظلم ، وقد هدد باتباع سياسة التنكيل والقصاص تجاه رعايا المسيحين ، إذا لم يكن يكف ملك قشتالة وأرغون عن هذا الاعتداء وترحيل المسلمين عن أراضيهم وعدم التعرض لهم ورد ما أخذ من أراضيهم ، ولم يستجيب البابا والملكان الكاثوليكيان لهذا التهديد من قبل الملك الأشرف ومارسوا خطتهم في تصفية الوجود الإسلام في الأندلس.

وجددت رسائل الاستنجاد لدى السلطان العثماني بايزيد الثاني ، فوصلته هذه الرسالة : (الحضرة العلية ، وصل الله سعادتها ، وأعلى كلمتها ، ومهد أقطارها ، وأعز أنصارها ، وأذل عداتها ، حضرة مولانا وعمدة ديننا ودنيانا ، السلطان الملك الناصر ، ناصر الدنيا ، والدين ، وسلطان الإسلام والمسلمين ، قامع أعداء الله الكافرين ، كهف الإسلام ، وناصر دين نبينا محمد عليه السلام ، محي العدل ، ومنصف المظلوم ممن ظلم ، ملك العرب ، والعجم ، والترك والديلم ، ظل الله في أرضه ، القائم بسنته وفرضه ، ملك البرين وسلطان البحرين ، حامي الذمار ، وقامع الكفار ، مولانا وعمدتنا ، وكهفنا وغيثنا ، لا زال ملكه موفور الأنصار ، مقرونا بالانتصار ، مخلد المآثر والآثار ، مشهور المعالي والفخار ، مستأثراً من الحسنات بما يضاعف به الأجر الجزيل ، في الدار الآخرة والثناء الجميل ، والنصر في هذه الدار ، ولا برحت عزماته العلية مختصة بفضائل الجهاد ومجرد على أعداء الدين من بأسها ، ما يروي صدور السحر والصفاح ، وألسنه السلاح بأذلة نفائس الذخائر في المواطن التي تألف فيها الأخيار مفارقة الأرواح للأجساد ، سالكة سبيل السابقين الفائزين برضا الله وطاعته يقوم الأشهاد.

وكانت ضمن الرسالة أبيات القصيدة يمدح صاحبها فيها الدولة العثمانية والسلطان بايزيد ، ويدعو للدولة

بدوام البقاء ' ثم وصفت القصيدة الحالة التي يعاني منها المسلمون وما تعرض له الشيوخ والنساء من هتك للإعراض وما يتعرض له المسلمين في دينهم حيث استطر قائلاً:

ســــــلام عليكم من عبيد تخلفوا** بـــــــأندلس بالغرب في أرض غربة**
أحـــاط بهم بحر من الردم زاخر* وبــــــــــــــحر عميق ذو ظلام ولجة**
ســـــلام عليكم من عبيد أصابهــم** مــصاب عــــــظيم يالها من مصيبة**
ســـــلام عليكم من شيوخ تمزقت** شــــــــيوخهم بالنتف من بعد عــــــزة**
ســـــلام عليكم من وجوه تكشفت ** على جملة الأعلاج من بعدة سترة**
ســــــلام عليكم من بنات عوائق** يــسوقهم اللباط قهراً لخـــــــــلوة**
ســـلام عليكم من عجائز أكرهت ** عـــــــــــــلى أكل خنزير ولحم جيــــــفة**

ثم تعود القصيدة في شرح المأساة ، وتغيير الدين ما إلى ذلك ، فاستطردت بقولها:

غــــــــــــدرنا ونصرنا وبدل دينـــــــنا* ظــــــــــلمنا وعوملنا بكل قبيحـــة**
وكـــــــــــنا على دين النبي محمـــــــد* نقاتـــــــــل عمال الصليب بنيـــة**
وتلقي أموراً في الجهاد عظـــــيمة * * * بقتل وأسر ثم جوع وقلــــــــــــــة
فجاءت علينا الروم من كل جــانب * بسيل عظيم جملة بعد جملـــــــــــة**
ومالوا علينا كالجراد بجمعــــــــهم * بجد وعزم من خيول وعــــــــــــدة**
فكنا بطول الدهر نلقي جموعــهم * فنقتل فيها فرقة بعد فرقــــــة وفرسانها تزداد في كل ساعـــــــــة *** وفرساننا في حال نقص وقلــــــة**
فلما ضعفنا خيموا في بلاـــــــــــا* ومالوا علينا بلدة بعد بلـــدة**
وجاؤوا بأنفاظ عظام كثـــــــــــــيـــرة * تهدم أسوار البلاد المنيعــــــــة**
وشدوا عليها الحصار بــــــــــــقوة * شهوراً وأياماً بجد وعزمـــــــــــــة**
غــــــــــــــدرنا ونصرنا بدل دينـــــــنا* ظلمنا وعوملنا بكل قبيحـــــــــــة**
وكنا علــــــــــى دين النبي محـــــــــمد* نقاتل عمال الصليب بنيـــــــــــة**
وتلقى أموراً في الجهاد عظـــــيمة * * *بقتل وأسر ثم جوع وقلـــــــــــة
فجاءت علينا الروم من كل جانب* بسيل عظيم جملة بعد جملـــــــــــة**
ومالوا علينا كالجراد بجمعــــــهم* فنقتل فيها فرقة بعد فرقــــــــــة**
وفرسانها تزداد في كل ساعـــــــة * وفرساننا في حال نقص وقلـــــــــة**
فلما ضعفنا خيموا في بلادنــــــــــا* ومالوا علينا بلدة بعد بلـــــدة**
وجاءوا بأنفاظ عظام كثــــــــــــيرة* تهدم أسوار البلاد المنيعة وشدوا عليها الحصار بقـــــــــــوة*** شهوراً وأياماً بجد وعزمــــــــــة**
فلما تفانت خلينا ورجالـــــــــنا* ولم نر من إخوننا من إغاثـــــــــــــــــة**
وقلت لنا الأقوات وأشتد حالنـــا * أحطناهم بالكره خوف الفضيـــــحة**
وخوفاً على أبنائنا وبناتــــــــــنا * * *من أن يؤسروا أو يقتلوا شر قتلة
على أن نكون مثل من كان قبلنا * من الدجن من أهل بلاد القديمــــــــة**

ثم تحدثت القصيدة عن الخيار في مثل هذه الحالة ، فإما القبول بالوضع السابق أو الإرتحال ، إذ استطردت قائلة:

ونبقى على آذاننا وصلاتــــــــنا* ولا نتركن شيئاً من أمر الشريعــــة**
ومن شاء منا الجر جاز مؤمناً* بما شاء من مال إلى أرض عدوة**
إلى غير ذلك من شروط كثيرة* تزيد على الخمسين شرطاً بخمسة**

فقال لنا سلطانهم وكبيرهـــــــــــــم* لكم ما شرطتم كاملاً بالزيـــــــــــــــادة**
فكونوا على أموالكم ودياركـــــم* كما كنتم من قبل دون أذيـــــــــة**

إلا أن الملكين الكاثوليكيين لم يفيا بتلك المواثيق إذ بدأ غدرهما على المسلمين فقال:

فلما دخلنا تحت عقد ذمامهـــــــــــــم* فينا بنقص العزيمة**
وخان عهوداً كان قد غرنا بــــــــها* ونصرنا كرهاً بعنف وسطـــــــــوة**
وأحرق ما كانت لنا من مصاحف * وخلطها بالزبل أو بالنجاســــــــــة**
وكل كتاب كان في أمر دينـنـــــــــا * ففي النار ألقوه بهزءة وحـــــقرة**
ولم يتركوا فيها كتاباً لمســــــــــــلم * ولا مصحفاً يخلى به للقــــــــراءة**
ومن صام أو صلى يعلم حالـــــــــــه* ففي النار يلقوه كل حالـــــــــــة**
ومن لم يجئ منا لموضع كفرهم * * *يعاقبه اللباط شر العقوبــــــــــــــــة
ويلطم خديه ويأخذ مالـــــــــــــــــه * * *ويجعله في السجن في سوء حالة
وفي رمضان يفسدون صيامنــــــا* بأكل وشرب مرة بعد مــــــــــــــــــــرة**

وهكذا مضت المسيحية في هتك الإسلام ، وذل المسلمين ، فمن تدخل في عبادة المسلم إلى شتم الإسلام فقالت القصيدة في ذلك:

وقد أمرونا أن نسب نبيــــــــنا* ولا نذكرنه في رخاء وشــــــــــــدة**
وقد سمعوا قوماً يغنون باسمــــــــــه* فأدركهم منهم أليم المـــــــضرة**
وعاقبهم حكامهم وولاتهـــــــــــــــــم* بضرب وتغريم وسجن وذلـــــــــــة**
ومن جاءه الموت ولم يحضر الذي* يذكرهم لم يدفنوه بحيلـــــــــة**
ويترك في زبل طريحاً مجـــــــــــــدلاً * * *كمثل حمار ميت أو بهيمـــــــــــة
إلى غير هذا من أمور كثيـــــــــــــرة* قباح وأفعال غزار رديـــــــــــــة**

بعد ذلك أخذ الملوك الكاثوليك في إذابة المجتمع المسلم وذلك بتغيير الهوية الإسلامية إذ قالت القصيدة:

وقد بدلت أسماءنا وتــــــحولت * بغير رضا منا وغـــــــــــير إرداة**
فآها على تبديل دين محــــــــــــــــمد* بدين كلاب الروم شر الـــــــــبرية**
وآها على أسمائنا حين بـــــــــــدلت* بأسماء علاج من أهل القـــيادة**
وآها على أبنائنا وبناتنـــــــــــــــا* يرحون للباط في كل غـــــــــدوة**
يعلمهم كفراً وزوراً وفريـــــــــــــــة* ولا يقدروا أن يمنعوهم بحيلة**
وآها على تلك المساجد ســـــــورت * مزابل للكفار بعد الطهـــــــــــارة**
وآها على تلك الصوامع عـــقلت * * *نواقيسهم فيها نظير الشهادة
وآها على تلك البلاد وحسنــــــــها * لقد أظلمت بالكفر أعظم ظــلمة**
وصارت لعباد الصليب معاقـــــلاً* وقد أمنوا فيها وقوع الاغـــارة**
صرنا عبيداً ولا أسارة فنفتدي * ولا مسلمين منطقهم بالشهادة**

ثم تتوجه القصيدة باستجداء السلطان لإنجادهم ، وإنقاذهم من تلك المحنة فتقول:

فلوا أبصرت عيناك ما صار حالـــنا* إليه لجادت بالدموع العزيـــــزة**
فيا ويلنا يا بؤس ما قد أصابـــــــنا* من الضر والبلوى وثوب المذلة**

سألناك يا مولاي والله ربـــــــــــــنا* وبالمصطفي المختار خير البرية**
عسى تنظروا فينا وفيما أصابـــــــنا* لعل إله العرش يأتي برحــــــمة**
فقولك مسموع وأمرك نافـــــــــذ* وما قلت من شيء يكون بسرعة**
ودين النصارى أصله تحت حكمكــم* ومن ثم يأتيهم إلى كل كـــــورة**
فبا لله يا مولاي منوا بفضلكــــــــم * علينا برأي أو كلام بحجـــــــــة**

فأنتم أولوا الأفضال والمجد والعلا * وغوث عباد الله في كل آفـــــــــــــة**

ويشير المسلمون أن توسط ملوك مصر لدى المسيحيين لم تجد شيئاً ، بل زادوا تعنتاً فقالوا:
وقد بلغت ارسال مصر إليهـــــــــــم* وما نالهم غدر ولا هتك حرمــــــة**
وقالوا لتلك الرسال عنا بأننــــــــا* رضينا بدين الكفر من غير قهرة**
وساقوا عقود الزور ممن أطاعهم* ووالله ما نرضى بتلك الشهـــــادة**
لقد كذبوا في قولهم وكلامــــــــهم* علينا بهذا القول أكبر فريــــــة**
ولكن خوف القتل والحرق رونـــــا * نقول كما قالوه من غير نـــــية**
ودين رسول ما زال عندنـــــــــــا* وتوحيدنا لله في كل لحظـــــــــة**

بعد ذلك أوضح المسلمون للسلطان بايزيد أنه مع كل ذلك فإنهم متمسكون بالدين الإسلامي ويؤكدون ذلك بقولهم:

ووالله ما نرضى بتبديل ديننـــــــــــا* ولا بالذي قالوا من أمر الثلاثــة**
إن زعموا أنا رضينا بدينهـــــــــــم* بغير اذى منهم لنا ومـــــــساءة**
فسل وحرا عن أهلها كيف أصبحوا* أسارى وقتلى تحت ذل ومهـــــــنة**
وسل بلفيقاً عن قضية أمرهـــــــــا* لقد مزقوا بالسيف من بعد حسرة**
وضيافة بالسيف مزق أهلهـــــــــا* كذا فعلوا أيضاً بأهل البــــشرة**
وأندرش بالنار أحرق أهلهـــــــــا* بجامعهم صاروا جميعاً كفحـــــمة**

ويكرر المسلون ويجددوا الاستغاثة بالدولة العثمانية بعد تقديم هذه الشكوى:

فها نحن يا مولاي نشكو إليهـــــــــم* فهذا الذي نلناه من شر فرقــــة**
عسى ديننا يبقى لنا وصلاتنـــــــــــا* كما عاهدونا قبل نقض العزيمة**
وإلا فيجلونا جميعاً عن أرضهـــــــم* بأموالنا للغرب دار الأحبـــــــة**
فأجلاؤنا جميعاً عن أرضهـــــــــــم* على الكفر في عز على غير ملة**
فهذا الذي نرجوه من عز جاهكـــــم* ومن عندكم تقضي لنا كل حاجة**
ومن عندكم نوجو زوال كروبنـــــــا* وما نالنا من سوء حال وذلـــــة**
فأنتم بحمد الله خير ملوكنـــــــــــا* وعزتكم تعلو على كل عزة**
فنسأل مولانا دوام حياتكـــــــــــم* بملك وعز في سرور ونعـــــــــمة**
وتهدين أوطان ونصر على العــــــدا* وكثرة أجناد وما وثـــــــــروة**
وثم سلام الله قلته ورحمـــــــــــــة* عليكم مدى الأيام في كل ساعة**

كانت هذه هي رسالة الاستنصار التي بعث بها المسلمون في الأندلس ، لإنقاذ الموقف هناك ، وكان السلطان بايزيد يعاني من العوائق التي تمنعه من إرسال المجاهدين ، بالإضافة إلى مشكلة النزاع على العرش مع الأمير جم ، وما أثار ذلك من مشاكل مع البابوية في روما وبعض الدول الأوروبية وهجوم البولنديين على مولدافيا والحروب في ترانسلفانيا والمجر والبندقية وتكوين التحالف الصليبي الجديد ضد الدولة العثمانية من البابا جويلس الثاني وجمهورية البندقية والمجر وفرنسا ، وما أسفر عنه هذا التحالف من توجيه القوة العثمانية لتلك المناطق.

ومع ذلك قام السلطان بايزيد بتقديم المساعدة وتهادن مع السلطان المملوكي الأشراف لتوحيد الجهود من أجل مساعدة غرناطة ووقعا اتفاقاً بموجبه يرسل السلطان بايزيد أسطولاً على سواحل صقلية باعتبارها تابعة لمملكة أسبانيا ، وأن يجهز السلطان المملوكي حملات أخرى من ناحية أفريقيا وبالفعل أرسل السلطان بايزيد أسطولاً عثمانياً تحول إلى الشواطئ الأسبانية ، وقد أعطى قيادته إلى كمال رايس الذي أدخل الفزع والخوف والرعب في الأساطيل النصرانية في أواخر القرن الخامس عشر ، كما شجع السلطان بايزيد

المجاهدين في البحر بإبداء اهتمامه وعطفه عليهم ، وكان المجاهدون العثمانيون قد بدأوا في التحرك لنجدة إخوانهم المسلمين ، وفي نفس الوقت كانوا يغنمون الكثير من الغنائم السهلة الحصول من النصارى
****

سليم الأول (٩١٨ - ٩٢٦هـ)

بعد أن تنازل بايزيد لابنه سليم عن الحكم بدعم الانكشارية ، أرضى السلطان سليم الانكشارية وتوجه إلى آسيا للتخلص من إخوته الذين ينازعونه السلطة أو لا يرضون به سلطاناً ، فتعقب أخاه أحمد إلى أنقره وقبض عليه بعد جهد ، وقتله ، ثم سار إلى ولاية صاروخان وتتبع أخاه الآخر كركود ففر منه ، وبعد البحث عليه تمكن منه وقتله ، وأخذ خمسة من أولاد إخوته في بورصة وأمر بقتلهم ، واطمأن بعدها - حسب قناعته - من المنافسة الأسرية. وكان قد عين ابنه سليمان حاكماً على استانبول ليتفرغ لأموره التي في رأسه .
انتقل بعد ذلك إلى أدرنة فوجد سفراء البندقية ، والمجر ، وموسكو ، وسلطنة مصر ينتظرونه ، فعقد معهم معاهدات حيث يريد أن يتفرغ إلى ما يخطط له.

إن السلطان سليم ذو شخصية قوية ، وهو عسكري بفطرته ، لذا كانت نظرته إلى القضايا كلها من وجهة نظر عسكرية ، فيرى أن الأمور المستعصية لا تحلها إلا القوة ، وهذا ما جعل العسكريين يحبونه ، ويعملون على تسلمه السلطة.

إن سياسة الدولة العثمانية في زمن السلطان سليم الأول سارت على هذه الأسس ألا وهي القضاء على الدولة الصفوية الشيعية ، وضم الدولة المملوكية ، وحماية الأراضي المقدسة ، وملاحقة الأساطيل البرتغالية ، ودعم حركة الجهاد البحري في الشمال الأفريقي للقضاء على الأسبان ، ومواصلة الدولة جهادها في شرق أوروبا . وهذا تفصيل هذه الخطة:

رأى السلطان سليم أن دولته قد أصبحت أقوى الدول الإسلامية آنذاك ؛ لذا عليه أن يقوم بالمهمة الملقاة على عائقه في توحيد أبناء الأمة المسلمة. ورأى أن الأندلس قد سقطت بيد النصارى الأسبان ، ولم تعد هناك فائدة للضغط على أوربا من جهة الشرق للتخفيف عن المسلمين في الغرب.

ورأى أن أوربا النصرانية لا يمكن مواجهتها إلا بالمسلمين كافة ؛ لذا يجب أن يخضع المسلمون لدولة واحدة ، ولا شك أن يفكر في أن هذا الخضوع يجب أن يكون للعثمانيين بصفة أن دولتهم أقوى الدول الإسلامية القائمة يومذاك ، ورأى أن دولة المماليك قد ضعف أمرها ، ولم تتمكن من تأدية دورها في مواجهة البرتغاليين الذين قدموا على المسلمين من الجنوب ، وأن الخلافة العباسية في مصر ليست سوى خلافة صورية يتصرف بها المماليك كيف يشاءون.

ورأى أن البرتغاليين يهددن العالم الإسلامي من جهة الجنوب ، ويهددون باحتلال المدينة المنورة ، وأخذ رفات النبي الكريم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وعدم تسليمها حتى يتخلوا عن القدس للنصارى ، وقد عجز المماليك عن مقاومتهم ، وفوق هذا فإن هؤلاء البرتغاليين قد وجدوا لهم أعواناً بين المسلمين أنفسهم إذ طلب الصفويون من البرتغاليين أن يشكلوا حلفاً ضد العثمانيين بل ضد أهل السنة من المسلمين ، ورأى أيضاً أن موقف الصفويين في الخليج ضد البرتغاليين كان موقفاً فيه كثير من الميوعة.

ورأى أن الصفويين بعامل الخلاف المذهبي بينهم وبين العثمانيين قد بدؤوا يتحرشون بالعثمانيين من جهة الشرق ، ويحاولون التوسع ، كما يعملون على نشر المذهب الشيعي ، فقد دخل الشاه إسماعيل الصفوي ديار بكر ، وجعل عاصمته تبريز القريبة ، وطلب من المماليك التحالف معهم ضد العثمانيين للوقوف في وجه توسعهم. كما ساعد الأمير أحمد ضد والده السلطان بايزيد الثاني

أولاً : محاربة الدولة الصفوية الشيعية:

أمام هذه المرئيات وحسب طبيعته العسكرية ، وجد أن يحسم الأمور بالعمل العسكري ، وقرر أن يسير نحو الصفويين ليأدبهم ويبعدهم عن البرتغاليين ، ثم يتحالف مع المماليك ليقفوا معاً في وجه البرتغاليين ، فإن أبي المماليك التفاهم احتل بلادهم ، ووقف أمام البرتغاليين يجاهدهم وخاصة أنها حرب صليبية واضحة ، يتابع البرتغاليون من خلالها المسلمين بعد أن أخرجوهم من الأندلس. في الوقت نفسه يكون قد قطع مرحلة في توحيد المسلمين بضم أجزاء واسعة إلى دولته ، وكلها أقسام من بلاد المسلمين ، وربما شجعه على ذلك ضعف دولة المماليك ، وخوف السكان من البرتغاليين ، وسمعة العثمانيين التي ارتفعت في نفوس الأهالي ، وأمل المسلمين في قدوم السلطان العثماني لمنازلة البرتغاليين.

اتجه السلطان سليم من أدرنه على رأس جيش عظيم باتجاه الصفويين ، وكان قد أحصى الشيعة الذين في شرقي الدولة لأنهم سيكونون أنصاراً للصفويين ، وأمر بقتلهم في شرقي الدولة لأنهم سيكونون أنصاراً للصفويين ، وأمر بقتلهم جميعاً ، ثم تقدم نحو تبريز عاصمة الصفويين الذين أرادوا خديعته بالتراجع المخطط حتى إذا أنهك الجيش العثماني انقضوا عليه ، وبقي السلطان في تقدمه حتى التقى بالجيش الصفوي في (جالديران) جنوب مدينة قارص في شرقي الأناضول وكانت معركة عنيفة بين الطرفين في الثاني من رجب عام ٩٢٠ ، انتصر فيها العثمانيون ، وفر من الميدان الشاه إسماعيل الصفوي ، وبعد عشرة أيام دخل السلطان تبريز ، واستولى على الخزائن ، ونقلها إلى استانبول ، وتتبع الشاه ، ولكن لم يتمكن من القبض عليه ، وأقبل فصل الشتاء ببرده في تلك المرتفعات فاشتد الأمر على الجنود العثمانيين ، وبدا تذمرهم ، فترك السلطان المنطقة ، وسار نحو مدينة أماسيا حتى انتهى فصل الشتاء ، رجع السلطان إلى أذربيجان ففتح بعض القلاع ، ودخل إمارة ذي القادر ، وترك الجيوش العثمانية تنفذ المهمة التي أعطاها لها ، وعاد إلى استانبول ، فقتل كبار الضباط من الانكشارية الذين أبدوا تذمرا من التقدم بسبب البرد كي لا تتكرر الحادثة. وكانت الجيوش العثمانية قد دخلت أورفة ، والرقة ، وماردين ، والموصل.

ثانياً : ضم دولة المماليك:

بعد الحرب التي شنها السلطان سليم على الصفويين بدأ يستعد لحرب المماليك الذين تحالفوا مع الصفويين على العثمانيين ، والذين يختلف معهم بشأن إمارة ذي القادر على الحدود بين الطرفين ، والتي قاعدتها مرعش ، كما أن المماليك وقفوا مع بعض الأمراء العثمانيين الفارين من وجه السلطان سليم ، كما كان الموقف السلبي للدولة المملوكية في وقوفها المعنوي مع الشاه إسماعيل الصفوي ، وشجعه على هذه الحرب وجهاء الشام الذين خافوا البرتغاليين ، ولم يجدوا في المماليك القدرة على المقاومة ، مع الظلم الذي كان يمارسه الممالك ضد أهل الشام ، وبروز العثمانيين كقوة ضخمة اكتسحت أجزاء من أوربا.

ولما علم سلطان المماليك(قانصوه الغوري) الملك الأشرف أبو النصر سيف الدين استعداد السلطان سليم لغزو بلاد المماليك أرسل إليه رسولاً يعرض عليه وساطته للصلح بين العثمانيين والصفويين ، غير أن السلطان سليم بطبيعته العسكرية طرد الرسول وأهانه ، لأنه قرر الحسم العسكري.

سار السلطان سليم بجيشه نحو بلاد الشام ، واستعد للسلطان الأشرف قانصوه الغوري ، واتجه نحو الأناضول ، والتقى الطرفان في مرج دابق شمال غربي مدينة حلب ، وكان السلطان العثماني قد اتصل بولاة الشام ومناهم ، أو التقوا به ، وتقربوا إليه ، وعندما التحم الجيشان يوم ٢٥ رجب من عام ١٩٢٢ ، انفصل ولاة الشام بمن معهم وانضموا إلى العثمانيين فانتصروا ، وهزم المماليك رغم شجاعة السلطان

الأشرف والجهد الذي قدمه ، وثباته في المعركة حتى قتل.

دخل السلطان سليم حلب ، وحماه ، وحمص ، ودمشق دون مقاومة بل بالترحيب في أغلب الأحيان ، وأبقى ولاة الشام على ولاياتهم حسبما وعدهم ، بل زاد في مناطق نفوذ بعضهم حسبما بذلوا في ميدان مرج دابق ، واتجه إلى مصر ، بعد أن قابل العلماء وأكرمهم ، وأمر بترميم مسجد بني أمية بدمشق ، وقد عين جانبرد

الغزالي على دمشق ، وفخر الدين المعني على جبل لبنان ، وهو من الدروز ، وقد ساعد السلطان سليم ، ووقف إلى جانبه بعد أن ترك المماليك ليحصل على الولاية ، وهو من ألد أعداء العثمانيين .

كان المماليك في مصر قد اختاروا سلطاناً جديداً هو خليفة قانصوه الغوري ويدعى (طومان باي) ، وقد أرسل إليه السلطان سليم يعرض عليه الصلح مقابل الاعتراف بالسيادة العثمانية على مصر ، غير أن طومان باي رفض ذلك ، واستعد للقتال ، وكان السلطان سليم يبكي في مسجد الصخرة بالقدس بكاء حاراً وصلى صلاة الحاجة داعياً الله أن يفتح عليه مصر ، وتحرك نحو مصر وقطع صحراء فلسطين ، والتقى الطرفان عند حدود بلاد الشام فهزم المماليك ، ودخل العثمانيون غزة ، وفي اليوم الأخير من عام ٩٢٢ التقى الطرفان في معركة (الريدانية (على أبواب القاهرة ، وانطلق طومان باي مع كوكبة من فرسانه إلى مقر السلطان سليم ، وقتلوا من حوله ، وأسروا الوزير سنان باشا ، وقتله طومان باي بيده ظناً منه أنه السلطان سليم ، ورغم الشجاعة التي أبداها المماليك ، والمقاومة التي أظهرها المقاتلون فإن العثمانيين قد انتصروا عليهم لتفوقهم بالمدفعية ، وفي ٨ محرم ٩٢٣ دخل العثمانيون القاهرة. وانطلق طومان باي إلى جهات الجيزة يقاتل العثمانيين ، غير أنه قد سقط أسيراً بأيديهم ، وقتل في ٢١ ربيع الأول ٩٢٣.

ثالثاً : انتقال الخلافة:

بقي سليم في القاهرة ما يقرب من شهر وزع خلالها الأعطيات، وحضر الاحتفالات ، ويقال أنه قد تنازل له الخليفة العباسي محمد المتوكل على الله عن الخلافة ، وسلمه مفاتيح الحرمين الشريفين ، فأصبح السلطان العثماني منذ ذلك اليوم خليفة للمسلمين ، ولكن الواقع التاريخي يقول : إن السلطان سليم الأول أطلق على نفسه لقب (خليفة الله في طول الأرض وعرضها) منذ عام ٩٢٠هـ ١٥١٤م ، أي قبل فتحه للشام ومصر وإعلان الحجاز خضوعه لأل عثمان. والحق أن صدق العثمانيين وجهادهم وكونهم مقصد المسلمين الذين يتطلعون لمساعدتهم من هجوم البرتغال هو الذي أكسبهم هذه المكانة ، ولم يكن السلطان سليم مهتماً بلقب الخلافة وكذلك سلاطين آل عثمان من بعده وأن الاهتمام قد عاد بعد ضعف الدولة العثمانية.

رابعاً : خضوع الحجاز للعثمانيين:

كما جاءه محمد أبو نمي بن الشريف بركات شريف مكة، وأعلن له الطاعة.

وسافر الخليفة العثماني من مصر متجهاً نحو الأناضول عن طريق الشام ، وقد عين حاكماً على مصر خير بك ، وترك عنده حامية من الانكشارية ، واصطحب معه الخليفة العباسي المتنازل أو المخلوع ، ومر على دمشق ، وأقام فيها مدة ، بنى خلالها الجامع على ضريح محيي الدين بن العربي ، ومر على حلب وأقام بها شهرين ، ثم سافر إلى أدرنه ، وهناك جاءه سفير أسبانيا من أجل السماح لنصارى الأسبان بزيارة بيت المقدس مقابل مبلغ يدفع له سنوياً ، كما كان الأمر مع المماليك ، وبدأ يستعد لمحاربة الصفويين غير أنه توفي في ٩ شوال عام ٩٢٦.

****

سليمان القانوني (٩٢٦- ٩٧٤ هـ)

ولد سليمان عام ٩٠٠ في مدينة طرابزون، ونشأ محباً للعلم والأدب والعلماء والأدباء والفقهاء ، واشتهر منذ شبابه بالجدية والوقار، وتولى الخلافة بعد وفاة أبيه عام ٩٢٦ وعمره ٢٦ عاماً ، وكان متأنياً في جميع أموره ولا يتعجل في الأعمال التي يريد تنفيذها بل كان يفكر بعمق ثم يقرر وإذا اتخذ قراراً لا يرجع عنه، وفي عهده بلغت الدولة أوج قوتها واتساعها.

الفتن الأربعة الأولى

ما أن شاع خبر وفاة الخليفة العثماني الأول حتى أعلن جانبرد الغزالي حاكم الشام تمرده ، واتصل بخير بك حاكم مصر ليكون نصيره فراوغه ووعده ، وفي الوقت نفسه اطلع الخليفة الجديد على مراسلاته له. وسار الغزالي ليأخذ حلب وألقى الحصار عليها ، وهو في حصاره لها وصلت إليه الجيوش العثمانية فترك الحصار ، وأسرع إلى دمشق ليتحصن بها ، فلحقته الجيوش وحاصرته فيها ، فخرج يريد القتال يوم ١٧ صفر ٩٢٧ فانهزم جنده ، وفر هو متنكراً ، ولكن أخذه بعض أعوانه وسلمه إلى فرحات باشا قائد الجيوش العثمانية فقتله.

وحاول أحمد شاه الخائن في مصر التمرد وكان طامعاً في منصب الصدر الأعظم ولم يفلح في تحقيق هدفه وطلب من السلطان أن يعينه والياً على مصر فعينه ، وما إن وصل لمصر حتى حاول استمالة الناس وأعلن نفسه سلطاناً مستقلاً إلا أن أهل الشرع وجنود الانكشارية قاموا ضده وقتلوه .

والتمرد الثالث قام به بابا ذو النون في منطقة يوزغاد حيث جمع مابين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف ثائر وفرض الخراج على المنطقة وقويت حركته إلا أنه قتل وأرسل رأسه إلى استانبول.

وحاول الشيعة مرة ثانية في تمرد رابع ضد الخليفة بقيادة قلندر جلبي في منطقة قونية ومرعش وكان عدد أتباعه ثلاثون ألف شيعي قاموا بقتل المسلمين السنة في المنطقتين ، وجعل شعاره أن من قتل سنياً واعتدى على امرأة سنية يكون بهذا قد حاز أكبر الثواب. إلا أن بعض قواده انقلبوا عليه وقلت قواته وهزم وقتل.

وأرسل الخليفة رسولاً إلى ملك المجر يطالبه بدفع الجزية ، فقتل الملك الرسول ، وعندما وصل الخبر إلى الخليفة جمع جيشه ، وسار على رأسه لقتال المجر ، ودخل مدينة بلغراد بعد حصار قصير ، وغادرتها الجنود المجرية.

فتح جزيرة رودس وعاصمة الأفلاق والقرم

وكانت جزيرة رودس مشاكسة وحصناً حصيناً لفرسان القديس يوحنا الذين كانوا يقطعون طريق الحجاج الأتراك للحجاز ، وكانت تقوم بأعمال عدوانية موجهة لخطوط المواصلات البحرية العثمانية فاهتم السلطان

بفتح الجزيرة في ٢ صفر عام ٩٢٩ مستغلاً انشغال أوربا بقضاياها الخاصة واختلافاتها فيما بينها كي لا تساعد رهبان هذه الجزيرة الذين يسيطرون عليها ، وقد انتقل هؤلاء الرهبان إلى جزيرة مالطة.

أصبحت شبه جزيرة القرم ولاية عثمانية ، وكانت من قبل ولاية يحكمها التتار من فرع القبيلة الذهبية ، ثم وقع الخلاف بين حكامها فتدخلت الدولة العثمانية في شؤونها ، ولكن بقيت الفوضى قائمة حتى ضمتها إليها عام ٩٣٩.

وفي عام ٩٣١ أرسل جيشاً استولى على عاصمة الأفلاق ، وأخذ أميرها إلى استانبول ، وكانت من قبل تعترف بالسيادة العثمانية ، وتدفع الجزية. ولكن الأعيان ثاروا على ذلك بمساعدة أمير ترانسلفانيا وعينوا أميراً جديداً فوافق السلطان مقابل زيادة في الجزية.

قتال المجر وحصار فينا

وقد رغب ملك فرنسا في التحالف مع العثمانيين كي يحاربوا المجر التابعة لملك النمسا شارلكان الذي تحيط أملاكه بفرنسا من كل جهة إذ كانت تتبعه إسبانيا ، وهولندا ، وإمارتا جنوه وفلورنسا ، وصقلية ، وجزر البالئار ، وفي الوقت نفسه يعد إمبراطوراً لألمانيا ، لذا فقد أرسل ملك فرنسا سفيراً للخليفة العثماني في هذا الشأن ، ووعده الخليفة بذلك ، وفعلا فقد سار الخليفة عام ٩٣٢ على رأس مائة ألف مقاتل إضافة إلى ثمانمائة سفينة انطلقت في نهر الدانوب ، وقد جعل قاعدته مدينة بلغراد. وأحرز الانتصار ، وقتل ملكهم لويس ، ودخل بعدها العاصمة (بودا) في ٣ ذي الحجة عام ٩٣٢ ، وعين أمير ترانسلفانيا (جان زابولي) ملكاً على المجر ، ورجع بعدها إلى استانبول.

غير أنه في العام التالي ٩٣٣ ادعي الأمير فرديناند أخو ملك النمسا شارلكان أحقيته بملك المجر ، فسار إليه عام ٩٣٥ ، وحاصر (بودا) ، وفر منها فرديناند متجهاً نحو (فيينا) ، وألقى الحصار على المدينة ، وأمر بالهجوم عليها في 20 صفر ٩٣٧ بعد أن أحدث ثغرات في أسوارها ولكنه لم يقو على اقتحامها إذ نفدت ذخيرة المدفعية ، وداهمه فصل الشتاء البارد فقرر فك الحصار والعودة .

وفي العام التالي ٩٣٨ أرسل ملك النمسا جيشاً لدخول (بودا) غير أنه عجز عن ذلك أمام مقاومة الحامية العثمانية. وعاد الخليفة نحو فيينا عام ٩٣٩ إلا أنه رجع من الطريق لما علم من استعدادات شارلكان الدفاعية.

وجاءت سفن بحرية تابعة لشارلكان والبابا واحتلت بعض المواقع في شبه جزيرة الموره اليونانية والتابعة للدولة العثمانية. وبعد ذلك وقعت معاهدة بين النمسا والخليفة العثماني.

وفي عام ٩٤١ اتجه العثمانيون نحو تبريز فدخلوها ثانية ، وجاء إليها الخليفة إثر ذلك ، وسار منها نحو بغداد ففتحها في العام نفسه.

العمل العثماني في بلاد المغرب

كان البحار المشهور خير الدين وأخوه عروج نصرانيان من إحدى جزر بحر إيجه ، ويعملان في القرصنة البحرية ، ثم هداهما الله إلى الإسلام فأسلما ، ودخلا في خدمة السلطان محمد الحفصي في تونس ، وكانا يعترضان السفن النصرانية ، ويأخذان ما فيها ، ويبيعان ركابها وملاحيها رقيقاً ، وقد أرسلا للسلطان العثماني سليم إحدى السفن التي أسروها فقبلها منهما ، وأجزل لهما العطاء ، فقويت نفسيهما ، وعندما جاء السلطان سليم إلى مصر أرسلا له رسولاً يعلن له خضوعهما للدولة العثمانية.

واستطاع عروّج أن يستولي على مدينة الجزائر ، وأن ينتصر على جيوش شارلكان التي أرسلها لمحاربة عروّج ، كما استولى على مدينة تلمسان غير أنه قتل في إحدى حروبه مع الإسبان ، وأرسل خير الدين بعد ذلك رسولاً إلى الخليفة العثماني سليم الأول وكان لا يزال في مصر يعلمه أنه قد فتح مدينة الجزائر باسم الخليفة ، فأصدر الخليفة أمراً يقضي بتعيين خير الدين والياً على إقليم الجزائر ، وأعطاه رتبة (باشا) ، وبذا أصبحت الجزائر ولاية عثمانية.

وكان الإسبان قد أخذوا طرابلس الغرب من بني حفص عام ٩١٦ ، وبنزول الإسبان في طرابلس شعر السكان بالخطر الصليبي يتهددهم ، فأرسلوا إلى الخليفة العثماني سليمان الأول وفداً عام ٩٢٦ يستغيثون به ، فأخذهم بقوة صغيرة بإمرة مراد آغا الذي نزل شرق طرابلس ، وسار لحصارها ، لكنه لم يتمكن من فتحها ، وجاءت قوة من جنوه ونابولي الإيطاليتين وغزت بعض سواحل بلاد المسلمين ، واحتلت بعضها ومنها جزيرة جربا التونسية. عندها أحس الخليفة العثماني بالخطر الصليبي هناك ، فأرسل الأسطول العثماني بقيادة طورغول الذي هاجم الإسبان في طرابلس ، وفتح المدينة ، وطرد النصارى الإسبان منها ، وتولى الإمارة فيها ، كما أخرج الإسبان من بنزرت ووهران ، وغزا ميورقة ، وكورسيكا.

واستمر خير الدين في عمله البحري فنزل على شواطئ ايطاليا، وفرنسا ، وإسبانيا ، وأخذ حصن (بينون) الذي أقامه الإسبان على جزيرة أمام مدينة الجزائر. غير أن السلطان سليمان قد طلب منه أن يكف عن مراكب فرنسا بعد المعاهدة التي عقدت بين فرنسا والعثمانيين ، فكف عن ذلك ، ولكن وجه اهتمامه ضد الإسبان انتقاماً لما فعلوه بالمسلمين في الأندلس بعد أن سقطت غرناطة بأيديهم عام.898

وفي عام ٩٣٩ دعا الخليفة العباسي سليمان إلى استانبول خير الدين ، وكلفه ببناء السفن والاستعداد لغزو تونس ، فقام بالأمر حق قيام ، وعندما سافر الخليفة إلى تبريز عام ٩٤٠ سار خير الدين عبر مضيق الدردنيل إلى مالطة كي يخفي قصده ، كما غزا بعض موانئ جنوبي إيطاليا ، ثم قصد تونس عام ٩٤١ ، وتمكن من احتلالها بسهولة باسم الخليفة العثماني ، وقد عزل مولاي حسن آخر الحفصيين ، وعين مكانه أخاه الرشيد. ونتيجة ذلك الفوز اتفق شارلكان ، وأشراف الإسبان في برشلونة ، ورهبان مالطة على حرب المسلمين ، وقاد الجموع شارلكان بنفسه ، وأعاد حسن الحفصي إلى الحكم بعد معاهدة معه ، سمحت للنصارى بالاستيطان في إقليم تونس ، وإقامة شعائرهم بحرية ، ودفع الحفصي تكاليف الحرب ، وتنازل لشارلكان عن بنزرت وعنابة. واضطر خير الدين أن ينسحب إلى الجزائر.
والتقى خير الدين عام ٩٤٤ بأسطول شارلكان وانتصر عليه ، كما غزا جزيرة كريت ، وتوفي عام ٩٥٣هـ.

الحروب على أوربا

هاج الرأي العام النصراني في أوربا على فرنسا وتحالفها مع الدولة العثمانية المسلمة التي تقاتل النمسا الدولة النصرانية فما كان من ملك فرنسا فرانسوا الأول إلا أن خضع للرأي الصليبي ، وهادن ملك النمسا ، وأخلف بما وعد به العثمانيين من غزو مشترك لايطاليا.

وعادت الحرب بين العثمانيين والنمسا عام ٩٤٣ وانهزمت النمسا ، وحرض فرديناند أخو شارلكان أمير البغدان على التمرد على العثمانيين لكن فتنته قد قمعت ، وعزل عن الإمارة ، وتولى مكانه أخوه اصطفان عام ٩٤٤ ، وعزز العثمانيون حاميتهم هنالك.
واتفق جان زابولي ملك المجر ، مع الأمير النمساوي فرديناند على اقتسام المجر ، وإنهاء التدخل العثماني ، وللإيقاع بزابولي فقد أرسل فرديناند نسخة من الاتفاق إلى الخليفة العثماني ليعرف عدم ولاء زابولي

ويقصيه عن الملك ، وعندها يزداد النفوذ النمساوي في المجر ، ويزول من طريقه حليف العثمانيين.

ومات جان زابولي ملك المجر عام ٩٤٦ قبل أن يلقى الجزاء من الخليفة ، وهاجمت الجيوش النمساوية المجر بسرعة لإنهاء الحماية العثمانية ، وحاصرت مدينة (بودا) وفيها أرملة زابولي وطفلها ، واحتلت مدينة (بست) المقابلة لمدينة) بودا) ، ومع وصول الخبر إلى الخليفة اتجه فوراً عام ٩٤٧ على رأس جيش ففر النمساويون ، وغدت المجر ولاية عثمانية ، وأما أرملة زابولي وأم الطفل والوصية عليه ، فقد قبلت تلك الحماية المؤقتة لبلوغ الطفل سن الرشد .

وأخيراً عقدت معاهدة بين الخليفة العثماني والنمسا عام ٩٥٤ لمدة خمس سنوات تدفع بموجبها النمسا جزية سنوية لقاء ما بقي تحت يدها من المجر.

العمل العثماني في جزيرة العرب

أمر الخليفة العثماني سليمان القانوني حاكم مصر سليمان باشا أن يجهز أسطولاً ، ويتجه به لمحاربة الصليبيين البرتغاليين ، وأن يفتح عدن وبلاد اليمن كي لا تقع بأيدي الصليبيين ، فبنى سليمان باشا أسطولاً مؤلفاً من سبعين سفينة ، واتجه به على رأس عشرين ألف جندي ، وفتح عدن ، ومسقط ، وحاصر جزيرة هرمز عام ٩٤٤ .

وكان قد وصل إلى استانبول قبل عام سفير من كوجرات بالهند ، يستنجد بالخليفة ضد البرتغاليين الذين وصلوا إلى سواحل الهند ، وآخر من دهلي يستنجد به ضد همايون بن ظاهر الدين محمد المشهور ببابر ، وهو من المغول الذين دخلوا الهند وحكموها.

وانطلق سليمان باشا إلى كوجرات ، ودخل بعض القلاع التي أقامها البرتغاليون على سواحل الهند ، ولكنه هزم في معركة (ديو) البحرية أمام البرتغاليين ، ورجع إلى بلاده ، وكانت اليمن قد أصبحت ولاية عثمانية.

العمل العثماني في أذربيجان

جاء إلى استانبول أخو الشاه الصفوي ، يشكو إلى الخليفة ظلم أخيه ، وهضم حقوقه، وطلب منه مساعدته ضده ، فسار الخليفة عام ٩٥٤ ودخل تبريز ، وكان هذا الدخول العثماني لهذه المدينة المرة الثالثة وعاد الخليفة إلى استانبول عام.955

العودة إلى أوربا

تنازلت ايزابيلا أرملة زابولى عن ترانسلفانيا إلى فرديناد الأمير النمساوي مخالفة بذلك شروط الهدنة الموقعة بين العثمانيين والنمساويين ، فأرسل الخليفة جيوشه التي احتلت ترانسلفانيا بعد مقاومة ، وذلك عام957 **، كما انتصرت على النمساويين في عدة مواقع عام ٩٥٨.**

ومات ملك فرنسا فرانسوا الأول وخلفه ابنه هنري الثاني فجدد المعاهدة مع العثمانيين عام ٩٥٩ ، وأغارت بعدها الدولتان على صقلية وجنوبي إيطاليا ، وفتحت أساطيلهما جزيرة كورسيكا ، ثم اختلف القائدان ، فتركا الجزيرة وعاد كل منهما إلى بلده.

وحاصر العثمانيون جزيرة مالطا عام ٩٧١ مدة أربعة أشهر ، ولم يتمكنوا من فتحها. وعاد الخليفة للقتال في بلاد المجر عام ٩٧٣ نتيجة الخلاف بين اصطفان زابولي ملك المجر ، ومكسمليان ملك النمسا الذي خلف أبوه فرديناند. وتوفي الخليفة في أثناء حصاره لإحدى القلاع هناك عام ٩٧٤.

وكان الخليفة قد قتل ابنه مصطفى بدسيسة من زوجته الروسية (روكسلان) ليتولى ابنها سليم الثاني

الخلافة بعد أبيه. وكان مصطفى قائداً عظيماً محبوباً من الضباط ، كما سعت (روكسلان) لقتل ابن مصطفى الذي لا يزال رضيعاً . وكذلك قتل سليمان القانوني ابنه الآخر بايزيد وأبناءه الأربعة بدسيسة من أحد

الوزراء بتعليم من سليم من سليمان ، واضطر بايزيد أن يتمرد على أبيه خوفاً منه عندما امتنع عن تنفيذ أوامره بالانتقال من حكم ولاية قونية إلى (أماسيا) ، غير أنه هزم ، ففر مع أبنائه إلى الصفويين ، فراسل الشاه طهماسب الخليفة ، ثم سلمهم إلى رسول الخليفة الذي بعث لاستلامهم فقتلهم في مدينة قزوين

سليم الثاني (٩٧٤- ٩٨٢هـ)

ولد عام ٩٣٠ هـ في أيام خلافة أبيه ، وأمه روكسلان الروسية ، وتولى الحكم بعد أبيه في ٩ ربيع الأول سنة ٩٧٤هـ ، وبعد أن قتل أبوه ابنيه الآخرين بدسائس من زوجته روكسلان ، وقد كان ضعيفاً ، ولم يكن مؤهلاً لحفظ فتوحات والده السلطان سليمان ، ولولا وجود الوزير الفذ والمجاهد الكبير والسياسي القدير محمد باشا الصقللي لانهارالدولة ، إذ قام بإعادة هيبتها وزرع الرهبة في قلوب أعدائها وعقد صلحاً مع النمسا وأتم توقيع معاهدة في عام ٩٧٥هـ الموافق ٩٦٧ م احتفظت بموجبها النمسا بأملاكها في بلاد المجر ودفعت الجزية السنوية المقررة سابقاً للدولة كما اعترف أمراء تراسلفانيا والأفلاق والبغدان .

أولاً : تجدد الهدنة مع شارل التاسع ملك فرنسا :

تجددت الهدنة مع ملك بولونيا وشارل التاسع ملك فرنسا في عام ٩٨٠هـ الموافق1569 م كما زادت الامتيازات القنصلية الفرنسية وجرى تعيين هنري دي فالوا – وهو أخو ملك فرنسا – ملكاً على بولونيا باتفاق مع فرنسا التي أصبحت بذلك ملكة التجارة في البحر المتوسط. وطبقاً للمعاهدات السابقة فقد قامت تلك الدولة – أي فرنسا – بإرسالالبعثات الدينية النصرانية إلى كافة أرجاء البلاد العثمانية التي يسكنها نصارى وخاصة بلاد الشام وقامت بزرع محبة فرنسا فينفوس نصارى الشام مما كان له أثر يذكر في ضعف الدولة ، إذ امتد النفوذ الفرنسي بين النصارى وبالتالي ازداد العصيان وتشجعوا على الثورات فكان من أهم نتائج ذلك التدخل الاحتفاظ بجنسية ولغة الأقليات النصرانية حتى إذا ضعفت الدولة العثمانية ثارت تلك الشعوب مطالبة بالاستقلال بدعم وتأييد من دول أوروبا النصرانية.

إن اقتناع الدول الأوربية بكون "نظام الامتيازات الأجنبية ، حقاً من حقوقها الطبيعية هو الذي دفع فرنسة لإرسال جنودها لمساعدة البندقية التي كان السلطان مراد الرابع (١٦٢٤ – ١٦٤٠م)يحاربها ، كما أرسلت سفيرها برفقة عمرة بحرية لإرهاب الدولة العلية ومطالبتها بتجديد الامتيازات . لكن الصدر الأعظم حينئذ والذي كان ما زال يمتلك قراره السياسي ، أخبر السفير (بأن المعاهدات هذه ليست اضطرارية واجبة التنفيذ ذلك لكونها منحة سلطانية فحسب ، الأمر الذي جعل فرنسة تتراجع عن تهديداتها وتتحايل لدى السلطان ليوافق من جديد على تجديد نظام الامتيازات عام ٦٧٣م ، مما زاد الطين بلة ، وبدل أن تتعظ الدولة العثمانية مما حدث أمر السلطان محمد الرابع (١٦٤٨ – ١٦٨٧م) بتفويض فرنسة حق حماية بيت المقدس تتابع بتجديد الامتيازات ، وفي كل مرة يضاف قيد جديد على السلطنة ففي تجديد عام 1740 م أضافت السلطنة امتيازات تجارية جديدة لفرنسة. ولكن الامتيازات تعرضت لتهديد حقيقي عندما احتل نابليون بونابرت مصر ، فقد أوقفت السلطنة العمل بها ، غير أن نابليون كان قد تراجع في الوقت المناسب حفاظاً على علاقته مع السلطنة ، وذلك حين عرض انسحاب فرنسة من مصر لقاء تجديد الامتيازات ، وقد تم ذلك بالفعل في ٩ تشرين أو) أكتوبر) ١٨٠١م وأضافت السلطنة امتيازاً جديداً يقضي بمنح فرنسة حرية التجارة والملاحة في البحر الأسود.

لقد كانت نتائج هذه الامتيازات وخيمة جداً على السلطنة ولقد بين المؤرخ اليوناني ويمتري كيتسيكس : "... أن الامتيازات حطمت اقتصاد الإمبراطورية بتحطيمها النظام الضريبي العثماني القائم على حماية التجارة المحلية ضد المنافسة الأجنبية بل هذه الامتيازات حالت دون قيام السلطنة بتنفيذ مشروعات إصلاحية واستنباط موارد مالية جديدة لمواجهة نفقات الإدارة والحكم ، لذلك أصبحت معاهدات الامتيازات الأجنبية بمثابة مواثيق مذلة للعثمانيين ما دام الأوربيون لا يخضعون للسلطات العثمانية ، فقد أصبحوا وكأنهم يشكلون حكومة داخل الحكومة العثمانية.

ثانياً : حاكم خوارزم يطلب الحماية من السلطان سليم الثاني:

اشتكىحاكم خورازم للسلطان سليم الثاني ، من أن شاه فارس يقبض على الحجاج الوافدين من تركستان ، بمجرد عبورهم حدوده ، وأن موسكو بعد استيلاتها على استراخان منعت مرور الحجاج والتجارة ، ووضعت العقبات والعراقيل أمامهم ، لهذا طلب حاكمخوارزم ، وحكام بخارى وسمرقند من السلطان سليم الثاني أن يفتح استرخان بهدف إعادة فتح طريق الحج ، لاقى ذلك الطلب القبول لدى الدولة العثمانية ، أعد صوقللي باشا

الصدر الأعظم في الدولة حملة كبرى سنة ٩٧٦هـ / ٩٧٧هـ / ٥٦٨ – ٥٦٩ ام للاستيلاء على استراخان وتحويلها إلى قاعدة عثمانية للدفاع عن المنطقة وأن يصل ما بين نهري الفولجا والدون بقناة صالحة لمرور السفن لتسهل دخول الأسطول العثماني بحر الخزر) قزوين) عن طريق البحر الأسود لتمكن العثمانيين من وقف التوسع الروسي نحو الجنوب وتطرد الفرس من القوقاز وأذربيجان بل غزو فارس من الشمال ، بدلاً من مرور الجيوش العثمانية بأرض أذربيجان الوعرة ، والاتصال بالأزبك أعداء الصفويين وتتار القوم ، ومن شأن كل ذلك أن يؤدي إلى إحياء طريق القوافل القديمة المارة بأواسط آسيا من الشرق إلى الغرب.

شرع العثمانيون في تنفيذ مشروع وصل نهر الدون بالفولجا ، وحل شهر جمادى الأولى ٩٧٧هـ / أكتوبر ١٥٦٩م حتى كان ثلث القناة قد اكتمل ، وإن يكن موسم الشتاء قد أدى إلى إيقاف العمل ، وحينئذ اقترح قائد الحملة استعمال سفن صغيرة محملة بالمدافع والذخيرة لشن الهجوم على استراخان إلا أن الحملة فشلت بسبب الظروف الطبيعية ومع هذا استطاع صوقللي باشا أن يحقق بعض النجاحات كتشديد قبضة السلطان على أمراء مولدافيا وولاشيا وبولندا ، وبذلك اعترضت الدولة العثمانية مرحلياً توسع روسيا شمال وغرب البحر الأسود.

ثالثاً : فتح قبرص :

:كانت إيطاليا وأسبانيا تقدر أهمية جزيرة قبرص وشاع في أوروبا عن تكون حلف ضد السلطان ولكن لم يعمل شيء في حينه لإنقاذ قبرص من العثمانيين الذين نزلوها بقوة كاسحة ، نفذت إلى الجزيرة بدون صعوبة ووقفت مدينة فامرجستا الحصينة أمام العثمانيين بقيادة باحليون وبراجادنيو الذين واجهوا القوة العثمانية التي وصلت مائة ألف مقاتل استعمل خلالها العثمانيين جميع وسائل الحصار المعروفة ، من فر وكر ، وزرع للألغام ولم ينتج أي تأثير على الحامية ، ولو وصلت قوة مسيحية للنجدة ، لصار العثمانيون في خطر ، إلا أن المجاعة قامت بعملها ، واستسلمت المدينة في ربيع الثاني ٩٧٩هـ / أغسطس1571 م.

نقلت الدولة العثمانية بعد فتحها لقبرص عدداًكبيراً من سكان الأناضول الذين لا يزال أحفادهم مقيمين في الجزيرة ، ورغم ترحيب القبارصة الأرثوذكس بالحاكم العثماني ، الذي أنقذهم من الاضطهاد الكاثوليكي الذي مارسته النبدقية لعدة قرون ، إلا أن احتلال العثمانيين أثار الدولة الكاثوليكية.

رسى الأسطول العثمانيبعد انتهاء مهمته في ابنانجني وانصرف معظم جنوده بمناسبة حلول موسم الشتاء ، حيث تتوقف ساحة المعارك في مثل هذا الوقت من السنة ، والاستعداد للسنةالمقبلة.

رابعاً : معركة ليبانتي:

ارتعدت فرائص الأمم المسيحية من الخطر الإسلامي العظيم الذي هدد القارة الأوربية ، من جراء تدفق الجيوش العثمانية براً وبحراً فأخذ الباب بيوس الخامس (١٥٦٦ – ١٥٧٢م) يسعى من جديد لجمع شمل البلاد الأوروبية المختلفة وتوحيد قواها براً وبحراً تحت راية البابوية وقد كتب يقول ..." : إن السلطنة التركية قد تبسطت تبسطاً هائلاً بسبب نذالتنا " عقد البابا بيوس الخامس وفيليب الثاني ملك أسبانيا وجمهورية البندقية معاهدة في أوائل ٩٧٩هـ/ مايو1571 م ، تعهدوا فيه بالقيام بهجوم بحري ضد العثمانيين شارك في التحالف ،

فارتبطتوسكاني وجنوة ، وسافوي ، وبعض الإيطاليين في الحلف المقدس ، وأرسل البابا إلى ملك فرنسا يريد العون : فاعتذر شارل التاسع بحجة ارتباطه بمعاهدات مع العثمانيين ، فأجابه البابا طالباً منه التحلل من

مواثيقه هذه ، ولم تمض سوى أيام قليلة حتى نقض الإمبراطور عهوده ومواثيقه التي أبرمها مع العثمانيين واتجه نحو إيفان ملك الروس يطلب إجابته نفير الحرب ووجد تباطؤاً عند ملك بولونيا واختير (دون جوان) النمساوي قائداً للحملة وجاء في أحد بنود المعاهدة النصرانية : "إن البابا بيوس الخامس وفيليب ملك أسبانيا وجمهورية البندقية يعلنون الحرب الهجومية والدفاعية على الأتراك لأجل أن يستردوا جميع المواقع التي اغتصبوها من المسيحيين ومن جملتها تونس والجزائر وطرابلس.

وسار دون جون إلى البحر الادرياتيك ، حتى وصل إلى الجزء الضيق من خليج كورنث بالقرب من باتراس وليس ببعيدة عن ليبانتو والذي اسمها أعطي للمعركة .

كان من رأي قادة الأسطول الإسلامي الإفادة من تحصين الخليج وعدم الاشتباك بالأسطول الصليبي ، غير أن القائد العام علي باشا صمم على الخروج للمعركة معتمداً على تفوقه في عدد سفنه ، ونظم علي باشا قواته فوضع سفنه على نسق واحد من الشمال إلى الجنوب ، بحيث كانت ميمنتها تستند إلى مرفأ ليبانتو ، ومسيرتها في عرض البحر ، وقد قسمها علي باشا إلى جناحين وقلب فكان هو في القلب وسيروكو في الجناح الأيمن وبقي الجناح الأيسر بقيادة قلج عليومقابل ذلك نظم دون جون قواته فوضع سفنه على نسق يقابل النسق الإسلامي ووضع جناحه الأيمن بقيادة دوريا مقابل قلج علي ، وأسند قيادة جناحه الأيسر إلى بربريجو مقابل سيروكو وجعل دون نفسه لقيادة القلب وترك أسطولاً احتياطياً بقيادة سانت كروز.

خامساً : احتدام المعركة:

احتدمت المعركة في ١٧ جمادى الأولى سنة ٩٧٩هـ / ١٧ أكتوبر ١٥٧١م أحاط الأسطول الإسلامي بالأسطول المسيحي وأوغل العثمانيون بين سفن العدو ، ودارت معركة قاسية أظهر فيها الفريقان بطولة كبيرة وشجاعة نادرة ، وشاءت إرادة الله هزيمة المسلمين ففقدوا ثلاثين ألف مقاتل وقيل عشرين ألفاً ، وخسروا ٢٠٠ سفينة حربية منها ٩٣ غرقت والباقي غنمه العدو وتقاسمته الأساطيل النصرانية المتحدة وأسر لهم عشرة آلاف رجل واستطاع قلج علي إنقاذ سفنه واستطاع كذلك المحافظة على بعض السفن التي غنمها ومن بينها السفينة التي تحملعلم البابا ، رجع بها لاسطنبول التي استقبلته استقبال الفاتحين ، رغم الشعور بمرارة الهزيمة وبادر السلطان سليم الثاني أثر ذلك بترفيع قلج على إلى رتبة قائد البحرية العثمانية " قبودان باشا" ، مع الاستمرار في منصبه كبيرلبك للجزائر.

سادساً : أثر ليبانتو على أوروبا والدولة العثمانية:

احتفلت القارة الأوربية بنصر ليبانتو ، فلأول مرة منذ أوائل القرن الخامس عشر تحل الهزيمة بالعثمانيين فهلل الأوروبيون وكبروا لذلك الانتصار وأقيمت معالم الزيناتفي كل مكان وأفرطت في التسبيح بحمد دون جون أمير الأساطيل المتحدة الذي أحرز هذا الانتصار ، إلى حد أن البابا لم يتورع عن القول أثناء الاحتفال في كنيسة القديس بطرس ، بمناسبة هذا النصر) : إن الإنجيل قد عنى دون جون نفسه ، حيث بشر بمجيء رجل من الله يدعى حنا) وظل العالم المسيحي ومؤرخوه ينوهون بهذا النصر البحري ، حتى أن القواميس المدرسية الحديثة لا تذكر ثغر ليبانت ، إلا وتذكر معه دون جون المشار إليه على اعتبار أنه أنقذ المسيحية من خطر كان يحيق بها.

لقد فرح البابا فرحاً عظيماً على الرغم من عدم ارتياحه لأن عدوه لا يزال عظيماً مرهوب الجانب وحاول إثارة شكوك الشيعة الاثنى عشرية الصفوية ضد العثمانيين مستغلاً بعض الضغائن والمشكلات والاختلاف العقائدي ، فأرسل إلى الشاه طهماسب ملك العجم ومن جملة ما قال له : "لن تجد أبداً فرصة أحسن من هذه الفرصة لأجل الهجوم على العثمانيين ، إذ هم عرضة للهجوم من جميع الجهات". وأرسل يستعدي ملك الحبشة وإمام اليمن على الدولة العثمانية ولكن المنية عاجلته.

إن نتيجة معركة ليبانتو ، كانت مخيبة لآمال العثمانيين ، فقد زال خطر السيادة العثمانية في البحر المتوسط ، ومع زوال الخطر زال الخوف الذي كان قوياً ، للمحافظة على حلف مقدسي دائم واستعاد الحسد والغيرة نشاطه بين الدول المسيحية.

إن أهمية ليبانتو كانت عظيمة وأسطورة عدم قهر العثمانيين قد اختفت ولم تعد للوجود ثانية على أقل تقدير في البحر ، وأزيح ذلك الخوف عن قلوب حكام إيطاليا ، وأسبانيا ، وتزعزع تأثير ا لدولة العثمانية على سياسة القوى الغربية لأوروبا ، إذ كانت من الحقيقة القوات العثمانية هائلة في كل المجال البري ، والمجال البحري ، كما أن الانتصار المسيحي في ليبانتو ٥٧١ كان إشارة لتحضير حاسم في ميزان القوة البحرية في البحر المتوسط ، كما أنه أنهى عصراً من عصور العمليات البحرين الطموحة في البحر المتوسط ، والتي تكاليفها باهظة.

لم يعد يفكر العثمانيون تلك الهزيمة في إضافة حلقة أخرى إلى سلسلة أمجادهم البحرية ، إذ كان هذا الانكسار نقطة البداية نحو توقف عصر الازدهار لقوة الدول البحرية.

سابعاً : ظهور أطماع فرنسا في الشمال الأفريقي:

كانت معركة ليبانتو فرصة مواتية لإظهار طمع فرنسا نحو المغرب الإسلامي ، إذ بمجرد انتشار خبر هزيمة الأسطول العثماني في تلك المعركة قدم ملك فرنسا شارل التاسع مشروعاً إلى السلطان العثماني (٩٨٠هـ/١٥٧٢م)، وذلك بواسطة سفيره باسطنبول ، يتضمن طلب الترخيص لحكومته في بسط نفوذها على الجزائر ، بدعوة الدفاع عن حمى الإسلام والمسلمين بها وأن فرنسا مستعدة في مقابل ذلك دفع مغرم للباب العالي ، فأعرض السلطان عن السفير الفرنسي ولم يهتم به ، ومع ذلك أوغلت فرنسا طموحها وألحت على طلبها وسلكت للتوصل إلى هدفها مسالك دبلوماسية عديدة ، حتى تحصلت على امتيازات خاصة ، في السقالة وأماكن أخرى على الساحل الجزائري وتصريح من السلطان بإقامة مراكز تجارية.

ثامناً: إعادة بناء الأسطول العثماني:

قبل القبودان باشا قلج علي ، بهمة ونشاط متزايد ، على تجديد الأسطول العثماني ، وتعويض ما فقد منه ، وما حل صيف ٩٨٠هـ/٥٧٢ م ، و هيأ مائتان وخمسون سفينة جديدة ، وخرج قلج علي بأسطوله في البحر ، وارتاعت البندقية من هذا الاستعداد البحري ، فطلبت الصلح من الدولة العثمانية بشروط مخزية إذ تنازلت لها عن جزيرة قبرص ، كما دفعت غرامة حربية قدرها ثلاثمائة ألف دوكه ، ولكن هذا النشاط كان من قبيل اليقظة التي تسبق فترة الاحتضار البحري ذلك لأن الدولة انصرفت إلى حروب متواصلة ، نشبت بينها وبين النمسا وحليفاتها من جهة ، وبينها وبين فارس من جهة أخرى كما أنها انشغلت بإخماد الثورات الداخلية المستمرة.

تاسعاً : احتلال تونس:

كان فيليب الثاني قد تشجع لاحتلال تونس بسبب لجوء السلطان الحفصي أبي العباس الثاني الذي حكم تونس ٩٤٢ـ ٩٨٠ / ١٥٣٥ ـ ٥٧٢ م إليه ، وطلب منه المساعدة في إخماد الثورات بإعطائهم امتيازات كبيرة ، وتتيح لهم سكنى جميع أنحاء تونس ، وتتنازل عن عناية وبنزرت وحلف الواد فرفض أبو العباس الشروط ولكن أخاه محمد بن الحسين قبلها ، بعد ذلك خرج دون جون بأسطوله من جزيرة صقلية في رجب ٩٨١هـ أكتوبر ١٥٧٣م ، على رأس أسطول مكون من ١٣٨ سفينة تحمل خمسة وعشرون ألف مقاتل ، ونزل بقلعة حلق الواد التي كانت تحتلها أسبانيا ، ثم باغت دون جون تونس واحتلها وخرج أهلها بوادي تونس فارين بدينهم من شر الأسبان ، كما انسحب الحاكم العثماني إلى القيروان وكانت أوروبا قد أدركت أنها لا تستطيع أن تقضي على الدولة إلا مجتمعة.

عاشراً : قلج علي واستعداداته الحربية :

اهتم قلج علي بتسليح البحارة وتدريبهم على الأسلحة النارية الحديثة ، وقد لفت هذا النشاط البحري أنظار كل المقيمين الأجانب وازدادت مكانة قلج علي حتى أن البابا نصح فيليب الثاني ملك أسبانيا أن يسعى لإغرائه وذلك بمنحه راتباً من عشرة آلاف وإقطاعية من مملكة نابلس أو غيرها من ممتلكات العرش الأسباني ويتوارثها نسله من بعده ، مع لقب كومت أو ماركيز أو دوق ، كما شمل المشروع أيضاً منح امتيازات مماثلة لاثنين من مساعديه.

وكان البابا يدرك أن مثل هذه المحاولة إن لم تنجح فإنها على الأقل ستثير شكوك السلطان على قلج علي وهو الشخص الوحيد القادر على دعم أمور السلطنة ولكن هذه المحاولة فشلت وكانت النتيجة أنها أثارت غضب قلج علي بدلاً من أن تقربه ، وأنه لا يمكن شراء أمانة المسلم المجاهد إذ أن وجوده في خدمة الدولة ، إنما كان يعني أنه وهب نفسه لسبيل الله ، وهذا ما سارت عليه الدولة في سياستها في جميع فتوحاتها ، و لعل ذلك كان سبباً مباشراً في سرعة الفتح ونجاحه ، في كل الأقاليم والميادين التي طرقتها الدولة وكان العثماني في أي موقع يخدم الدولة بكل إخلاص وما خدمته تلك إلا خدمة للإسلام.

الحادي عشر : السلطان سليم يصدر أوامره لإعادة تونس :

أصدر السلطان سليم الثاني أوامره إلى وزيره سنان باشا وقبودانه قلج علي بالاستعداد للتوجه إلى تونس ، لفتحها نهائياً ، وإعادة نفوذ الدولة العثمانية إليها ، كما صدرت نفس الأوامر والتوجيهات لبقية الأقاليم بتحضير الجنود والذخيرة ، والمؤن والجنود مع مائتين وثلاث وثمانين سفينة مختلفة الأحجام ، كما أكد على المكلفين بالخدمة في الأناضولي والروم يلي بالاشتراك في السفر بحراً ، كما أحضر المجدفين اللازمين للأسطول ، وأنذر من لا يحضر من المجدفين بالفصل من مناصبهم على أن لا يسند إليهم في المستقبل أي عمل ، وبينما كما الأسطول يتأهب، أخذ حيدر باشا الحاكم العثماني في تونس والذي انسحب للقيروان في حشد المجاهدين من الأهالي الذي التفوا حوله.

أبحر الأسطول العثماني بقيادة سنان باشا وقلج علي في ٢٣ محرم ٩٨٢هـ/١٤ مايو ١٥٧٤م ، فخرج من المضائق ونشر أشرعته في البحر الأبيض ، فقاموا بضرب ساحل كالابريا ، مسينا ، واستطاع العثمانيون أن يستولوا على سفينة مسيحية ومن هناك قطعوا عرض البحر في خمسة أيام ، في هذا الوقت وصل الحاكم العثماني في تونس حيدر باشا ، كما وصلت قوة من الجزائريين بقيادة رمضان باشا ، وقوة طرابلس بقيادة مصطفى باشا ، كما وصل ثمة متطوعين من مصر.

بدأ القتال في ربيع سنة ٩٨١هـ/١٥٧٤م ، ونجح العثمانيون في الاستيلاء على حلق الواد ، بعد أن حوصروا حصاراً محكماً ، وقامت قوات أخرى بمحاصرة مدينة تونس ، ففر الأسبان الموجودون فيها ومعهم الملك الحفصي محمد بن الحسين إلى البستيون – قلعة بناها الأسبان بجانب تونس - التي بالغ الأسبان في تحصينها وجعلوه من أمنع الحصون في الشمال الأفريقي.

توجه العثمانيون بعد تجمع قواتهم إلى حصار البستيون ، وضيق العثمانيون الخناق على أهلها من كل ناحية ، وباشر الوزير سنان الحرب بنفسه كواحد من الجند حتى أنه أمر بعمل متراس يشرف منه على قتال من في البستيون ، كما كان ينقل الحجارة والتراب على ظهره مثل الجنود ، فعرفه أحد أمراء الجنود فقال له : ما هذا أيها الوزير ؟ نحن إلى رأيك أحوج منا إلى جسمك ، فقال له سنان : لا تحرمني من الثواب.

وشدد سنان باشا في حصاره على البستيون حتى استطاع فتحه.

لجأ الحفصيون إلى صقلية حيث ظلوا يوالون الدسائس والمؤمرات والتضرعات لملوك أسبانيا سعياً لاسترداد ملكهم ، واتخذهم الأسبان آلات طيعة تخدم بها مآربهم السياسية حسبما تمليه الظروف عليهم ، وقضى سقوط

تونس على الآمال الأسبانية في أفريقيا وضعفت سيطرتها تدريجياً حتى اقتصرت على بعض الموانئ مثل مليلة ووهران والمرسى الكبير ، وتبدد حلم الأسبان نحو إقامة دولة أسبانية في شمال أفريقيا وضاع بين الرمال.

الثاني عشر : السلطان سليم الثاني يرسل حملة كبرى إلى اليمن :

اضطربت الأحوال في اليمن مع ظهور الزعيم الزيدي المطهر الذي كاتب أهل اليمن ودعاهم للخروج عن طاعة السلطان العثماني فاجتمعت القبائل لدى المطهر الذي دخل صنعاء بعد أن ألقى بالعثمانيين هزيمة ساحقة ، وشعرت الحكومة العثمانية بخطورة الموقف وقررت إرسال حملة كبرى إلى اليمن بقيادة سنان باشا ، وقد اهتم السلطان العثماني سليم الثاني اهتماماً كبيراً بإر سال تلك الحملة ، لأن اليمن كان يمثل جزءاً هاماً من استراتيجية العثمانيين في البحر الأحمر وهي غلق هذا البحر أمام الخطر البرتغالي ، علاوة على ذلك يكون درعاً قوياً للحجاز وقاعدة للتقدم في المحيط الهندي.

وصل الوزير العثماني سنان باشا إلى مصر تنفيذاً لأوامر السلطان ، وهناك اجتمعت لديه الجنود في كافة الأنحاء ، حتى أنه لم يبق في مصر إلا المشايخ والضعفاء.

تحركت الحملة ووصلت إلى ينبع واستقبله هناك قاضي القضاة في مكة وعند وصوله إلى مكة المكرمة استقبله أهلها ودخلت الجيوش العثمانية معه ، وكأن جنود مصر انتقلت إلى مكة بالإضافة إلى جنود الشام وحلب وفرمان ومرعش ، وضبط سنان باشا الجنود ، وأجرى الصدقات وأحسن على العلماء والفقهاء ، ومكث عدة أيام في مكة وغادرها إلى جازان ، وعندما اقترب منها ، هرب حاكمها من قبل الإمام الزيدي المطهر ، وأقام سنان باشا في جازان ، فأقبلت عليه العربان يطلبون الطاعة وكان منهم أهل صبيا فأكرمهم سنان باشا وخلع عليهم وكساهم ، كما أقبلت عليه وفود عربان اليمن وبذلوا الطاعة طالبين الأمان.

أسرع سنان باشا إلى تعز ، بعد أن ضبط جازان إذ بلغه أن الوالي العثماني في تعز ومن معه من الجنود في ضيق من أمرهم بسبب قطع عرب الجبال عليهم الميرة ، وحصل عليهم المجاعة ، فقطع الوزير سنان باشا المسافة في غاية السرعة ، ونزل خارج تعز ، وانتشر جنوده في جبالها ، ولما شاهد الزيديون كثافة ذلك الجيش ، اعتصموا بأحد الجبال المسمى الأغبر.

قام سنان باشا وجزء من جيشه بمتابعة الزيود في جبل الأغبر ، وتمكنوا منه عند ذلك خرج الزيود من مخابئهم لمواجهة العثمانيين ، فانهزم الزيود وولوا هاربين فأنعم سنان باشا على جميع الجنود العثمانيين.

الثالث عشر : الاستيلاء على عدن :

جهز سنان باشا حملتان وذلك للاستيلاء على عدن ، الأولى عن طريق البحر بقيادة خير الدين القبطان المعروف بقورت أوغلي ، وأخو سنان باشا ، والثانية عن طريق البر بقيادة الأمير حامي وبرفقته عدد من الفرسان.

وكان حاكم عدن قاسم بن شويع من قبل الإمام الزيدي المطهر ، قد أظهر شعار الزيدية ، فكرهه أهالي عدن لأنهم شافعيون ثابتون على الكتاب والسنة ، وبنى مدرسة باسم مطهر يدرس فيها بعض من مذهب الزيدية ، كما استدعى البرتغاليين الذين أرسلوا سفينة وعليها عشرين جندياً ، فأطلعهم قاسم إلى القلعة وأراهم ما فيها من العدد والآلات وأعطاهم المدافع ليدفعوا عن عدن من جهة البحر ويكون البر للزيدية وأشياعهم ، إلا أن خير الدين القبطان سبق إلى عدن ورأى من وسط البحر عشرين شراعاً للمسيحيين قاصدة عدن ، ولما تحقق خير الدين من ذلك توجه بسفنه إليهم فولوا هاربين ، وتتبعهم خير الدين حتى اطمأن على ذلك.

لما عاد خير الدين إلى الساحل وأنزل مدافعه فوجهها نحو قلعة عدن منتظراً القوة البرية لتتم محاصرة عدن ففاجأهم الزيود ، وإذا بالأمير ماحي قد وصل وأحاطوا بعدن من كل جوانب ، فهجموا عليها هجمة واحدة

ودخلوا عليها من كل جانب ، وأعطى خير الدين الأمان للأهالي الذين جاءوا بقاسم بن شويع وولده وذويه ، وإذا بشخص منهم تقدم ليقبل يد خير الدين ، فضربه بخنجر في بطنه وجرح خير الدين على أثرها ، وتقدم الأمير ماحي ، وقطع رأس بن شويع لاتهامه بهذه الخيانة وأراد قتل ولده وجميع أتباعه فمنعه الأمير خير الدين عند ذلك ، فرح لذلك الفتح الوزير سنان باشا وشاركه في ذلك الجنود وزينوا زبيد وتعز وسائر الممالك السلطانية في اليمن ، ثم عين الوزير سنان باشا ابن أخته الأمير حسين ، وأرسل معه مائتين من الجنود ، ورقى جميع الجنود الذين فتحوا عدن.

الرابع عشر : دخول صنعاء :

فرغ سنان باشا في هذا الوقت من جنوب اليمن ، فاتجه نحو ذمار وأمر بسحب المدافع لحصار صنعاء ، فجهز المطهر نفسه للانسحاب منها ، ونقل ما فيها من الخزائن ، وتقدم سنان باشا نحو صنعاء بعد أن وعد أهلها بالأمان فاطمأنت قلوبهم واختاروا عدداً منهم لمقابلته ، فأكرمهم سنان ودخل صنعاء بعد ذلك إلا أنه لم يستقر فيها بل نهض بجيوشه الجرارة لحرب كوكبان وثلا ؛ لأن سنان باشا رأى أنه لن يتمكن من السيطرة على اليمن بأكمله إلا بالقضاء على مقاومة المطهر وأتباعه فأخذ يوالي حشد قواته وتبعه في ذلك الوالي العثماني ودامت الحرب سجالاً ما يقرب من عامين ، انتهت بموت الإمام الزيدي المطهر في مدينة ثلا سنة ٩٨٠هـ/١٥٧٣م ، وقد أتاح موت المطهر للعثمانيين مزيداً من السيطرة وبسط النفوذ حتى تمكن الوالي العثماني حسن باشا من الاستيلاء على ثلا ومدع وعفار وذي مرمر والشرفين الأعلى والأسفل وصعدة مركز الإمامة الزيدية فقضى بذلك على حركة المقاومة اليمنية فترة من الوقت ، واستطاع حسن باشا أن يأسر الإمام الحسن بن داود الذي استحوذ على الإمامة بعد وفاة المطهر.

لقد تحولت سياسة الدولة العثمانية بعد معركة ليبانتو ٩٧٩هـ/١٥٧١م إلى أن تكون الأولوية للمحافظة على الأماكن المقدسة الإسلامية أولاً ثم البحر الأحمر والخليج العربي كحزام أمني حول هذه الأماكن وتطلب ذلك منها أسطولاً قادراً على أن يقاوم البرتغاليين.

استطاعت الدولة العثمانية أن تبني درعاً قوياً ، حمى الأماكن المقدسة الإسلامية من الهجمات المسيحية ، ومع ذلك الدرع فقد احتفظ السلطان بحرس عثماني خاص في مكة المكرمة والمدينة المنورة وينبع ، كما أقامت الدولة العثمانية محطات حراسة بجوار آبار المياه على طول الطريق بين مصر وسوريا ومكة المكرمة لحماية القوافل ، كما قررت الدولة أن يكون الوالي في جدة ممثلاً للباب العالي في الحجاز ، عرف الحجاز في العصر العثماني بثنائية السلطة ، وقررت الدولة أن تقسم حصيلة الرسوم الجمركية التي تجمع من السفن في ميناء جدة بين الوالي العثماني وشريف مكة المكرمة.

الخامس عشر : دفاع عن السلطان سليم ووفاته رحمه الله :

وصف المستشرق "كارل بروكلمان " السلطان سليم الثاني بأنه اشتهر باسم السكير ، وبارتكابه المعاصي والذنوب والكبائر ، وبمصاحبته صحبة السوء والفسق والعصيان ، وتأثر بهذه التهم الدكتور عبد العزيز الشناوي رحمه الله ، ورد الدكتور جمال عبد الهادي على هذه الاتهامات فقال :

١- شهادة الكافر على المسلم مردودة ، فكيف يسمح الكتاب من أبناء المسلمين لأنفسهم بترديد مثل هذه الشهادات والافتراءات على الحكام المسلمين بدون دليل ، ألم يتعلموا في مدرسة الإسلام قال تعالى : (لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً) (سور النور : آية : ١٢) ويقول سبحانه : (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) (سورة الحجر ، آية : ٦).

٢- إن المستشرقين ومن سار على نهجهم ، دأبوا على تصوير الحكام المسلمين المجاهدين بصورة السكارى الذين لا يتورعون عن ارتكاب المحرمات ، بل دأبوا على النيل من دين الله ، والأنبياء والرسل – عليهم السلام – فكيف نأخذ عنهم مع علمنا بأنهم غير أمناء.

ثم ذكر أهم أعمال السلطان سليم الثاني التي تدل على نفي التهم التي ألصقت به وتقدم بنصيحة إلى أساتذة التاريخ الذين لا يتحرون الصدق والأمانة العلمية فقال : "نصيحة إلى أولئك الذين لا يتحرون الحقيقة ، ويرمون الناس في دينهم وخلقهم دون بينة أو دليل ، أن يتبينوا وليضعوا في الاعتبار أن القذف جريمة ، وعليه تقام الحدود ، آمل أن ينتبه أساتذة التاريخ ويتورعوا على إيراد أي شبهة أو تهمة تتصل بأي شخص دون دليل أو بينة.

وليضعوا في الاعتبار أن الله يزن الحسنات ، ويزن السيئات ، ولا يزن السيئات فقط دون الحسنات ، والمؤرخ يجب أن يستشعر هذا ، ويدرك أن الكلمة أمانة وهي شهادة أمام الله عز وجل ، ومن هنا يلزمه التأكد من الخير قبل أن يورده في كتابه).

إن الدارس لتاريخ الدولة العثمانية في عهد السلطان سليم الثاني يدرك مدى القوة والهيمنة التي كانت عليها الدولة فطلب نائب البندقية الصليبية في " استانبول" – في أعقاب معركة ليبانتو ، وتحطم الأسطول العثماني مقابلة الصدر الأعظم ، "محمد صوقلو باشا" ليسبر غوره ويقف على اتجاهات السياسة العليا للدولة العثمانية تجاه البندقية ، وقد بادره الصدر الأعظم قائلاً : إنك جئت بلا شك تتحسس شجاعتنا وترى أين هي ، ولكن هناك فرق كبير بين خسارتكم وخسارتنا ، إن استيلاءنا على جزيرة "قبرص" كان بمثابة ذراع قمنا بكسره وبنزه ، وبإيقاعكم الهزيمة بأسطولنا لم تفعلوا شيئاً أكثر من حلق لحانا ، وإن اللحية لتنمو بسرعة وكثافة تفوقان السرعة والكثافة اللتين تنبت بهما في الوجه لأول مرة. وقد قرن الصدر الاعظم قوله بالعمل الفوري الجاد.

وإنصافاً للسلطان سليم الثاني فإنه قد أبدى تحمساً شديداً لإعادة بناء الأسطول العثماني ، فقد تبرع بسخاء من ماله الخاص لهذا الغرض ، كما تنازل عن جزء من حدائق القصر السلطاني لتبني فيه أحواض السفن للتعجيل بإنشاء وحدات بحرية جديدة ، واستطاع الأسطول الجديد أن يعاود جولاته في البحر المتوسط.

إن هذا الموقف يؤكد أن الإدارة القوية ليست مجرد حماس ، وإنما لا بد وأن يقترن ذلك بالعمل الجاد الذي أثمر إعادة بناء الأسطول في فترة وجيزة ، وفي هذا دليل أيضاً على الرخاء الذي كانت تعيش فيه الأمة ، ما فرضت الضرائب وما صودرت أموال ، ولا قالوا موتوا جوعاً لأنه صوت لا يعلو على صوت المعركة ، لقد أنفق السلطان سليم من ماله ومال أسرته لأنه تعلم من مدرسة الإسلام ، قال تعالى : (وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون) (سورة الأنفال : آية : ٦٠).

وفاته :

إن مؤرخي الغرب(لعنهم الله) ذكروا أن سبب وفاة السلطان سليم الثاني الإفراط الشديد في تناول الخمر ، إلا أن المؤرخين المسلمين يذكرون أن سبب وفاته انزلاق قدمه في الحمام فسقط سقطة عظيمة مرض منها أيام ، ثم توفي عام ٩٨٢هـ.

****

سلاطين الفترة العثمانية

مراد خان الثالث

ولد مراد الثالث ابن السلطان سليم الثاني في مانيسا عام ٩٥٣هـ) ١٥٤٦م). نال تعليماً جيداً على يد بعض العلماء، ومن أشهرهم سعد الدين أفندي، وإبراهيم أفندي. وقد أخذ منهم العلوم السائدة في عهده. غير أن اهتمامه الكبير كان بالأدب. كتب أربعة دواوين، اثنان منها باللغة التركية، وأحدها باللغة الفارسية وآخرها باللغة العربية-، مما يدل على إتقانه للغتين العربية والفارسية على نحو متميز، يمكنه من نظم الشعر بهما .

ولما بلغ مراد الثالث سن الخامسة عشرة، عين والياً على مانيسا، فتعلم فيها الأمور الإدارية. وجلس على عرش الملك عام ٩٨٢هـ). وكان عمره تسعة عشر عاماً. جدد العهود مع دول الإفرنج. ووقعت في عهده بعض المعارك مع المجر، فاستولى على بعض قلاعها، وضمها إلى ولاية البوسنة .وأخضع بعض المناطق في شمال المغرب العربي مثل الجزائر والمغرب للدولة العثمانية عام984 هـ. كما وقعت في عهده بعض المعارك مع الإيرانيين، وفتح بعض المناطق من جورجيا مثل تفليس وذلك عام ٩٨٦هـ). ومنح بعض الامتيازات الأجنبية لفرنسا. ولما استأنف الإيرانيون الحرب ضد الدولة العثمانية، تصدت لها القوات العثمانية، وهزمتها، وانتزعت منها ولايتي شروان وداغستان- .كما وقعت في عهده حرب طاحنة مع النمسا،استمرت ثلاث عشرة سنة. غير أنه لم يسجل تقدم يذكر في هذا الصدد .

من أهم الأعمال، التي أنجزت في عهده، القضاء على النفوذ البرتغالي في المغرب، وضم بعض المناطق إلى الدولة. ويذكر أن السلطان مراداً الثالث أكثر السلاطين العثمانيين جرياً وراء النساء. إذ أنه لما توفي عام ١٠٠٣هـ) إثر مرض فجائي، كان له من الأولاد مائة وثلاثة عشر. أهمهم: سليم، وبايزيد، ومصطفى، وقرقود، وعبدالرحمن، وعبدالله، ومحمد، وعلي، وإسحاق، ومراد، وعمر، وعلاء الدين .. إلخ- .

محمد الثالث ابن السلطان مراد الثالث

ولد محمد خان الثالث ابن السلطان مراد الثالث في مانيسا عام974 هـ) نال تعليماً جيداً على يد المؤرخ سعد الدين أفندي. وكان مولعاً بالشعر مثل أجداده. واستخدم لقب" عدلي "في أشعاره"- .

تولى الملك في عام ١٠٠٣هـ (بعد وفاة والده باثني عشر يوماً. وحال جلوسه أصلح الأحوال المختلفة في داخل السلطنة، وعزل بعض رجال الدولة، ونصب مكانهم من وجد فيهم الإخلاص والأهلية. نشب في عهده العديد من المعارك مع الأفلاق وبغداد ثم مع المجر والنمسا- .واستولى على مدينة بوخارست. غير أن جيوش الدولة انهزمت في يركوكي. وبناءً على ذلك فقد ذكر سعد الدين أفندي للسلطان محمد أن الأسباب، التي تكمن وراء الهزائم العسكرية لجنود الدولة العلية، عدم مشاركة السلطان للحرب بنفسه. فاقتنع بذلك وطفق يشن المعارك بنفسه، فاستولى على قلعة أكري، وانتصر في موقعة" خاج أوه" عام ١٠٠٤هـ) غير أن سرعة عودته إلى إستانبول حال دون الحصول على نتائج ملموسة من ذلك الانتصار. ووقعت في عهده التمردات المعروفة في التاريخ العثماني بـ"التمرد الجلالي". كما أن شاه إيران أخل بالمعاهدة المبرمة بينه وبين الدولة العثمانية، وأعلن الحرب عليها عام ١٠١١هـ .(ولكن المنية وافته قبل أن يطفئ نار الحرب بينه وبين إيران توفي، وذلك عام1012 هـ). ودفن بجانب مسجد آياصوفيا- .وكان عمره آنذاك ثمانية وثلاثين عاماً. وقد حكم الدولة العثمانية ثماني سنوات- .

ويعد السلطان محمد الثالث آخر السلاطين العثمانيين، الذين خرجوا إلى السناجق لقضاء فترة معينة من التدريب على الشؤون الإدارية. كان طبيب القلب، وكثير التأثر بالغير. وكان له من الأولاد ستة، هم: محمود، وأحمد، وسليم، ومصطفى، وسليمان، وجهانكير- .

أحمد ابن السلطان محمد الثالث

ولد أحمد الأول ابن السلطان محمد الثالث في مانيسا عام ٩٩٨هـ). درس على يد معلم سلطان ومصطفى أفندي من علماء ذلك العصر. ومع صغر سنه كان يبهر أساتذته بذكائه. وقد بدأ نظم الشعر في سن صغيرة نسبياً. واستخدم في الشعر اسم" بختي"- .

جلس أحمد الأول على عرش السلطنة عام ١٠١٢هـ (وكان عمره آنذاك أربعة عشر عاماً. جرت في عهده عدة حروب مع الفرس ومع النمسا، إلى أن أبرمت معاهدة مع ملك النمسا لمدة عشرين سنة، وذلك عام ١٠١٥هـ))، كما عقدت معاهدة مماثلة مع الفرس عام1021 هـ)، فقدت الدولة العثمانية بموجبها كل ما ضمه السلطان سليمان القانوني إلى أراضي الدولة، وكان ذلك بداية تراجع للدولة العثمانية- .
وقعت في هذا العهد بعض الاضطرابات الداخلية من الإنكشارية، وأمراء بعض المناطق. فتم إخمادها. وجددت الدولة في عهده أيضاً امتيازات مع فرنسا وإنجلترا، وحصلت هولندا على مثلها. كما جددت الاتفاقية مع بولونيا، بحيث تمنع الدولة تتار القرم من التعدي على أراضي الدولة العثمانية- .

أصيب السلطان أحمد في عام ١٠٢٦هـ) بحمّى خبيثة أودت بحياته. كانت مدة ملكه أربع عشرة سنة. ولما توفي كان عمره ثمانية وعشرين عاماً .وكان معروفاً بتدينه وصلاحه؛ وقد منع الخمر منعاً باتاً على أراضي الدولة العثمانية. كما قضى على نفوذ الحريم على السلطان. وخالف أسلافه من السلاطين في قتل إخوانه، خوفاً من الصراع على الحكم. وقد أوصى بالحكم لأخيه مصطفى قبل موته. وأكبر الآثار العمرانية، التي قام بتشييدها هو الجامع الذي سمي باسمه، وقد استمر العمل فيه سبع سنوات متواصلة- . كما أنشأ بعض المدارس- .وكان له من الأولاد عشرة، هم: بايزيد، وسليمان، وقاسم، ومراد، وعثمان، وعائشة، ومحمد، وفاطمة، وإبراهيم، وعاتكة- .

مصطفى الأول ابن السلطان محمد الثالث

ولد مصطفى ابن السلطان محمد الثالث في عام ٩٩١هـ .

قضى أربع عشرة سنة من عمره محجوزاً بين الجواري والحريم، خوفاً من تدخله في شؤون الدولة. ولهذا السبب فإنه لم يعرف شيئاً من أمور الحكم والإدارة عندما آل إليه عرش السلطنة عام ١٠٢٦هـ 1617)م). ونظراً لتدهور وضعه العقلي، فقد عزل من منصبه بعد ثلاثة أشهر من توليه الحكم. ثم رقي سدة الحكم للمرة الثانية في عام ١٠٣٠هـ1622) م)، بعد مقتل ابن أخيه عثمان، إلا أنه لم يستطع إخماد التمردات الداخلية، التي فرّغ لأجلها خزينة الدولة. ولهذا فقد اجتمع أركان الدولة في قصر الصدر الأعظم علي باشا، وقرروا تنحية السلطان مصطفى عن الحكم وحبسه، وتنصيب الأمير مراد. فأُزيح السلطان مصطفى عن الحكم عام ١٠٣١هـ01623) م (.وقضى بقية حياته محبوساً في إحدى مقصورات القصر حتى عام ١٠٤٨هـ1638) م)، حيث توفي فيها، ودفن بالقرب من جامع آياصوفيا- .

عثمان الثاني ابن السلطان أحمد الأول

ولد عثمان ابن السلطان أحمد الأول عام ١٠١٣هـ). واعتلى عرش السلطنة بعد عزل عمه مصطفى من الحكم عام1026 هـ .

وكان أول عمل قام به هو إبرام معاهدة صلح مع الفرس ، قضت بإيقاف الحرب المستعرة بين الطرفين منذ فترة طويلة. وجرت في عهده بعض المعارك مع بولونيا والأفلاق والبغدان، وشارك السلطان بنفسه في الحرب. فحاربهم بالقرب من قلعة خوتن عام1030 هـ)وقد سعى لإلغاء الإنكشارية من نظام الدولة العثمانية، نظراً لما تسببه من مشاكل للدولة. وأوعز إلى أركان الدولة أنه يريد أداء فريضة الحج، وذلك بغية جمع القوات من الأناضول وسوريا ومصر، لمساندته في الوقوف أمام الإنكشارية- .ففقد عرشه أولاً، ثم فقد حياته ثانياً. وذلك بعد أربع سنوات من الحكم. فدفن بالقرب من والده. وكان عمره آنذاك ثمانية عشر عاماً- .

كان سريع الحركة في استخدام السلاح وفي ركوب الخيل. غير أنه كان قليل التجربة في شؤون الدولة. وعلى الرغم من رغبته الشديدة في إجراء الإصلاحات اللازمة في مختلف أنظمة الدولة العثمانية، إلا أن سنه وظروف ومحيطه الذي نشأ فيه لم يكن معيناً له في ذلك. كان قاسياً في تعامله مع رجال الدولة، مما أدى إلى نفورهم منه .كان له من الأولاد ثلاثة فقط، هم: عمر، ومصطفى، وزينب- .

مراد ابن السلطان أحمد الأول

ولد مراد الرابع ابن السلطان أحمد الأول في إستانبول عام ١٦١٢م. نشأ في قصر طوب قابي لدى والدة السلطان. ودرس على عادة الأمراء العثمانيين، على يد أشهر الأساتذة في عهده. تعلم الشعر والخط تعلماً جيداً. وقد شاهد الأحداث الدامية في عهده، مثل مقتل أخيه السلطان عثمان، وخلع عمه السلطان مصطفى. ولذلك فقد كان يراقب الأحداث عن كثب، ويتخذ منها عبراً وعظات- .على الرغم من صغر سنه .

آل إليه زمام أمور الدولة العثمانية عام ١٠٣٢هـ(١٦٢٣م) وكان له من العمر أحد عشر عاماً. ولذلك فقد وقع تحت تأثير والدته ورجال الدولة في تسيير شؤون البلاد .وكانت الأوضاع الداخلية والخارجية في عهده سيئة للغاية؛ إذ إن الإنكشارية كانوا يتمرّدون بين الحين والآخر من جهة، وقام الأمير فخر الدين المعني الدرزي بثورة في لبنان، وكان يريد الاستيلاء على الشام من جهة ثانية، واندلعت الحرب في العراق مع الفرس من جهة ثالثة-، وتمرد اثنان من خانات القرم على الدولة من جهة رابعة- .وكان على السلطان مراد أن يواجه كل تلك التحديات .

ولما بلغ الواحدة والعشرين، استطاع إبعاد والدته عن أمور الدولة، وقضى على رؤوس المتمردين من السباهية والإنكشارية، وتوجه بنفسه لمحاربة الفرس. فدخل إلى بغداد عنوة، واستردها منهم عام ١٠٤٨-١٠٤٩هـ1639-1638) م). وعقب ذلك عقد معاهدة مع الفرس في قصر شيرين، مُنهياً بذلك الحرب المستعرة بين الطرفين. وقد توفي السلطان بعدما رجع إلى إستانبول بفترة وجيزة، وذلك عام ١٠٤٩هـ(.عاش ثمانية وعشرين عاماً، قضى منها في سدة الحكم سبع عشرة سنة .

كان محباً للشعر وويقرضه، ويحب جلسات الأدب. وكان يحب ركوب الخيل والبذخ .كانت فترة حكمه زاهرة للغاية، نظراً لقوة شخصيته، وجديته في أمور الدولة. وقد نُسب ذلك النجاح، الذي أحرزه في حكمه إلى قيامه بإعدام أكثر من عشرين ألف شخص- .

وكان له من الأولاد سبعة، هم: رقية، وعلاء الدين، وجوهر سلطان، وصفية، ومحمد، وقايا، وحفيظة- .

إبراهيم ابن السلطان أحمد

ولد إبراهيم ابن السلطان أحمد في إستانبول عام ١٠٢٤هـ. وكان يُعد عند توليه مقاليد الحكم العثماني آخر أمير عثماني على قيد الحياة. إذ أن السلطان مراد توفي دون أن يعقب ذكوراً، ولم يبق بعد موته من آل عثمان سوى أخيه إبراهيم. وكان له من العمر، أثناء ذلك خمس وعشرون سنة. قضى معظمها سجيناً في غرفة خاصة بالقصر. ولهذا فقد كان دائماً متوتر الأعصاب، وأُشيع عنه الجنون. وإن لم تظهر منه بوادر تدل على ذلك- .

من أهم الأحداث، التي جرت في عهده، بدء الحرب مع أهالي جزيرة كريت، بسبب تعدِّيهم على سفن الدولة العثمانية عام ١٠٥٥هـ1645) م). وعلى الرغم من فتح العديد من قلاعها، إلاّ أن الحرب استمرت خمساً وعشرين سنة، وسرت إلى البندقية أيضاً- .وانزعج أركان الدولة من استمرار هذه الحرب، كما انزعج الناس من بعض الضرائب التي فرضت على الناس. وانتشرت الرشاوي والالتماسات في هذا العهد. واجتمع أركان الدولة بشيخ الإسلام واستصدر منه فتوى بخلع السلطان، فعُزل، وأُودع في محبسه من جديد، ثم قُتل، بعد مدة وجيزة، في عام ١٠٥٨هـ1648) م .(

أهم خاصية تذكر لهذا السلطان أنه لم يكن هناك أحد من نسل آل عثمان لما آل إليه الحكم. وكان له من الأولاد أحد عشر، هم: سليمان، ومحمد، أورخان، وأحمد، ومراد، وعاتكة، وبيخان، وعائشة، وعثمان، وبايزيد، وجهانكير- .

محمد الرابع ابن السلطان إبراهيم

ولد محمد الرابع ابن السلطان إبراهيم عام ١٠٥١هـ وقد اعتلى عرش السلطنة وعمره آنذاك سبع سنوات، فقد كان والده الوريث الوحيد للملك في الدولة العثمانية. ومن ثم آل أمر الدولة قد آل إلى والدة السلطان، وإلى رجال القصر، والإنكشارية-.

تم في عهده استرداد جزيرتي بوزجاآدا، وليمني، وتمكنت الدولة من إرسال المساعدات إلى القوات المرابطة في كريت، وقُضِيَ على الفساد الذي نشب في صفوف الدولة. وكل ذلك بفضل جهود الصدر الأعظم محمد كوبريلي، ذي الشخصية القوية والمؤثرة، الذي تميز بالحنكة وحسن التدبير. وقد شارك السلطان محمد الرابع في حرب بولونيا الأولى عام ١٦٧٢م، والثانية بعد عام، كما هاجم أوكرانيا عام ١٦٧٤م. وحققت الدولة بعض الانتصارات. غير أن وفاة الصدر الأعظم محمد كوبريلي، ووفاة ابنه أحمد فاضل باشا، الذي عين في الصدارة بعد والده، جعل أحوال البلاد تسير من سيء إلى أسوأ- .

توجهه السلطان محمد إلى النمسا عام ١٦٨٣م، وحاصرها الصدر الأعظم مصطفى باشا، غير أنها قاومت مقاومة شديدة، وتمكنت من هزيمة الجيش العثماني، بسبب التمرد الذي قام به خان القرم، وخسرت الدولة العديد من القلاع والحصون والبلدات في تلك المعركة. وبسبب هذه الهزيمة أخذ البابا يشجع الحرب على الدولة العثمانية من أربع جبهات، في الوقت الذي كان فيه السلطان محمد الرابع مشغولاً بالصيد. تظاهر الأهالي في إستانبول مما أدى إلى تنحي السلطان عن الحكم لأخيه سليمان، بدلاً من ابنه الأمير مصطفى، يطمع في تسلُّم مقاليد الحكم. وذلك عام ١١٠٠هـ توفي السلطان عام ١١٠٤هـ

ظل السلطان محمد الرابع على سدة الحكم تسعة وثلاثين عاماً، وهي أطول فترة حكم بعد السلطان سليمان القانوني. وعلى الرغم من وجود العديد من الفرص لإخراج الدولة العثمانية من الأزمات التي لحقتها، إلاّ أن السلطان كان مشغولاً عن ذلك بهواية الصيد، والأدب، فلم يستطع أن يحقق نجاحاً يذكر أثناء تلك الفترة الطويلة من حكمه. كان له ثمانية من الأولاد، هم: مصطفى، وأحمد، وبايزيد، وأحمد الصغير، وخديجة، وأم كلسوم، وصافية، وفاطمة- .

سليمان الثاني ابن السلطان إبراهيم

ولد سليمان الثاني ابن السلطان إبراهيم في إستانبول عام ١٠٥٢هـ وقضى أربعين عاماً من عمره في السجن. وكانت أمه المتدينة تعمل على تعليمه وتؤنسه في وحشته. وكان يقضي وقته في العبادة وقراءة الكتب- .

آل إليه الحكم العثماني عام ١٦٨٧م. في فترة من أحرج الفترات في التاريخ العثماني؛ حيث استولى النمساويون على بلغراد، وأخذوا يتقدمون باتجاه البلقان. عين السلطان سليمان الثاني فاضل مصطفى باشا، من أسرة كوبريلي العريقة في إدارة الدولة، صدراً أعظم. وكان هذا الإجراء من أحسن الأعمال التي قام بها السلطان في حكمه. إذ أن فاضل مصطفى باشا سرعان ما تمكن من القضاء على مظاهر الضعف والسؤ في البلاد، ووضع رقابة شديدة على الإنكشارية، وقام بالعديد من الإصلاحات المالية والإدارية-، وشارك بنفسه) أي الصدر الأعظم) في جبهه القتال، فاستطاع استرداد صربيا، وبلغراد عام ١٦٩٠م. وتوفي السلطان سليمان في أدرنة، وهو يتأهب للقتال، ذلك عام ١٦٩١م .

كان السلطان سليمان عاقلاً متواضعاً وحكيماً في تدبير الأمور.واشتهر كذلك بحسن خطه وحبه للكتابة- . استمر حكمه ثلاث سنوات وسبعة أشهر. أما عن أولاده فلم يرد ذكر لهم في المراجع المتخصصة- .

أحمد الثاني ابن السلطان إبراهيم

ولد أحمد الثاني ابن السلطان إبراهيم في إستانبول عام ١٠٥٢هـ.قضى فترة طويلة من حياته في السجن. ومن ثم فقد كان عصبي المزاج متوتراً- .

انتقل إليه الحكم العثماني عام ١١٠٢هـ). غير أنه وجد نفسه في حرب مع النمسا. فأرسل لمقاومتها جيشاً عظيماً، تحت إمرة الصدر الأعظم، مصطفى فاضل باشا. وقد كان النصر في البداية في جانب العثمانيين، غير أن استعجال الصدر الأعظم للنصر، وإنهاء القتال بسرعة، وتقدمه المتهور، أدى إلى مقتله، مما أدى إلى حصول البلبلة في صفوف الجيش وبالتالي حدوث الهزيمة- .

خسرت الدولة في عهده أيضاً بعض الجزر في بحر إيجه، كما خسرت بعض القلاع في دالماجيا. ونشبت في هذا العهد بعض الفتن في جبل لبنان، وامتد شرارها إلى حوران والبصرة- .

توفي السلطان أحمد الثالث عام ١١٠٦هـ دون أن يقدم شيئاً يذكر للدولة. وكانت فترة حكمه قصيرة، ومشاكل الدولة على أشدها. كان له تسعة من الأولاد، هم: إبراهيم، وسليم، وآسية، وعاتكة، وخديجة- .

مصطفى الثاني ابن السلطان محمد الرابع

ولد مصطفى ابن السلطان محمد الرابع عام ١٠٧٤هـ). درس على يد أشهر علماء عصره، أمثال فيض الله أفندي، وواني أفندي، وإبراهيم أفندي. كما تعلم الخط على يد الحافظ عثمان أفندي. وقد أولع بالأدب والشعر مثل أسلافه- .

تولى الحكم بعد وفاة عمه أحمد الثالث، وكان عمره آنذاك اثنين وثلاثين عاماً. وفور جلوسه على العرش، أمر بحشد الجيوش، وشحذ السيوف، وإعداد معدات الحرب، معلناً الحرب على النمسا والبندقية. فاسترد بلاد الصرب، وأغرق سفن البندقية، واسترد جزيرة ساقز- .ونجح في فك الحصار الروسي على آزاق، غير أنه فقدها بعد سنة. كما أن الدولة العثمانية في هذا العهد/١٦٩٨م (اضطرت للتوقيع على معاهدة كارلوفجا، بسبب تعرض الدولة للقتال في الجبهات الأربع من جهة الدول الغربية

وروسيا. وتنازلت الدولة، بموجبها، عن كثير من أراضيها في أوروبا. وبالتوقيع على تلك المعاهدة بدأت الدولة في تنظيم الشؤون الداخلية وإجراء بعض الإصلاحات الإدارية. غير أن السلطان، بسبب سكوته عن تصرفات أستاذه فيض الله أفندي، تعرض لانتقادات لاذعة في حادثة أدرج، فقد منصبه إثرها . /١٧٠٣م). وتوفي بعدها بفترة وجيزة- .

كان السلطان مصطفى الثاني محباً للخير ومتواضعاً. وكان يحمي العلماء ورجال العلم، ويأنس بمجالستهم. وكان متديناً ورعاً- .وكان له من ثلاثة عشر الأولاد، هم: أحمد، وحسن، وحسين، ومراد، وعثمان، وسليم، وزينب، وأمينة، وأم كلثوم، وصافية، ورقية، وأمة الله، وأسماء- .

أحمد الثالث ابن السلطان محمد الرابع

ولد أحمد الثالث ابن السلطان محمد الرابع، عام ١٠٨٤هـ). وهو شقيق السلطان مصطفى الثاني. درس على يد العديد من العلماء في عصره. وكان ذكياً، مرهف الإحساس. يحب الشعر والخط- .وقد استمتع بشبابه، ولم يتعرض مثل أسلافه لقضائها في السجن؛ لانتهاء تلك التقاليد من أسرة آل عثمان. ولذلك فقد كان يراقب الاكتشافات الجديدة في الغرب. وهو الذي وافق على إدخال المطبعة العربية إلى إستانبول عام ١١٣٩هـ1727) م)، بعد استصدار الفتوى من شيخ الإسلام بفوائد المطبعة .

تولى مقاليد الأمور في الدولة العثمانية عام ١١١٥هـ)، بعد تنازل أخيه السلطان مصطفى الثاني عن الحكم. وعلى الرغم من وقوع بعض الحروب في عهد هذا السلطان مع كل من البندقية وروسيا، وفي الشرق في جورجيا وتفلس وغيرها من البلدان؛ إلا أن أهم ما يميز هذا العهد، عن غيره من عهود الدولة العثمانية، هو أن هذا العهد كان عهد الانفتاح، والتعلق بمباهج الدنيا؛ ومن ثم فقد سمي بعهد الخزامى أو عصر الزهر في التاريخ العثماني، نتيجة لتعلق الناس بزراعة أزهار الاقحوان والخزامى والتباري في العناية بها. وانفتحت الدولة في علاقتها الخارجية، حيث تم التبادل الدبلوماسي مع بعض الدول الغربية. وعمل السلطان على الاستفادة من الاكتشافات الأوربية الحديثة في البنيان وتخطيط المدن، وفي تنظيم الحدائق والبساتين. كما ظهر، في هذا العهد، نوع من الاهتمام بالعلوم البحتة، غير أنها لم تكن لتوفي طلبات العصر .إلاّ أن البذخ والإسراف الذي ساد في هذا العهد لم تشهده الدولة العثمانية من قبل- .لكن طابع هذا العهد الثقافي اتسم بالحركة والنشاط. وكانت إستانبول في هذا العهد تمثل منطقة جذب لأصحاب الطموح والمواهب- .

وعلى الرغم من وضع السلطان أحمد الثالث المسالم، إلا أن الفرس لم يقفوا مسالمين؛ فقد قاموا في عام ١١٤٣هـ)بالاستيلاء على نهاوند، وتعرض أهل السنة المتوطنون في بلاد العجم للاعتداء، مما حدا بالسلطان إلى القيام بإيقاف ذلك التحرك. فتوجه إلى أسكودار، ومكث فيها سبعة وأربعين يوماً بغية التحرك إلى جبهة القتال، إلا أنه لم يسافر، مما جعل بخليل جاندار أوغلو يقوم بحركة تمرد، وانضم إليه الإنكشارية. فرجع السلطان إلى قصره، غير أن الثورة لم تخمد، وطلب الثائرون تنازل السلطان عن العرش. فتنازل السلطان أحمد الثالث لابن أخيه محمود في عام ١١٤٣هـ). وتوفي عام1149 هـ

وكان السلطان أحمد الثالث رجلاً مسالماً، محباً للورود. وكان يتفادى الحروب قدر الإمكان. وكان له عدد كبير من الأولاد، هم: عبدالله، وعبدالحميد، وعبدالمجيد، وعبدالملك، وعلي، وعيسى، وإبراهيم، وسليم، وسيف الدين، وسليمان، ومراد، ومصطفى، وفاطمة، وأمينة، وصالحة، وأم كلثوم، وزينب، وغيرهم كثير- .

محمود ابن السلطان مصطفى الثاني

ولد محمود بن مصطفى الثاني في إستانبول عام ١١٠٨هـ). ونشأ في كنف والدته الحنون. ونال تعليماً متميزاً .وكان اتسم بالذكاء والفضول لمعرفة كل شيء، محاولاً استيعاب دروسه بسرعة. وقد ولع بالأدب والشعر، واستخدم لقب سبكاتي في الشعر .

تولى عرش السلطنة عام ١١٤٣هـ). وكان له من العمر خمسة وثلاثون عاماً. وكانت الدولة العثمانية، في تلك الفترة، تغلي من التمردات والحركات الثورية. فأمر السلطان بالقضاء على رؤوس المشاغبين دون هوادة، حيث تفرغ بذلك للحرب مع الفرس. وقد تغلبت الدولة على طهماسب، الذي طلب إبرام معاهدة صلح عام ١١٤٤هـ))، بعد أن استولت الدولة العثمانية على همدان وأورمية وتبريز. ووقعت الحرب مع روسيا في هذا العهد، وتمكنت الدولة العثمانية من إيقاف التقدم نحو إقليم البغدان، كما أوقفت تقدم النمسا المتحالفة مع روسيا نحو إقليم الأفلاق، وانتصرت على الصرب. ونتج، عن كل ذلك، عقد معاهدة صلح في بلغراد عام ١١٥٢هـ)، تعهدت بموجبها النمسا بالتنازل عن مدينة بلغراد وعن بلاد الصرب والأفلاق. كما تعهدت روسيا بعدم الشروع في بناء السفن في البحر الأسود، وهدم قلاع ميناء آزوف- .

توفي السلطان محمود في إستانبول عام ١١٦٨هـ). وكان محبوباً من جانب الشعب، صافي القلب، رؤوفاً .وكان شاعراً، ومحباً للعلم. ويعد عهده أحسن عهود الانحطاط في التاريخ العثماني، بما حققه من انتصارات- .كان عقيماً فلم يترك أولاداً- .

عثمان خان الثالث ابن السلطان مصطفى الثاني

ولد عثمان الثالث ابن السلطان مصطفى الثاني عام ١١١٠هـ

تولى الحكم بعد وفاة أخيه عام ١١٦٨هـ). وكان له من العمر آنذاك ثمان وخمسون سنة. تعرضت إستانبول في فترة عهده لحريق كبير، كما تعرضت لانتشار وباء الطاعون ولم يحدث سواهما من الأحداث في عهده القصير- .

كان السلطان شديد البأس على الرشوة والمرتشين، ولم يكن يسامح في هذا قط .وأنشأ جامعاً ومسجداً في أسكودار. كما أكمل الجامع، الذي بدأه سلفه محمود الأول، والمعروف بنور عثمانية. ولم يكن للسلطان عثمان الثالث عقب- .

مصطفى خان الثالث ابن السلطان أحمد الثالث

ولد مصطفى بن أحمد الثالث عام ١١٢٩هـ

جلس على عرش السلطنة عام ١١٧١هـ)، وله من العمر اثنتان وأربعون سنة. وبعد أن استقر له الملك شرع في تنظيم الأحوال وسن الشرائع وتوطيد دعائم الأمن- .سار حكمه بشكل جيد، ولا سيما السنوات العشر الأولى منه. ثم وقعت بعد ذلك بعض الحروب مع روسيا، والتي ضاع بسببها القرم. اهتم السلطان بإجراء الإصلاحات اللازمة، والاستفادة من الخبرة العسكرية في الغرب. ولذلك استقدم كومت دو بنفال، والبارون" دو توت" لإصلاح شؤون المدفعية العثمانية، كما أنشئت، في عهده، المدرسة البحرية وغرفة الهندسة-، بقصد إحراز تقدم ملموس في الأمور العسكرية، وتجاوز المحن، التي تعرض لها الجيش العثماني بسبب تأخر أجهزته العسكرية. وعملت الحكومة العثمانية، في هذا العهد، على توسيع نطاق التجارة البحرية والبرية، وعلى فتح الخليج لإيصال نهر دجلة بالآستانة وأن تستعمل الأنهار الطبيعية مجرى له، لتسهيل نقل الغلال من الولايات إلى دار الخلافة، وعلى نشر التجارة- .

توفي السلطان مصطفى الثالث عام ١١٨٧هـ (بإستانبول، ودفن بجوار مسجد لاله لي الذي بناه. بعد أن قضى في الحكم سبعة عشر عاماً. وكان محباً للأعمال الخيرية، حيث بنى عدة مساجد، ومكتبات، ومدارس. كما كان مقتنعاً بضرورة القيام بالإصلاح الشامل في صفوف الجيش، واستفاد في تحقيق ذلك من الضباط الغربيين، غير أنه لم يستطع تحقيق انجازات كبيرة في هذا الصدد- .وكان له تسعة من الأولاد، هم: محمد، وسليم، وبيهان، وأسماء، وفاطمة، وخديجة، وشاه، ومهريشاه، وهبةالله- .

عبدالحميد الأول ابن السلطان أحمد الثالث

ولد عبدالحميد ابن السلطان أحمد الثالث في إستانبول عام ١١٣٧هـ

قضى ثلاثة وأربعين عاماً من عمره محبوساً في إحدى غرف القصر. ولم يكن لديه إلمام بالأمور الإدارية سوى ما قرأه في الكتب، أثناء محبسه. ومن ثم لما آل إليه الحكم العثماني، عام ١١٨٧هـ(، كان قليل الخبرة والتجربة. وكانت آثار الحرب العثمانية ـ الروسية واضحة في كل مجالات الحياة بالدولة العثمانية. ومن ثم فقد عقدت في هذا العهد معاهدة، انتهت بموجبها الحرب، عرفت بمعاهدة كوجوك قاينارجه عام ١١٨٧هـ). وتم في هذا العهد أيضاً عقد الصلح مع إيران، على الرغم من محاولات روسيا إفشاله، وذلك بعد أن استولت إيران على البصرة، إلاّ أن الصراعات الداخلية على الحكم داخل إيران، كسر من مقاومتهم، فرجعت البصرة إلى الدولة العثمانية ثانية- .

توفي السلطان عبدالحميد الأول عام ١٢٠٣هـ)، وكان عمره آنذاك خمسة وستين عاماً، قضى منها في سدة الحكم خمس عشرة سنة. وكان متفتحاً ومثقفاً ومحباً للخير، ولديه الرغبة في القيام بأعمال كبيرة. غير أنه لم يجد، من حوله، من يساعده على تحقيق تلك الرغبات. وكان له ستة عشر من الأولاد، هم: أحمد، وسليمان، ومحمد، ومصطفى، ونصرت، ومحمود، ومراد، وأسماء، وأمينة، وربيعة، وزكية، وصالحة، وعالمشاه، وفاطمة، وملك شاه، وهبةالله .

سليم الثالث ابن السلطان مصطفى الثالث

ولد سليم الثالث ابن السلطان مصطفى الثالث عام ١١٧٥هـ). وقد نشأ في جو من الحرية. وكان شاعراً وخطاطاً محباً للسلم. وكان أكبر أمانيه التمكن من القيام بإجراء إصلاحات، على غرار الدول الغربية في النظام العثماني، الذي أخذ يتخلخل يوماً بعد يوم؛ حيث أجرى الاتصالات بشخصيات غربية، لمساعدته في إجراء تلك الإصلاحات بعدما آلت إليه السلطنة .

تولى الحكم عام ١٢٠٣هـ(، وكان عمره آنذاك ثمانية وعشرين عاماً. وكانت الدولة العثمانية في تلك الفترة تمر بأيام عصيبة. إذ إنه إضافة إلى الصراع المرير والحروب المستمرة مع روسيا، كانت فرنسا أيضاً في الطريق لأن تصبح دولة قوية في أوروبا، لتضيق الخناق على الدولة العثمانية. كما أخذت النمسا تستولي على الأراضي العثمانية في أوروبا يوماً بعد يوم .ولذلك كله فقد كان السلطان سليم الثالث يفكر في سبل لإخراج الدولة من المحن التي أحاطت بها من جميع الأطراف- .

قام بإجراء الإصلاحات الشاملة في كيان الدولة؛ فأنشأ الكليات التقنية، ونظم الأمور الثقافية، وانشأ المصانع الحربية، التي تقدم العتاد لقوات البرية والبحرية، على غرار الدول الغربية. كما أنشأ وحدات الجيش الذي سماه بالنظام الجديد. وأرسل السفراء الدائمين إلى الدول الغربية. وعلى الرغم من كل ذلك فإن المشاكل الداخلية والخارجية لم تنته؛ فقد استولى نابليون على مصر عام ١٧٩٨م، على الرغم مما كان يعلنه من صداقة حميمة للدولة العثمانية. كما ثار الإنكشارية ورفضوا تنفيذ أمر السلطان بالتوجه لإخماد الفتنة التي أثارها الصرب؛ فقد كانوا يعلمون أن السلطان يرمي، من وراء ذلك، إلى إفنائهم بغية إقامة نظام الجيش الجديد محلهم. فاستجاب السلطان تحت ذلك الضغط لمطالبهم بإلغاء جيش النظام

الجديد، إلا أنه لم ينجُ من التنازل عن الحكم. حيث قُبض عليه وأُودع السجن في عام ١٢٢٢هـ 1807م). ولما رأى الثائرون أن عالمدار مصطفى باشا يريد إعادة السلطان إلى الحكم، سارعوا إلى قتل السلطان سليم وذلك عام ١٢٢٢هـ

وعلى الرغم من الصفات، التي تحلى بها السلطان سليم الثالث، إلا أنه كان محروماً من حاشية تساعده في تنفيذ ما كان يرمي إليه من إصلاحات. يضاف إلى ذلك أن الرغبة الشديدة في اقتباس ما يهم الدولة من أوروبا، دون التحقق من رغبة المجتمع العثماني واستعداده لتقبل كل ذلك، كان من أهم الأمور التي أودت بالسلطان وبعرشه .

ولم يترك السلطان سليم الثالث عقباً له- .

مصطفى الرابع ابن السلطان عبدالحميد الأول

ولد مصطفى الرابع ابن السلطان عبدالحميد الأول عام ١١٩٣هـ). وكان داهية، واسع الحيلة، محنكاً .

آل إليه الحكم العثماني في عام ١٢٢٢هـ)، بعد تنحي السلطان سليم بتدبير منه-.ولذلك فقد كان دمية في يد الذين نصبوه سلطاناً على الدولة العثمانية. فبدأ أولاً بقتل كل من له علاقة بالنظام الجديد، وإلغاء ما بقي من هذا النظام من الدولة .فتوجه من استطاع الفرار من هذا البطش، الذي حل بهم، إلى القائد عالمدار باشا في روستجق، وكان يقاوم القوات الروسية في ذلك الموقع. وبعد استشارة قواد الجيش الموجودين بمعيته، قرر إعطاء مهلة للهدنة مع روسيا والتوجه إلى إستانبول لإعادة السلطان إلى الحكم. فجمع جيشه وجاء إلى إستانبول. فلما وصل إلى القصر، أشار السلطان مصطفى الرابع بقتل السلطان سليم وهو في السجن، فقتل. وحينئذ هاج القوم وخلعوا السلطان مصطفى الرابع، وأودعوه السجن، وقُتل بعد ثلاثة أشهر- .

ونظراً لقِصَر فترة حكمه لم يقع في عهده ما هو جدير بالذكر سوى ما أُشير إليه من صراع على الحكم. وقد وصف السلطان مصطفى الرابع بضيق في التفكير، وحرص على السلطة، وعدم التورع عن أي شيء يوفر له البقاء في الحكم. ولم يعرف من أولاده سوى بنته أمينة .

محمود الثاني ابن السلطان عبدالحميد الأول

ولد محمود الثاني ابن السلطان عبدالحميد الأول في إستانبول عام1199 هـ). ونشأ تحت رعاية السلطان سليم الثالث، متأثراً به في فكره الإصلاحي .

كان الوريث الوحيد للعرش العثماني من أسرة آل عثمان، بعد مقتل السلطان سليم الثالث. ومن ثم فقد كان السلطان مصطفى الرابع يود قتله أيضاً، حتى يؤمن لنفسه البقاء في الحكم، وينجو مما قد يصيبه من سوء بسبب التمرد الذي قام به مصطفى باشا عالمدار. غير أن الراغبين في الإصلاح من أركان الدولة سرعان ما أبعدوه عن الأنظار، إلى حين إسقاط السلطان مصطفى الرابع من الحكم. وحينئذ بادر مصطفى باشا عالمدار مع مؤيدي حركة الإصلاح إلى مبايعة الأمير محمود الثاني سلطاناً على الدولة العثمانية، وذلك عام ١٢٢٣هـ). وكان عمره آنذاك أربعاً وعشرين سنة. فعين السلطان الجديد مصطفى باشا عالمدار صدراً أعظم على الدولة- .

ولما استتب للسلطان محمود الثاني الأمر، وتمكن من تنفيذ خططه الرامية إلى إجراء الإصلاحات التي ينوي القيام بها، بعد مضي فترة من الوقت، أصدر أمره بإلغاء الجيش الإنكشاري عام ١٢٤١هـ)

وأحلَّ محله الجيش المسمى بالعساكر المنصورة المحمدية. وفي السنة نفسها، استقلت اليونان عن الدولة العثمانية، كما تعرض الأسطول العثماني والمصري، في العالم االتالي، في موقعة نافارين للهدم والتدمير على يد القوات المتحالفة) روسيا ـ فرنسا ـ بريطانيا)، ضد الدولة العثمانية. ثم تعرضت الجزائر للحتلال الفرنسي عام ١٨٣٠هـ. وفي الوقت عينه، نشبت ثورة داخلية من والي مصر محمد

علي باشا، الذي وصل جنوده إلى كوتاحيا في وسط الأناضول، بعد أن وقعت فلسطين وسوريا تحت سلطته. وكان ينوي الاستقلال بحكم العرب- .

وعلى الرغم من تلك الأحداث السياسية الداخلية والخارجية فقد سعى السلطان محمود الثاني نحو انتهاج برنامجه في تغريب المؤسسات العسكرية، والتعليمية، والإدارية في الدولة العثمانية. ونجح في تحقيق ذلك، وفي التقليل من نفوذ المشيخة الإسلامية، التي كانت تشرف على التعليم في الدولة بشكل مباشر .

توفي السلطان محمود الثاني بالوباء عام ١٢٥٥هـ). وكان له عدد كبيرمن الأولاد، هم: عبدالعزيز، وعبدالحميد، وعبدالمجيد، وعبدالله، وأحمد، ومحمود، ومحمد، ومراد، وسليمان، وعثمان، ونظام الدين، وعادلة، وأسماء، وسالمة، وعائشة، وعطية، وزينب، ومنيرة، وخيرية، وحميدية، وغيرهم- .

عبدالمجيد ابن السلطان محمود الثاني

ولد عبدالمجيد خان ابن السلطان محمود الثاني في عام ١٢٣٧هـ)

تولى الحكم في الدولة العثمانية بعد وفاة والده عام ١٢٥٥هـ) وكان عمره آنذاك سبعة عشر عاماً، والدولة العثمانية مثقلة بالمشاكل الداخلية والخارجية. فقام في أول عمل له بإعلان" خط شريف كلخانة"، المعروفة في التاريخ العثماني بحركة التنظيمات العثمانية .

وأبرمت، في عهده، عدة معاهدات مع فرنسا وبريطانيا. كما وقعت حرب مع روسيا بسبب قيامها بالاستيلاء على الأفلاق والبغدان عام ١٨٥٣م. ونشبت عدة أحداث داخلية، منها الحرب الأهلية، التي وقعت في جبل لبنان عام ١٨٦٠م، وحادثة جدة) التي تعرض فيها القناصلة الأجانب للقتل) قبل ذلك بسنة واحدة- .

وعلى الرغم من كل تلك الأحداث فقد سار السلطان عبدالمجيد في الإصلاحات التي بدأ بها أبوه. فمنح المزيد من الحريات للأجانب الذين تدخلوا في شؤون الدولة العثمانية، كما منح الأقليات القاطنة فيها الكثير من الامتيازات، التي لم يكن للدولة العثمانية عهد بها من قبل. غير أن حياة الإسراف والبذخ التي عاشها السلطان، عاجلته بالمنية فتوفي عام ١٨٦١م متأثراً بالوباء أيضاً .

وكان له عدد كبير من الأولاد، هم: عبدالحميد، وأحمد، وبهاء الدين، وعبدالصمد، وفؤاد، ونظام الدين، وسيف الدين، ومحمد وحيد الدين، ومحمد رشاد، ورشدي، وبهية، وبهيجة، وموهبة، ومديحة وغيرهم- .

عبدالعزيز ابن السلطان محمود الثاني

ولد عبدالعزيز خان ابن السلطان محمود الثاني في إستانبول عام1245 هـ) تلقى تعليماً جيداً .وأتقن اللغة الفرنسية وأجادها. كان مولعاً بالرياضة والفروسية، والجريد، والمصارعة- .

تولى حكم الدولة العثمانية، بعد وفاة أخيه السلطان عبدالمجيد، عام1277 هـ). وكان عمره آنذاك اثنين وثلاثين عاماً. وقد صادف في أوائل حكمه أعمال التمرد التي نشبت في الأفلاق، والبغدان

فعمل على القضاء على تلك الأحداث الدامية ونجح في ذلك بعد التنازل عن بعض أراضي الدولة العثمانية في البلقان. غير أنه سرعان ما واجه مشاكل أخرى من اليونانيين الراغبين في إلحاق جزيرة كريت بهم، إلا أن الأمر انتهى لصالح الدولة

وفي عام ١٢٨١ سافر السلطان عبدالعزيز إلى مصر، لتفقد الممالك العثمانية. كما سافر في عام ١٢٨٤هـ (إلى أوروبا لحضور معرض باريس. ولما عاد منها أصدر أمره بترجمة جميع الأنظمة واللوائح المتعلقة بالدستور الفرنسي، بغية الاستفادة منها في الدولة العثمانية- .وكان من نتائج ذلك قيامه ببعض الإصلاحات الإدارية .

نشأ في هذا العهد مجلس الشورى في الدولة العثمانية)، كما نشأت بعض الجمعيات الأدبية المتأثرة بالأفكار الغربية. وأسست فيه أيضاً جمعية تركيا الفتاة، التي كانت تجري وراء الشعارات الأوربية، مثل الحرية، والعدالة، والمساواة. وهي التي عملت على مقتل السلطان عبدالعزيز بعد خلعه عام ١٢٩٣ه .

وقد اتسم السلطان عبدالعزيز بالتدين، والثقافة، والأعمال الخيرية. وكان مهيب المنظر والهندام. وكان له اثنا عشر ولداً، هم: عبدالمجيد، وجلال الدين، ومحمد سليم، ومحمود، ومحمد سيف الدين، ومحمد شوكت، وفاطمة، وأسماء، وأمينة، ويوسف عز الدين، وصالحة، وناظمة- .

مراد الخامس ابن السلطان عبدالمجيد خان

ولد مراد الخامس ابن السلطان عبدالمجيد في عام ١٢٥٦هـ). وتلقى تعليماً جيداً. وكان شغوفاً بالقراءة. وأتقن اللغة الفرنسية. وكان يأتي بالكتب من فرنسا. ومن ثم كان متأثراً بالثقافة الفرنسية .

نصب سلطاناً على الدولة العثمانية بعد خلع عمه عبدالعزيز في المؤامرة، التي حاكها المستغربون عام ١٢٩٣هـ .(وكانت الدولة العثمانية في تلك الفترة تمر بمرحلة صعبة؛ فبعد التمكن من إخماد ثورة البلغار، قامت التمردات في البوسنة والهرسك ثم في صربيا. ولما لم تستجب الدولة لمطالبهم فقد نشبت الحرب، وانهزمت القوات الصربية، غير أن روسيا تدخلت في الأمر فأعلنت الهدنة- .

ولما سمع بمقتل عمه، وبتلك المؤامرة، توترت أعصابه، وصدرت منه تصرفات تدل على الجنون. ولا سيما عندما طالبه الذين نصبوه على الحكم بانتهاج سياسة معينة .وإزاء كل تلك التصرفات استفتى شيخ الإسلام، فأصدر الفتوى بخلعه بعد ثلاثة أشهر من جلوسه على العرش. فنقل السلطان مراد إلى قصر جراغان. وبقي فيه إلى أن توفي عام1323 هـ). وكان له ثمانية من الأولاد، هم: محمد، وصلاح الدين، وسيف الدين، وسليمان، وعالية، وفاطمة، وخديجة، وفهيمة- .

عبدالحميد الثاني ابن السلطان عبدالمجيد

ولد عبد الحميد الثاني ابن السلطان عبدالمجيد عام ١٢٥٨هـ). درس على يد أشهر الأساتذة الموجودين في إستانبول مختلف الدراسات الدينية واللغوية والأدبية. وتعلم اللغة الفارسية والعربية والفرنسية. كما درس اللغة الإيطالية. وكان مثقفاً للغاية- .

السلطان عبد الحميد هو السلطان الرابع والثلاثون من سلاطين الدولة العثمانية ,تولى عرش الدولة وهو في الرابعة والثلاثين من عمره، وقد نشأ يتيم الأم، وتولت رعايته زوجة أبيه وكانت امرأة صالحة ذات دين وعفاف فأثرت على نفسية وشخصية عبد الحميد، فنشأ في بيئة صالحة وتربى على أن يكون من القادة والزعماء الكبار، فتعلم الفروسية والعلوم الشرعية والعلمية، وقد ظهرت بجانبه منذ الصغر خصوصًا فيما يتعلق بالسياسة ومتابعة الأحوال الخارجية .

استفاد عبد الحميد كثيرًا من عمه السلطان عبد العزيز الذي كان المثل والقدوة لعبد الحميد، ولقد قتل عبد العزيز على يد بعض المتآمرين والحاقدين على الخلافة العثمانية قبل تولي عبد الحميد لمقاليد الأمور، وكانت رحلة عبد الحميد إلى أوروبا برفقة عمه السلطان عبد العزيز ذات أثر بالغ في تكوين الرؤية الواقعية لمستقبل الحكم العثماني في عهد عبد الحميد .

استلم السلطان عبد الحميد الحكم في ١١ شعبان ١٢٩٣هـ / ٣١ أغسطس ١٨٧٦م في وقت عصيب وحاسم من حياة الأمة الإسلامية عامة والدولة العثمانية خاصة فقد أحدقت بها الأخطار من الداخل والخارج، واجتمعت عليها عوامل الهدم وكانت الدولة العثمانية أشبه ما يكون بسفينة قديمة بالية تبحر في عرض بحر هائج متلاطم الأمواج تعبث بها العواصف من هنا وهناك، ولكن

آل إليه الحكم العثماني بعد خلع أخيه مراد في ظروف حرجة للدولة العثمانية .وكانت الأوضاع الداخلية والخارجية للدولة تطلب رجلاً قوياً، ذا حنكة سياسية، ومقدرة فائقة في حل مشاكلها. فمن جهة كان أنصار التغريب يطالبون بالدستور، جرياً وراء الشعارات الغربية. ومن جهة كانت الثورات في البلقان تفتك بجسم الدولة. ومن جهة ثالثة كانت التهديدات الروسية تصم الآذان. وإزاء كل ذلك، أعلن السلطان حركة الدستور المعروفة في التاريخ العثماني بالمشروطية الأولى، وافتتاح مجلس المبعوثان عام 1294هـ)، والتي تقيد من سلطات السلطان، وتمنح المزيد من الحريات للرعية. وفي تلك الأثناء وقعت الحرب مع روسيا، وهي الحرب الوحيدة التي وقعت في عهد السلطان عبدالحميد الثاني، الذي استمر حكمه ثلاثاً وثلاثين سنة. وقد انتهت تلك الحرب لصالح روسيا، بسبب رغبة السلطان في الابتعاد عن الحروب قدر الإمكان، ومحاولة تحويل الصراع الدائر بين الدولة العثمانية والدول الأجنبية إلى صراع فيما بين تلك الدول .

ولما رأى السلطان عبدالحميد أنه لا يستطيع العمل مع وجود مجلس المبعوثان، بسبب ما كان يكتنف ذلك المجلس من أعمال فوضوية، أصدر مرسومه بتعطيل المجلس ١٨٧٨م إلى أجل غير مسمى- .

استولت فرنسا في هذا العهد على تونس)، وبريطانيا على مصر1882) م وبلغاريا على ولاية الروملي الشرقية1885) م، وقدّمت اليونان مساعدات لجزيرة كريت للانفصال عن الدولة العثمانية1897) م .

الأخطار الداخلية :

لقد كانت الجبهة الداخلية والأخطار الداخلية في حقيقة الأمر أكبر وأشد ضررًا من الأخطار الخارجية، وقد تمثلت الأخطار الداخلية في عدة محاور كما يلي :

[1- انتشار الفكر الغربي في الطبقة المثقفة وطبقة رجال الحكم وعلية القوم وافتتان كثير من هؤلاء بما عند أوروبا من تقدم حضاري وفنون وآداب حتى أصبحت لندن وباريس وفيينا قبلة هؤلاء المفتونين وما استتبع ذلك من اندفاعهم في هوة التقليد الأعمى لكل ما هو غربي على كل المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية .

[2- ظهور الجمعيات الماسونية ذات الأهداف الخبيثة والتي عملت على نشر الأفكار القومية الطورانية والتي تتعارض مع عقيدة الولاء والبراء في الإسلام، وكانت هذه الجمعيات تحمل أسماء أدبية وعلمية للتمويه والتضليل، وكان النصارى هم نواة هذه الجمعيات عند ظهورها وكانت الإرساليات التنصيرية الداعم الأول لهذه الجمعيات، وكانت جمعية 'تركيا الفتاة' هي أشهر هذه الجمعيات وقد تأسست في الأصل بباريس، كانت جمعية تقوم في الأساس على القومية التركية أو الطورانية، تحت شعار الجمهورية وقد أسس هذه الجمعية بعض الإعلاميين المفتونين بالغرب أمثال 'علي سعاوي'، 'نامق كمال'، 'محمد ضياء'، وقد تكونت لتلك الجمعية الشابة فروع بلسانيك وبرلين واستانبول ، وما لبث أن انضم لهذه الجمعية بعض الضباط خاصة من منطقة سلانيك وقرروا تأسيس جناح عسكري للجمعية عرف باسم 'الاتحاد والترقي' والجدير بالذكر أن جمعية 'تركيا الفتاة ' وجناحها العسكري 'الاتحاد والترقي' قد تم تنظيمهما وتكوينهما على غرار جمعية' إيطاليا الفتاة' والتي أسسها الزعيم الإيطالي 'ماتزين' سنة ١٨٣١م بل هي مستنسخة منها. ٣] أما أشد هذه الأخطار على الجبهة الداخلية فكانوا اليهود المعروفين بيهود' الدونمة' ومعنى كلمة 'الدونمة' الرجوع والعودة وهم اليهود الذين استوطنوا الدولة العثمانية أيام السلطان سليمان القانوني وكان أصل هؤلاء اليهود من إسبانيا وكانوا قد تعرضوا للاضطهاد بعد سقوط الأندلس، وقد سمح لهم السلطان سليمان بذلك تحت تأثير من زوجته 'روكسلان' الأفعى اليهودية، وفي ظل حكم الدولة العثمانية تمتع اليهود بالأمن والرفاهية ونالوا كافة حقوقهم بل انتظم بعضهم في سلك رجال الدولة ولكنهم كعادتهم قابلوا هذا الجميل والعرفان بالجحود والنكران، وتآمروا مع الجمعيات السرية الماسونية وروجوا للفكر القومي الطوراني، ويعتبر اليهودي 'موئيز كوهين' هو مؤسس الفكر القومي وكتابه 'الروح التركية' هو الكتاب المقدس للسياسة الطورانية. الأخطار الخارجية :

في هذه الفترة الحرجة من حياة الدولة العثمانية كانت الأخطار الخارجية متمثلة في دول أوروبا بجناحيها الشرقي والغربي، ويقود الجميع وقتها روسيا وإنجلترا، وكانت ألمانيا وقتها قوة جديدة تتطلع لدور على الساحة الدولية، ولقد عملت روسيا على إثارة الفتن الداخلية بالولايات العثمانية بأوروبا الشرقية، فأشعلت روسيا ثورات عنيفة في

بلاد البلقان والبوسنة والهرسك والصرب والجبل الأسود، وعندما لم تفلح هذه الثورات في تحقيق الهدف منها أعلنت روسيا الحرب صراحة على الدولة العثمانية بسبب رومانيا وأجبرت الدولة العثمانية لتوقيع معاهدة 'سان استيفانوس' المجحفة بحق العثمانيين بعد أن فقدت الدولة أجزاء منها في هذه الحرب .

لم تكن الدول الأوربية المشهورة بعدائها الشديد للإسلام والمسلمين مثل إنجلترا وفرنسا والنمسا لتقف مكتوفة الأيدي وروسيا تلتهم أجزاء كبيرة من الدولة العثمانية التي أصبحت فريسة سهلة لذئاب الأرض من أعداء الإسلام، فأجبرت هذه الدول مجتمعة الدولة العثمانية على التوقيع على معاهدة برلين سنة ١٣٠٥هـ، وكان ظاهر هذه المعاهدة الحد من النفوذ الروسي بالمنطقة ولكن باطنها المزيد من تقطيع أوصال الدولة العثمانية وتوزيع أملاكها على المعتدين والطامعين .

أهم إنجازات السلطان عبد الحميد :

لقد كان على السلطان عبد الحميد تبعة كبيرة وتركة ثقيلة وأخطار داخلية وخارجية ,وكان عليه أن يواجه الجميع فبدأ أولاً بالإصلاحات الداخلية لتتقوى بها قاعدة الدولة أمام الخارج، ويستطيع أن يتكلم من منطلق قوة وتتمثل أهم الإصلاحات فيما يلي :

[1- تعريب الدولة :

فقد حاول السلطان عبد الحميد إدخال اللغة العربية كلغة رسمية للدولة في الحكومة والتعاملات واصطدم مع القوميين الأتراك الذين خافوا من زوال التحكم والسيطرة التركية على الدولة لو عربت الدواوين، وكان يهدف عبد الحميد من ذلك القضاء على القوميات الناشئة والمتنامية ليس عند الأتراك فقط ولكن عند العرب خاصة بالشام ومصر؛ ذلك لأن القومية العربية ظهرت كرد فعل للقومية التركية .

[2-إصلاح التعليم :

رأى عبد الحميد أن نظام التعليم والمدارس التركية أصبحت معامل لتفريخ أتباع الفكر القومي والعلماني والمتغربين والمفتونين بأوروبا، لذلك اتخذ قرارات سريعة لإصلاح التعليم وذلك بعدة خطوات :

أ ـ ألغى كل المواد التعليمية التي تساعد على إذكاء الشعور القومي والتغريب .

ب ـ وضع مناهج مواد شرعية في المدارس الأولية حتى الثانوية 'فقه ـ تفسير ـ أخلاق '.

ج ـ جعل المدارس والجامعات تحت رقابته وإشرافه الخاص مباشرة .

د ـ منع الاختلاط في المدارس والجامعات وأنشأ مدارس خاصة بالنساء .

هـ ـ أنشأ مدرسة العشائر والتي تقوم فكرتها على تعليم أبناء العشائر والقبائل العربية باستانبول عاصمة الخلافة، والدراسة فيها يغلب عليها الجانب الشرعي مع بعض علوم الرياضيات واللغات، وكان الهدف منها إعداد جيل صالح من قادة الأمة والتواصل مع المسلمين في أرجاء الدولة العثمانية الكبيرة

[3-محاربة السفور :

قلنا أن العصر الذي تولى فيه عبد الحميد الحكم كان عصر افتتان بالغرب وتقليد أعمى لكل ما هو خارجي وهي أولى علامات الاستيلاء والسقوط والمرأة بطبعها أشد تأثرًا وتقليدًا من الرجل، فبدأ السفور والتبرج يدق وبقوة أبواب المسلمين خاصة بالدولة العثمانية، وأيقن عبد الحميد خطورة ذلك فأصدر قرارات فورية بالاحتشام ومنع لبس المخالف للشرع وإلزام النساء بالحجاب، وأصدر قرارًا آخر بمنع الاختلاط في المدارس والجامعات .

[4-جهاز المخابرات :

وهذا الأمر يعده كثير من المنتقدين لعصر عبد الحميد من مساوئه الكبيرة، ولكن الحق في هذه المسألة أن إنشاء عبد الحميد لهذا الجهاز كان من أهم إنجازاته؛ لأن هذا العصر قد امتلأ بأصحاب الأفكار الغربية والعلمانيين والمتآمرين للإطاحة بالخلافة والقوميين والانفصاليين والماسونيين، وكان طابور أعداء الخلافة طويلاً حتى صار من الوزراء والكبراء أتباع لروسيا وإنجلترا وفرنسا يتلقون منهم الأوامر والرشاوى، وكان على عبد الحميد أن يتعامل مع كل هؤلاء وهو على دراية كاملة بمخططاتهم وأهدافهم ,ووسع عبد الحميد عمل هذا الجهاز حتى شمل جميع أنحاء الدولة العثمانية ومن أجل ذلك لقبوه بالسلطان الأحمر .

السلطان عبد الحميد والجامعة الإسلامية :

كانت فكرة الجامعة الإسلامية حلمًا يراود المخلصين والصادقين من المسلمين في شتى بقاع الأرض بعدما رأوا ضعف عقيدة الولاء والبراء بين أبناء الأمة الذين وقعوا صرعى الفكر القومي والتيارات التغريبية والعلمانية والأكاذيب الباطلة والوعود المعسولة وما أداه هذا الضياع والضعف لوقوع معظم بلاد المسلمين في أسر أعداء الإسلام واستعمار إنجلترا وفرنسا وإيطاليا لمعظم بلاد المسلمين، وهذا الاستعمار عمل على تقوية الفكر القومي والروح الانفصالية عند هذه البلاد، ولقد رأى عبد الحميد أن فكرة الجامعة الإسلامية سوف تحقق أهدافًا عظيمة في مواجهة أعداء الإسلام وتقوية الأمة المسلمة وتقمع الفكر القومي الشعوبي المستشري في ديار الإسلام وتقوي مركز الخلافة الإسلامية في نفوس المسلمين والكافرين أيضًا، وكانت فكرة الجامعة الإسلامية تلقى رواجًا عند المسلمين في كل مكان، والتفت مجموعة من كبار المسلمين حول عبد الحميد وفكرته الإسلامية من أشهرهم مصطفى كامل وأبو الهدى الصيادي وعبد الرشيد إبراهيم وغيرهم، ومن أجل تدعيم هذه الفكرة أنشأ عبد الحميد خط المدينة ودمشق للسكة الحديد ليسهل طريق الحج على المسلمين ويربط العرب بالترك، ولكن الخطأ الذي وقع فيه عبد الحميد ووقوعه كان اضطرارًا منه وليس تعمدًا ألا وهو اعتماده على الطرق الصوفية في الترويج للفكرة وسكوته عن انحرافاتهم العقدية وبدعهم وخرافاتهم من أجل ذلك، وأي عمل لا يقوم على عقيدة صحيحة ونقية لابد أن يفشل ولو بعد حين، هذا غير التصدي الأجنبي لهذه الفكرة وكان اللورد كرومر الإنجليزي والوزير 'هانوتو' الفرنسي من أشد الناس محاربة لهذه الفكرة. السلطان عبد الحميد والقدس واليهود :

نحن لسنا في حاجة لبيان عداوة اليهود للمسلمين في كل مكان وزمان فهذا أمر عقائدي مستقر بالكتاب والسنة والتاريخ، ولكن عداوة اليهود للسلطان عبد الحميد كانت خاصة ومركزة؛ فلقد حاول اليهود استغلال الأوضاع الداخلية والخارجية التي تحيط بالسلطان عبد الحميد وطلب اليهود من السلطان عبد الحميد على لسان زعيم الصهاينة 'هرتزل' أن يعطيهم فلسطين لتكون وطنًا قوميًا ليهود العالم، وقد استطاع 'هرتزل' أن يتحصل على تأييد أوروبي لفكرته، وأصبحت قوة ضغط على الدولة العثمانية التي كانت تعاني وقتها من ضائقة مالية شديدة، وهذا ما حاول اليهود استغلاله فعرضوا على السلطان عبد الحميد في اللقاء الذي تم بينه وبين 'هرتزل' مبلغ عشرين مليون ليرة ذهبية لسداد ديون الدولة مقابل التنازل عن فلسطين .

فجاء رد السلطان عبد الحميد فخرًا وعزًا لكل مسلم ووسامًا على صدورنا نفخر به في زمن العملاء والخونة والمأجورين حيث قال: 'لا أستطيع أن أتنازل عن شبر واحد من الأراضي المقدسة لأنها ليست ملكي بل هي ملك شعبي وقد قاتل أسلافي من أجل هذه الأرض ورووها بدمائهم، فليحتفظ اليهود بملايينهم، إذا فرقت دولتي من الممكن الحصول على فلسطين بدون مقابل ولكن لزم أن يبدأ التمزيق أولاً في جثتي قبل الحصول على فلسطين .'

بعد أن تأكد اليهود من عزم السلطان عبد الحميد على منعهم من التمكن من فلسطين وفشلت كل إغراءاتهم المالية من أجل ذلك أخذوا في التآمر مع كل القوى المعادية للمسلمين والتنسيق مع كل الاتجاهات من أجل إزاحة السلطان عبد الحميد من طريق أطماعهم بفلسطين، بل قام اليهود بتوحيد صفوف المعارضة وكانت من قبل دون نظام ولا تنسيق، وتولى المحفل الماسوني الإيطالي المعروف باسم 'المشرق الأعظم' هذه المهمة .

ثانيا: التيارات السياسية :

عاصر زاهد الكوثري كثيرا من التيارات السياسية، وكانت له معها مساجلات كبيرة،فقد ناقش كثيرا منها،فحفظت مؤلفاته مواقف صريحة من الاتحاد والترقي وتركيا الفتاة والاتحاديين والكماليين، ولبيان ذلك اخترنا الحديث عنها باختصار في بداية الأمر .

2/1الاتحاد والترقي :

تعرّض هذا الحزب إلى مضايقات كبيرة في بداية أيامه نظرا لإعلانه الصريح معاداة الخلافة ، مما اضطره إلى العمل في سريّة تامة بدأها سنة(١٣١٧هـ/١٨٩٩م) ليعقد مؤتمره الأول في باريس (١٣٢٠هـ/١٩٠٢م) ثم مؤتمرا ثانيا (١٣٢٤هـ/١٩٠٦م) حرّض فيه على إبعاد السلطان عبد الحميد الثاني بواسطة العصيان العسكري (الذي تم في إزمير واستنبول ( )ثم الأناضول سنة (١٣٢٦هـ/١٩٠٨م . (

نجح هذا الحزب جزئيا فمكّن لرجاله، ولكنه فشل في إبعاد السلطان نظرا لضعف موقفهم السياسي ولما لقيه السلطان من تأييد المشائخ وبعض العسكريين المنادين بتطبيق الشريعة( ) ، لكن ذلك لم يدم طويلا ،إذ استغلوا الظروف المحلية والدولية للانقضاض على السلطان ،فبرزت الثورة المضادة قوية متسعة، وتمكنوا أخيرا من القيام بانقلاب عسكري على السلطة القائمة و إبعاد السلطان في شهر أبريل(نيسان)١٩٠٩م وسجنه في سالونيك ( )(المدينة التي يهيمن عليها اليهود)، وطورد بموجب هذا الانقلاب خيرة أبناء المجتمع العثماني .

مرت مرحلة حكم الاتحاديين بمرحلتين أساسيتين كانت أولاهما مهيئة لتحقيق الثانية، أولاهما(١٩٠٩-١٩١٤م)، وثانيتهما(١٩١٤-١٩١٨م)، انتهت الأولى باستياء شعبي كبير من جراء استبدادهم وقلّة اكتراثهم بالموروث الثقافي والحضاري للأمة العثمانية، وعملا منهم على امتصاص الغضب الشعبي المتزايد أقيل محمود شوكت باشا(١٩١٣م)( ) ، لتأتي المرحلة الثانية التي استبشر العامة بها خيرا ، ولكن الأحوال بقيت على حالها سواء من ناحية الخلفية العقدية للدولة أو من حيث الوضع السياسي والاجتماعي المتردي لأنهم سرعان ما عادوا إلى ما عرفوا به في سالف الأيام .( )

2/2التاريخ السياسي للاتحاديين

تسرّب الاتحاديون إلى مواقع القرار في الدولة العثمانية، ومن ثمّ عمدوا إلى اتخاذ قرارات جائرة باسم الدولة،فأشاعوا التقتيل باسمها وتحت لوائها و أغروا بتلك التصرفات الرعناء القوميات على المطالبة بالانفصال،استحوذوا بعدها على أغلب مقاعد المجلس الوطني بطريق المكر والخداع .

خلصت لهم بعدها الهيمنة على مصادر القرار في المجتمع العثماني بغرض الانتصار للقومية الطورانية على حساب القوميات الأخرى المكوّنة للمجتمع العثماني، وانتصارا لتلك القومية منعوا التحدث باللغة العربية في المجلس الوطني، كما منعوا تدريسها في المدارس الرسمية،فأشعلوا بتصرفاتهم فتنة مزّقت المجتمع العثماني، وإمعانا في إبعاد العربية طردوا جل العرب من الوظائف السامية في الدولة،فعزلوا ثلاثة عشر متصرفا إداريا وعوّضوا بأتراك،كما طرد الموظفون العرب من وزارة الخارجية، وتمادوا في تلك السياسة إلى أن بلغت نسبة الموظفين العرب في مجموع الوزارات أدنى ما يمكن منذ نشأة الدولة العثمانية .

فقد كان عدد الموظفين الأتراك في الوظائف السامية مائة وإحدى عشر موظفا، وإحدى عشر موظفا يهوديا، وعشر موظفين من الأرمن، وعربي واحد فقط ( )

وبلغة الأرقام يمثل عدد الموظفين السامين العرب نسبة أقل من واحد (٠,٧٢)من مائة ، وعممت هذه السياسة على سائر المجالات ،فأصبح عدد الطلبة الموفدين إلى الخارج يمثل ربع واحد(٠,٢٥) من مائة( ) وتمادوا في تلك السياسة الرديئة ،فبلغوا فيها حدا لا يطاق،فهجّروا السوريين من أوطانهم واعتبروا اليمن والحجاز مستعمرات تركية، وسلّطوا بموجب هذه السياسة جمال باشا السفاح على الشعب فقتّل وحرّق وهجّر(١٩١٥-١٩١٦م)في سوريا وأرمينيا

وكشفت هذه السياسة ما كان مستورا فانقلبوا على القوميات التي شجّعوها في سالف الأيام، وخاصة القومية العربية،ليخلص لهم اجتثاث لغة القرآن من المجتمع الجديد( )،وقد وصل بهم الاستهتار حدا لا يطاق، لا يتصوره أي عاقل،منها منع الشيخ محمد الطاهر الجزائري (١٢٦٨-١٣٣٨هـ)(١٨٥٢-١٩٢٠م( ) من تدريس الشريعة الإسلامية في إعدادية بيروت...هذا قطر من فيض أما عن إهانتهم للعرب وحضارتهم الإسلامية فحدّث ولا حرج ( )

صلة الاتحاديين باليهود :

نشأ الحزب في كنف يهود الدونمة((في مدينة سالونيك حيث وجد روادها الرعاية الكاملة في الفترة السرية، يقول أحد زعمائهم(رفيق بك)): " حقا أننا وجدنا سندا معنويا من الماسونية الإيطالية عند ما قدم لنا المحفلان الإيطاليان في سالونيك خدمة حقيقية، وقّر لنا الملاجئ، فكنا نجتمع لتنظيم أنفسنا، كما أننا اخترنا معظم رفقائنا من هذين المحفلين اللادينيين، نظرا لما كان يبديانه من دقة في الاستفسارات عن الأفراد ( )"

يؤيد ما ذهبنا إليه الوثائق والشهود العدول منهم العلامة مصطفى صبري) ت١٣٧٣هـ/١٩٥٤م)حيث يقول:"عند بدء الحرب بيننا وبين إيطاليا في طرابلس الغرب عقدت جلسة سرية بطلب من سعيد باشا(رئيس الوزارة الاتحادية) كان الغرض منه استجلاب أصوات الثقة لتلك الوزارة من النواب ، فاتفق أن قرأ محمود ناجي بك نائب طرابلس الغرب رسالة وصلته من أخيه (بحضور مصطفى صبري بصفة نائب عن مدينة توقاد)فقال:" إن كل الأحزاب الإيطالية متفقة على احتلال ليبيا إلا حزبين البناءون الأحرار(الماسونيون (والاشتراكيون ، حيث ورد عن البناءين الأحرار الإيطاليين :" لا يجدر بنا أن نصول على الأتراك حال كون حكومتها في أيدي البناءين الأحرار لأن ذلك يفضي إلى تزعزع مراكزهم

و ذكر مراسل إحدى الجرائد المصرية من أنقرة أن الحكومة الاتحادية التركية الحالية استندت إلى الإسرائيليين والماسونية لتتغلب بها وتستعين بأموالها

ليس هذا فحسب بل كان على رأس لجنة قرار خلع السلطان عبد الحميد الثاني الماسوني اليهودي قره صو الاتحادي

يتبيّن مما سلف أنها حركة قومية طورانيةحبلها السري مربوط باليهود،غرضها النهائي تأسيس دولة علمانية وفق الأنموذج الغربي في السياسة والحكم وقطع كل صلة لها بالإسلام وما تعلّق به من لغة ومعالم وأسماء وشريعة و...وهو ما يبرر المساهمة في تسليم فلسطين لليهود تحت غطاء الخضوع للحملات الدبلوماسية التي مارستها البعثات السياسية الغربي في الآستانة سنة ١٩١١م

2/3 الحركة الكمالية :

انتقل الحكم بعدها إلى وريثهم الشرعي المعروف بالكماليين ، لأن الفريق الأول ليس سوى مهيئا لظروف جديدة ستفرض بقوة السنان على الأمة، إذ كانت أعمال الاتحاديين بمثابة إرهاصات إلغاء الخلافة ، ولعل من علامات ذلك إبعاد اللغة العربية من التداول الرسمي بل والشعبي ثم إلحاق المحاكم الشرعية بوزارة العدل الحاكمة بغير شرع الله حتى في الأحوال الشخصية (قانون الأسرة)...وبدؤوا ينكثون عرى الإسلام عروة عروة إلى أن تم لهم إلغاء الخلافة سنة١٩٢٤ م ، وتحقق أمل الأوربيين في جعل تلك البلاد دولة لائكية وفق الأنموذج الغربي

حقيقة الحركة الكمالية :

تعتبر الحركة الكمالية امتدادا طبيعيا للاتحاديين ، ظهرت نواتها الأولى باسم " الحرية العثمانية " ، أسسها مصطفى بن علي(ت ١٩٣٨م) بمدينة دمشق مع مجموعة من الضباط الأتراك ،كان بعضهم بما فيهم المؤسس يحضرون اجتماعات الاتحاديين ويعلنون عدم مخالفة سياستهم في بعض الأحيان... لهذا كان الصراع بينهما صراع نفوذ ، خاصة إذا استصحبنا الفكرة السابقة، ولأننا لو نظرنا إلى الحركتين من زاوية الخلفية السياسية والثقافية والحضارية لوجدناهما وجهين لعملة نقدية واحدة ...

استغل الكماليون كسابقيهم الأوضاع المأساوية المشحونة بالخوف ، وبدءوا يمهدون للاستحواذ على السلطة، فأعلن أتاتورك استقلاله عن الحكومة المركزية واستقر في أنقرة ثم أسرع إلى اتخاذ إجراءات هامة منها الدعوة إلى عقد المجلس الوطني الكبير(23/04/1920) م)، وانتخب في تلك الأثناء رئيسا للمجلس والحكومة واختار أنقرة عاصمة للدولة الجديدة ، وتم له في الوقت نفسه تسوية بعض المشاكل مع الدول الغربية..تكاتفت هذه العوامل وغيرها(الإعلام الغربي اعتبره محرر إزمير في تلميع صورة الرجل في البيئة الإسلامية .

انتقل بعد الهيمنة على مقاليد الحكم إلى إعلان الفصل بين السلطة والخلافة(10/11/1922) م)وظهر التلاعب بالقوانين فسنّ قانون الخيانة العظمى الذي نكّل بموجبه بكل معارض ، وطورد بموجبه العلماء والطلبة ونخبة المجتمع من المعارضين ، وكان من بين من نعرّض للمضايقة زاهد الكوثري ومصطفى صبري وسعيد النورسي وغيرهم كثير .

وتنتهي تلك الفترة الحالكة من تاريخنا السياسي بإلغاء الخلافة بتاريخ(١٩٢٤/٠٣/٠٣م)وإزالة كل متعلقاتها (تطبيق الشريعة ،المحاكم الشرعية، اللغة العربية، الحجاب ،منصب شيخ الإسلام ...)وعدّل الدستور بتاريخ(١٩٢٦/٠٤/٢٠م) وحذفت منه المادة الثانية التي تنص على أن الإسلام دين الدولة( )،وفشت مظاهر الفساد والإلحاد، وأجبر أتاتورك نساء أنقرة على نبذ الحجاب، وخرجت زوجته ترتدي ثياب الرجال وتحرّض النساء على المطالبة بمساواتهن بالرجال،ثم أزيحت الحواجز بين الجنسين في السفن والمراكب والمسارح و الأماكن العمومية، وانتقلوا بعدها إلى منع تعدد الزوجات ورفع سن الزواج،ليس هذا فحسب بل دعوا إلى أسوا من ذلك على الإطلاق، فدعوا إلى الأفكار القومية التي جبّها الإسلام ممثّلة عندهم في الوثن التركي بوزقوت (الذئب الأبيض (وتغنوا بأناشيده، و صار بعدها صورة متداولة على الطوابع البريدية

وتحقق للكماليين مبتغاهم و أنشأوا دولة مسايرة لمدينة أوربا والغربعلى حساب الإسلام والحضارة الإسلامية،وفي ذلك يقول أحدهم" إننا عازمون على أن ندوس بأقدامنا وننسف كل موانع وحوائل في طريقنا التي تذهب بنا من الشرق الذي ودعناه إلى الغرب الذي يممناه حتى أن التغرّب لا يقتصر على شؤوننا الرسمية و قوانيننا بل ستكون أدمغتنا و عقليتنا غربية واختاروا بموجب هذه السياسة القوانين السويسريةبديلا عن الشريعة .

ومما سلف بيانه يتّضح أنهم بمثابة سدنة اليهود والغرب في البلاد الإسلامية عامة وتركيا على الخصوص،عملوا على تعطيل الشريعة وبعث الأفكار الجاهلية التي تمثّلها الطورانية

ثالثا:التيارات الثقافية

)هيّا) المهيمنون الجدد على السياسة جوا ثقافيا محققا لرغباتهم ، مستغلين في ذلك الجو الذي ولّده الجمود الثقافي في المجتمع العثماني. وبإيعاز مباشر منهم حينا وغير مباشر أحيانا أخرى احتضنت البلاد العربية التيارات الثقافية الانفصالية،إذ ظهرت الدعوة إلى القومية العربية في بلاد الشام على أيد النصارى الذين استوحوا أفكارهم من رجال التنصير الأوربيين والأمريكيين

ظهرت في لبنان المدارس اليسوعية الموجّهة دينيا من روما وسياسيا من فرنسا ،ثم سرّبت في القرن الثامن عشر إلى سوريا لهذا اعتبر نصارى الشرق رواد الحملات الصليبيةالجديدة، واعتبرت مؤسساتهم التعليمية أوكارا للتآمر على الإسلام والمسلمين .

تبنى عرب الشام القومية العربية بطريق تلك المؤسسات وبمباركة ورعاية القوتين الفرنسية والأمريكية ، ومكّن للفكرة من خلال مؤسساتهم التعليمية والخيرية، وفي إطارها وبرعايتهم برزت الجمعيات الأدبية المروّجة لأفكار اليسوعيين والمبشرين .

3/1المؤسسات التي ظهرت بمباركتهم :

-1تأسيس جمعية علمية برعاية الإرساليات الأمريكية سنة ١٨٤٢م، وظهرت بعدها جمعية علمية غامضة الأهداف عرفت باسم" جمعية الفنون والعلوم" وكان ذلك سنة ١٨٤٧م،ساهم في بعثها رجال من مختلف الجنسيات ومن طبقات اجتماعية متنوعة .

-2ظهرت الجمعية الشرقية برعاية الأب اليسوعي هنري دوبرنير،وتأسست بعدها الكلية اليسوعية التي عرفت فيما بعد بجامعة القديس يوسف سنة ١٨٦٦م .

-3دشّنت في الفترة نفسها الكلية البروتستانتية المعروفة فيما بعد بالجامعة الأمريكية بهدف إحياء الأدب العربي القديم

-4انبثق عن المؤسسة السابقة جمعية خريجيها، وكان ذلك سنة ١٨٧٥م،سعت هذه الجمعية إلى نشر أفكار الجامعة، وكانت أفكارها تقليدا لحزب تركيا الفتاة

إن عملا كهذا يؤكد أن مصدر البلاء الذي حلّ بالعالم الإسلامي- و بما لا يترك مجالا للشك - هو بلاد الشام ،فمنها بدأت الدعوة إلى العلمانية(اللائكية) سنة1875 م،أي قبل ظهورها في تركيا نفسها، ومن تلك البلاد بدأت الدعوة إلى زعزعة مكانة اللغة العربية وإحلال العامية مكانها وهذا قبل ظهور ما في مصر وتركيا والجزائر( )و غيرها من بلاد المسلمين، و كانت السباقة إلى تبني القومية والدعوة إليها ، وهذا قبل ظهورها في تركيا وباقي البلاد العربية على يد ساطع الحصري(أبو خلدون

وبهذا يتّضح أن بعض العرب العثمانيين ساهموا في تقويض ملكهم(الدولة العثمانية (،بمساعدة جحافل المستشرقين على ترويج أفكارهم(العلمانية،و العامية،و النزعات القومية،والحركات الانفصالية،

وقد وجدت هذه الأفكار أرضا خصبة فنمت وبسرعة فائقة لتعهّدها بالحماية والصيانة من قبل أعداء الأمة، وخاصة المحافل الماسونية ؛ فكانت بمثابة القنبلة الموقوتة التي ساهمت بقسط وفير في التعجيل بسقوط الدولة العثمانية .

3/2المحافل الماسونية

تعتبر المحافل الماسونية الخزان الثقافي والاقتصادي للمعارضة المتآمرة على كيان الأمة الإسلامية،فقد كانت تموّل الأحزاب والجمعيات المتآمرة بالأفكار و المال والرجال بمباركة القوى السياسية الأوربية ( )

تعد الماسونية من أعظم الجمعيات السرية وتعرف بالبنائين الأحرار،ظل منشؤها غامضا مجهولا أو على الأقل سريا كغاياتها المبهمة حتى بالنسبة لأتباعها،لقد اقتبست أفكارها من المصادر اليهودية والمسيحية والفرعونية...و لا تعترف بالأديان، لهذا قال أحدهم:" إن رجال الدين يريدون عن طريقه السيطرة على أمور الدنيا، وعلينا أن لا نألوا جهدا في التمسّك بفكرة"حرية العقيدة" وألا نتردد في شيء خاصة محاربة الأديان لأنها العدو الحقيقي للبشرية، ولأنها السبب في التطاحن بين الأفراد والأمم عبر التاريخ"إلى أن يقول:"لا بد أن نكافح بجهد أكبر لإدماج القوانين والنظم اللادينية ، لأن السلطة المطلقة التي حققها رجال الدين على وجه الخصوص قد قاربت النهاية، لا بل آلت إلى الزوال ."

و تزعم الماسونية أنها مؤسسة فلسفية تحب الخير للإنسانية، هدفها الأساسي إيجاد صيغ ممتازة للتعاون والتآزر بإشاعة أخلاق ومبادئ دنيوية يركّز فيها على التسامح)وفق منظورهم) المتبادل وحرية الضمير، وترك ما يتعلّق بما وراء الطبيعة للقناعة الشخصية، لهذا عملوا على صرف أنظار الناس عن الحماس الديني والمذهبي... ينبني مشروعهم على الثالوث"الحرية المساواة والإخاء" ، ولا يمكن تحقيق ذلك باحترام ظاهري للعقائد و الأديان، بل لا بد من نبذها ومحاربتها في كل الشعوب والأمم، ويظهر ذلك في رفضهم قبول المتدينين الصادقين في جمعياتهم .

أما وسائلهم فتتلخّص في إغراء أصحاب القرارين السياسي والثقافي بالمال والجاه، وغيرها من وسائل الترغيب،وهذا لما تملكه من سلطة وهيمنة قانونية ومعنوية على المؤسسات العالمية.( ) في ظل الظروف السابقة أصبحت الثقافة المهيمنة متسمة بصبغة خاصة متناغمة مع الشروط التي أملتها المعطيات الثقافية والسياسية الجديدة .

3/3الثقافة المهيمنة

يعرف هذا العصر من الناحية الثقافية بعصر الإعجاب بالآخر،اقتصر الإعجاب في بداية أيامه على الميدان السياسي ونظرا لارتباطه الوثيق بالثقافة انتقل الإعجاب إلى الميدان الثقافي، وفي هذا السياق وصف العهد الحميدي بالاستبداد والظلم والقهر...وأصبحت الدولة العثمانية سببا مباشرا لتخلّفنا وفق تصوّرهم .

وبعد أن ألحقت كل نقيصة سياسية بالنظام السياسي العثماني (الإسلامي)ألحقت كل نقيصة ثقافية بالثقافة الإسلامية، فوصفت بالجمود و الركود و الانحطاط والانغلاق وغيرها من الأوصاف، التي ليست إلا تعبيرا عن موقف الآخر من الثقافة الإسلامية الأصيلة بألسنة عثمانية .

وسرى هذا الداء إلى الأوساط العلمية الإسلامية،فقال أحدهم بعدم دينية الفقه، وقال آخر بعدم جدوى الاستدلال على وجود الله تعالى بالأدلة العقلية( )، ومال ثالث إلى القول بجواز التعبّد بالقرآن المترجم( )، وذهب رابع إلى عدم الاعتداد بالدليل النقلي لأنه ظني سحب تقديره( )، وسجّل خامس أن القرآن الكريم متشابه في مجموعه، يفهم هذا المعنى من قوله: هل يتفق وحكم العقل بأن جهنم التي بلغ حجوم شررها القصور الشامخة يستطيع من يلقى فيها أن يحيا ويأكل ويشرب ويجادل ويطلب الخلاص ( )"

كانت سلطة زمنية و ليست سلطةρوراح سادس يردد قول المستشرقين بأن دولة الرسول دينية( ) مما يوحي أن الإسلام لا صلة له بالسياسة .

اقتضى هذا الجو السياسي و الثقافي اتخاذ مواقف صريحة مما يجري في بلاد المسلمين، وفي ظل الظروف المشحونة بالإرهاب الفكري والقانوني عمل الكوثري على نشر أفكاره وبعث الحياة من جديد بين أفراد أمته ،فاستصحب ذلك الجو في رسم خطة التغيير التربوي الروحي التي تجعل من القرآن الكريم معينها الذي لا ينضب

المؤامرة العالمية :

كانت أطراف هذه المؤامرة الشريرة تشمل كلاً من العلمانيين والماسونيين وكلاهما ممثل في جمعية 'الاتحاد والترقي' والدول الأوروبية ممثلة في إنجلترا وفرنسا وروسيا والقوميين الطورانيين أي الأتراك ممثل في حزب 'تركيا الفتاة' ومن خلف الجميع اليهود يقودون زمام المؤامرة ويوجهونها لخدمة أغراضهم الخبيثة، وجاء مسلسل خلع السلطان عبد الحميد على الترتيب الآتي :

١- استغلال لعبة الدستور :

وذلك أن السلطان عبد الحميد عندما تولى الحكم وتحت ضغط الحركات الداخلية اضطر لإعلان الدستور وتشكيل مجلس عموم، ولكنه استغل خطأ مدحت باشا كبير العلمانيين المنادين بالدستور وعزله من منصبه وألغى الدستور وأعاد العمل بالشريعة وذلك سنة1296 هـ، وظل الدستور معطلاً حتى زادت قوة جمعية الاتحاد والترقي

وضعفت الدولة العثمانية من كثرة الفتن الداخلية والخارجية فقامت هذه الجمعية بإشعال المظاهرات المطالبة بتطبيق الدستور وذلك سنة ١٣٢٦هـ، وكانت المظاهرات عارمة فاضطر السلطان عبد الحميد لإعلان الدستور مرة أخرى. ٢] حادثة ٣٠ أبريل :

فوت السلطان عبد الحميد الفرصة على المتآمرين عندما وافق على إعلان الدستور إذ كان من المقرر أن يخلعوا عبد الحميد بمجرد رفضه لإعلان الدستور، لذلك عمد هؤلاء المتآمرين لاختلاق حادثة ٣٠ أبريل، وهي حادثة وقعت في استانبول وقتل فيها عدد من عسكر جمعية 'الاتحاد والترقي' وعلى إثر هذه الحادثة تحركت قوات الاتحاد والترقي من' سلانيك' وتوجهوا إلى استانبول، ودخلوا قصر الخلافة وقتلوا كثيرًا من أهله بلا سبب , وقالوا: إن السلطان يدبر لإلغاء الدستور وإحياء الشريعة وقتل رجال الاتحاد والترقي وأعلنت الأحكام العرفية، وشكل ما يعرف بالمجلس الملكي الذي وجه عدة تهم لعبد الحميد كلها كذب وزور، بل مضحكة أيضًا منها اتهامه بتدبير حادثة ٣٠ أبريل، والإسراف والظلم وسفك الدماء وإحراق المصاحف! والعجيب في لغة خطاب المنشورات التي كانت توزع ضد عبد الحميد حيث استخدموا الدين لخدمة أغراضهم رغم كونهم من أعدائهم ولم يفتهم أيضًا أن ينتزعوا فتوى من مفتي الدولة وقتها 'محمد ضياء الدين' وتم خلع عبد الحميد في ٢١ صفر سنة ١٣٢٧هـ، وذهب وفد مكون من أربعة أشخاص 'آرام' الأرمني، 'أسعد طوبطاني' ألباني، 'عارف حكمت' تركي، 'عمانويل قراصو' يهودي لإبلاغ عبد الحميد خبر خلعه، فوافق في هدوء ولكنه أبى إلا عزًا من أوله إلى آخره؛ حيث أشار إلى 'قراصو 'وقال: 'وما هو عمل هذا اليهودي في مقام الخلافة؟ وبأي قصد جئتم بهذا الرجل أمامي ,' وإنما جاءوا به ليعرف ويعرف العالم كله أن اليهود هم الذين كانوا وراء

وعلى الرغم من كل تلك الأحداث، والتكالب الأجنبي على أراضي الدولة العثمانية، إلا أن السلطان عبد الحميد الثاني استطاع بحنكته السياسية وشخصيته القوية أن يسير بالدولة إلى شاطئ النجاة، وتفادي الحروب، وأخذ يعمل على تقوية أواصر الأخوة بين الشعوب الإسلامية، القاطنة في الدولة العثمانية أو في الخارج كأقليات. ونجح في سياسته تجاه الجامعة الإسلامية، وفي القيام بأعمال تخدم المسلمين في أنحاء الدولة العثمانية.ومن ثم فقد تعرض السلطان عبدالحميد من لدن المستغربين والدول الغربية نفسها إلى أشنع الافتراءات، ووصف حكمه بالاستبداد، وشخصه بالسلطان الأحمر. هذا على الرغم من استعمال سياسة اللين مع خصومه، وتحويل نفورهم منه إلى محبة، بعد إغرائهم بالمناصب. غير أن حادثة ٣١ مارس دفعه إلى

إعلان المشروطية الثانية عام1326 هـ)، والتي مكنت حزب الاتحاد والترقي من زمام الأمور، ثم من عزل السلطان عبدالحميد من الحكم عام1327 هـ). وقد نقل السلطان عبدالحميد إلى سلانيك، وبقي فيها إلى نشوب

الحرب العالمية الأولى عام1334 هـ

(فنقل على إثرها إلى قصر بيلر بكي في إستانبول، وبقي فيه حتى وفاته عام ١٩١٨م) .

اتسم السلطان عبدالحميد الثاني بقوة الشخصية، والتأثير على مخاطبيه، والتدين والزهد، والأدب الجم. وكان أقوى سلاطين الدولة العثمانية في عهد التقهقر، وأعلاهم سياسة في الداخل والخارج. وقد قام بالعديد من الإصلاحات التعليمية والإدارية .

وكان له خمسة عشر من الأولاد، هم: عبدالرحيم، ومحمد عابد، ونور الدين، ومحمد بدر الدين، ومحمد برهان الدين، ومحمد سليم، وعائشة، خديجة، ونائلة، ونعيمة، وزكية، وعلوية، وشادية، وسامية، ورفيعة- .

محمد رشاد ابن السلطان عبدالمجيد خان

ولد محمد رشاد المعروف بمحمد الخامس ابن السلطان عبدالمجيد عام1260 هـ

تولى حكم الدولة العثمانية عام ١٣٢٧هـ بعد خلع أخيه السلطان عبدالحميد الثاني . وكانت أوضاع الدولة العثمانية في عهده تسير من سيء إلى أسوأ .وخاصة بعد انتشار الحركات القومية في أنحاء الدولة العثمانية، سواء بين الرعية من غير المسلمين، أو بين المواطنين المسلمين. وإضافة إلى نشوب تمردات انفصالية في البلقان، فقد هاجمت إيطاليا طرابلس الغرب، وتخلت الدولة العثمانية عنها وعن بنغازي 1912)م)، كما وقعت الحرب بين الدولة العثمانية واليونان وبلغاريا في السنة نفسها، وقد خرجت كافة أملاك الدولة العثمانية في الروملي ما عدا أدرنة من حكم الدولة العثمانية1913) م). كما أصبحت الدولة العثمانية حليفة لألمانيا في الحرب العالمية الأولى، التي خسرت فيها أجزاء واسعة من أراضيبها، ولا سيما البلاد العربية جميعها. وقبل انتهاء الحرب توفي السلطان محمد الخامس1918 . ودفن في حي أيوب بإستانبول .

كان السلطان محمد الخامس حليماً سليماً مشفقاً مرهفاً. وكان يساعد الفقراء والمحتاجين. وقد اتسم بحسن الخلق والتواضع .وكان له خمسة من الأولاد، هم: محمود، ونجم الدين، ومحمد ضياء الدين، وعمر حلمي، ورفيعة- .

محمد وحيد الدين ابن السلطان ابن السلطان عبدالمجيد

ولد السلطان محمد وحيد الدين المعروف بمحمد السادس ابن السلطان عبدالمجيد عام ١٢٧٧هـ)

انتقلت إليه سدة الحكم عام ١٩١٨م، عقب وفاة أخيه السلطان محمد الخامس. وكان عهده أسوأ العهود في التاريخ العثماني، لا لكونه سيئاً، وإنما آلت إليه الأمور على ذلك النحو. حيث خرجت الدولة العثمانية من الحرب العالمية الأولى منهكة القوى .وتعرضت عاصمة الدولة لخطر هجوم الإنجليز. كما وقعت في هذا العهد بعض المعارك مع اليونانيين. وعقدت عدة معاهدات للصلح بين الدولة العثمانية وبعض الدول الغربية، مثل معاهدة سيفر، التي وقعت بين الدولة العثمانية وفرنسا عام ١٣٣٩هـ) ووقع، في هذه الأثناء، صراع شديد بين الحكومة الوطنية بزعامة كمال آتاتورك وبين حكومة إستانبول، انتهى ذلك الصراع بموافقة حكومة أنقرة على مطالب الإنجليز في الاعتراف بها، وعلى رأسها إلغاء الخلافة الإسلامية، وطرد الخليفة محمد السادس خارج حدود تركيا- .استقبلته بارجة إنجليزية متوجهة إلى مالطا 1922)م). ثم توجه إلى مكة المكرمة بدعوة من الملك حسين بغية استعادة حقوق الخليفة المغصوبة.
ولما علم أنه لا يستطيع عمل شيء، رجع إلى سان ريمو الإيطالية، وبقي فيها إلى وفاته عام ١٩٢٦م- .ثم نقلت رفاته إلى الشام بموجب وصيته. وكان عمره آنذاك خمسة وستين عاماً. وكان له ستة من الأولاد، هم: أرطغرل، ومحمد، وفاطمة علوية، ومنيرة، ورقية، وصاحبة- .

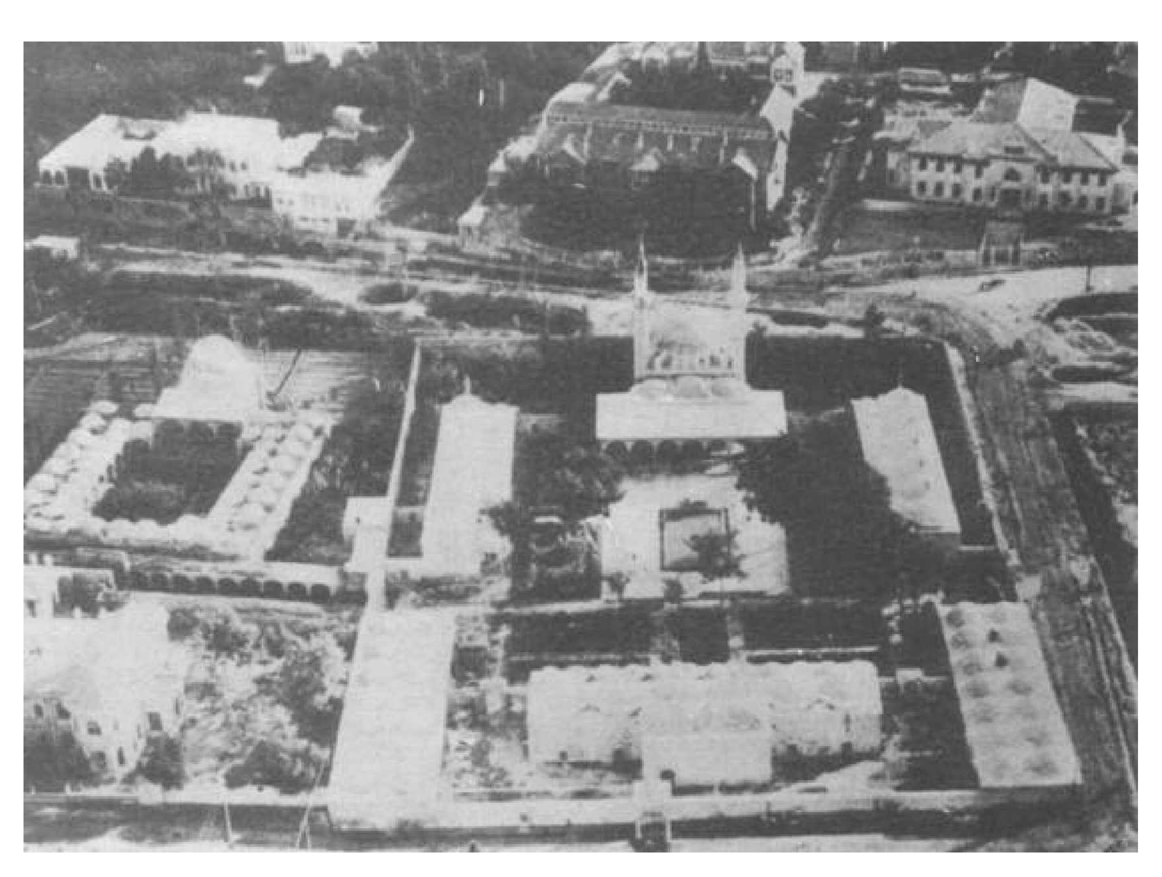
نصبت حكومة أنقرة، بعد طرد السلطان محمد السادس، عبدالمجيد ابن عبدالعزيز أفندي خليفة للمسلمين، مجرداً من منصب السلطة) السلطان). غير أنه بالنظر لإلغاء الخلافة الإسلامية، بيد مصطفى كمال آتاتورك، عام ١٣٤٣هـ)، فقد اضطر إلى مغادرة تركيا .

وهكذا فإن سلسلة سلاطين آل عثمان، التي بدأت حلقاتها منذ قيام الدولة العثمانية بالأمير عثمان بن أرطغرل عام ٦٩٩هـ قد انقطعت بذلك القرار، وقامت حكومة الجمهورية التركية على أنقاض الدولة العثمانية، بزعامة رئيسها الجديد مصطفى كمال آتاتورك..............

****
****
****
****
****
****
***
*

الـتـكـيـة الـسـلـيـمـانـيـة

التكية السليمانية هي مسجد في دمشق يعد من أهم الآثار العثمانية في المدينة. سميت نسبة إلى السلطان سليمان القانوني الذي أمر ببنائها عام ١٥٥٤ في الموضع الذي كان يقوم عليه قصر الظاهر بيبرس المعروف باسم "قصر الأبلق". التكية من تصميم المعماري التركي المعروف سنان، وأشرف على بنائها المهندس الإيراني الأصل ملا آغا. بدأ بناؤها سنة ١٥٥٤ وانتهى سنة ١٥٥٩ في عهد الوالي خضر باشا، أما المدرسة الملحقة بها فتم بناؤها سنة 1566 في عهد الوالي لالا مصطفى باشا. أبرز ما يميز طراز التكية السليمانية مئذنتاها النحيلتان اللتان تشبّهان بالمسلّتين أو قلمي الرصاص لشدة نحولهما، وهو طراز لم يكن مألوفاً في دمشق حتى تلك الحقبة. تضم التكية قسمين: التكية الكبرى التي تتألف من مسجد ومدرسة، والتكية الصغرى التي تتألف من حرم للصلاة وباحة واسعة تحيط بها أروقة وغرف تغطيها قباب متعددة. كانت التكية الصغرى مأوى للغرباء وطلبة العلم، وتضم اليوم المتحف الحربي وسوق الصناعات الشعبية.



الصورة :صورة للتكية السليمانية من الجو التقطت في بداية الثلاثينات من القرن العشرين. تبدو التكية الكبرى في الوسط وإلى يسارها التكية الصغرى (سوق الصناعات الشعبية اليوم .(في أعلى الصورة إلى اليمين مبنى رئاسة الجامعة السورية (بني عام ١٩٢٩)، ويليه في الوسط المستشفى الوطني أو مستشفى الغرباء .

حاضرة الدولة العثمانية

تقع مدينة «أستانبول» فى الجزء الأوربى من تركيا، فوق مدينة «القسطنطينية» الرومانية القديمة، وهى ذات طابع جغرافى فريد، إذ يحدها من الشمال البحر الأسود ومن الشرق بحر مرمرة ومن الجنوب بحر إيجة ومن الغرب شريط ضيق من الأرض متصل بقارة أوروبا. وترجع أهمية هذا الموقع فى أنه يجعل أستانبول أحد أهم نقاط الاتصال بين قارة آسيا وقارة أوربا، وأنها تعد من أحصن المواقع الاستراتيجية فى العالم، كما أنها تعد مفتاح أوربا من الشرق.

أستانبول عبر التاريخ:
دخلت مدينة «إسلام بول» التاريخ الإسلامى والعالمى لتحل محل مدينة «القسطنطينية» الرومانية القديمة منذ أن فتحها السلطان محمد الفاتح سنة (٨٥٧هـ) فغير اسمها إلى «إسلام بول» ثم حرفت إلى «أستانبول» بعد ذلك، وقام السلطان محمد الفاتح بتغيير الكثير من معالم المدينة الرومانية القديمة فحول كنيسة «آيا صوفيا» إلى مسجد كبير، وقام ببناء مسجد عند ضريح أبى أيوب الأنصارى، وبعد ذلك أصبح تنصيب السلاطين يتم عند هذا المسجد. وبعد وفاة بايزيد الثانى ابن محمد الفاتح، تسلم السلطة سليم الأول الذى ضم المشرق الإسلامى وشمال إفريقيا إلى الدولة العثمانية وانتقلت الخلافة الإسلامية من القاهرة إلى أستانبول. واستمرت أستانبول فى دورها التاريخى كحاضرة لدولة الخلافة العثمانية إلى أن انتقلت العاصمة من أستانبول إلى أنقرة وسط الأناضول عام (١٩٢٣م)، ورغم ذلك فمازالت تعيش المدينة ماضيها المتألق وذكريات مجدها الغابر وظلت قلب تركيا الثقافى والإقتصادى.
استانبول.. معالم وآثار

١-قلعة روميلى حصار: وهى القلعة التى بناها السلطان محمد الفاتح تمهيدًا لفتح القسطنطينية ولإحكام الحصار حولها، وتعد قلعة روميلى حصار من أهم معالم مدينة أستانبول التاريخية، وتتميز القلعة التى تطل على مضيق البوسفور بأسوارها وأبراجها العالية.

٢-مسجد آيا صوفيا: بعد أن تم فتح القسطنطينية عام (٨٥٧هـ) وقام السلطان محمد الفاتح بتحويل كنيسة «آيا صوفيا» إلى مسجد بعد أن أقام لها أربع مآذن، وظل مسجد آيا صوفيا من أبرز معالم أستانبول. إلى أن جاء مصطفى كمال وحول المسجد إلى متحف (!!) فى محاولة للتقرب إلى أوربا.

٣-قصر طوبقابى: بناه السلطان محمد الفاتح بعد فتح القسطنطينية، وكان قصر طوبقابى مقر حكم آل عثمان لفترة طويلة، وحوله بيوت الوزراء والأصدقاء والعسكر، وتحول قصر طوبقابى الآن إلى متحف يضم مجموعة من أهم الآثار الإسلامية، وبه مقتنيات من كافة أنحاء العالم الإسلامى، وفى هذا المتحف يوجد «مصحف عثمان» وهو أول مصحف مدون بالخط الكوفى، وبردة النبى صلى الله عليه وسلم التى أهداها للشاعر كعب بن زهير، ومجموعة كبيرة من اللوحات والنقوش والزخارف والسيوف واللآلئ المحلى بها الخناجر والعروش والتى تظهر جميعًا روعة الفن الإسلامى الذى يفتن السياح الذين يزورون المتحف.

٤-جسر البوسفور: وهو أشهر جسر فى العالم؛ فهو الوحيد الذى يربط بين قارتين، وهو رابع أطول جسر فى العالم، وهو عمل هندسى كبير يرتفع فوق سطح الماء (٦٤) مترًا ليسمح بمرور أعلى البواخر وأكبر الناقلات.

٥-جامع السليمانية: يقع فى منطقة السليمانية وهو من روائع فن العمارة الإسلامية، ولقد تفوق المسجد فى بنائه وتصميمه على «آيا صوفيا» رائعة العمارة البيزنطية، حيث يمتاز بسعته وارتفاعه، وتفرده بالمآذن الأربع، وقد صمم المبنى المهندس المعمارى الشهير "سنان" الذى يعتبر من رواد فن العمارة الإسلامية.

٦-المكتبة السليمانية: وهى واحدة من أكبر المكتبات فى العالم الإسلامى، أنشأها السلطان العثمانى سليمان القانونى عام (٩٥٧هـ/١٥٥٠م)، وصمم مبنى المكتبة المعمارى الشهير سنان، ويتبع المكتبة السليمانية الرئيسية المنسوبة إلى السلطان سليمان عدد من المكتبات الخاصة التى أنشأها أفراد.
ويبلغ عدد ماتحتويه المكتبة السليمانية من كتب مخطوطة ومطبوعة (٩٨٩٥٥)، منها (٦٤٢٦٧) مخطوطة معظمها باللغة العربية، (٨٩٩٢) والباقى بالفارسية والتركية. هذا مع العلم أن نظام حصر المخطوطات وإحصائها لا يذكر النسخ المكررة للكتاب الواحد.
وقسم الفهارس فى المكتبة أنشئ فى نهاية عام (١٩٧٩م) ومقره السليمانية وهو يضم ثلاثة فروع، فرع لفهرسة المخطوطات العربية، والثانى للتركية والثالث للفارسية. .

****

حامد آيتاش الآمدي

شيخ الخطاطين المبدعين في تركيا

١٨٩١-١٩٨٢م

د. حسن المعايرجي

في أحد مستشفيات استانبول طويت في هدوء صفحة مجيدة لآخر عباقرة الخط العربي في تركيا، وقد رثاه عارفوه على صفحات المجلات والصحف التركية. وهالني وللأسف أنه لم تُشِر إليه أية صحيفة أو مجلة عربية من قريب أو بعيد مع فضل الرجل وغزارة التراث الذي خلفه. وقد وافاه الأجل المحتوم يوم الأربعاء ١٩ مايو/أيار الماضي ١٩٨٢.. وبوفاته فقدَ العالم الإسلامي رجلاً من خيرة أبنائه وقف حياته لكتابة القرآن الكريم، رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته..

رحلة العلم

ولد الشيخ حامد الآمدي في ديار بكر بتركيا عام ١٣٠٩هـ - ١٨٩١م واسمه الحقيقي الشيخ موسى عزمي، واشتهر بحامد أيتاش الآمدي نسبة إلى «آمد» وهي قرية في ديار بكر. والده «ذو الفقار» ووالدته «منتهى»، وكان جده خطاطاً، درس في الكتّاب في مسجد «أولو» بقريته وأكمل دراسته الثانوية بالمدرسة العسكرية الرشيدية بديار بكر ثم انتقل إلى استانبول لدراسة القانون حيث أمضى سنة واحدة في «كلية الحقوق» أو «مكتب القضاة» كما كانت تسمى، ثم انتقل إلى أكاديمية الفنون الجميلة والصنايع، وكان ذلك بمعاونة أستاذه «مدحت بك» الذي لاحظ موهبته في الخط، وفي هذه الأثناء توفي والده واضطر إلى ترك الأكاديمية للعمل وكسب القوت.

وقد تعلم الخط الثلث علي يد أحمد حلمي بك، كما تعلم الرقعة على يد وحيد أفندي، ثم عمل مدرساً ثم خطاطاً في دار الطبعة، ثم تقدم للعمل في مطبعة المدرسة العسكرية ونال إجازة امتحان الخطاطين. ثم سافر إلى ألمانيا حيث درس رسم الخرائط وعمل في قوات الصاعقة بالجيش الألماني في أثناء الحرب العالمية الأولى، وعند عودته إلى استانبول تعلم «الجلي ثلث» من الحاج نظيف بك وكتابة الطغراء من إسماعيل حقي وغيرهم من مشاهير الخطاطين في عصره.

ومن آثاره التي يمكن مشاهدتها في تركيا والعراق ومصر، ما تركه من كتابات قرآنية، في مسجد شيشلي ومسجد أيوب ومسجد باشباهشي ومسجد حاجي كوشك في استانبول وقبة مسجد كوخاتيب في أنقرة، ومساجد أخرى كثيرة في استانبول ودنزلي وشانا قلعة.

كما كتب أربعين حديثاً نبوياً وكثيراً من كتب تعليم الخط والآلاف من مختلف الكتابات الإسلامية والمدائح النبوية والأشعار وغيرها.

وكان قمة إنتاجه نسخ المصحف الشريف مرتين بخط يعتبر من أجمل الخطوط.

وله تلاميذ كثيرون في تركيا والشام والعراق، أجازهم ومنحهم شهادات تقليدية تؤهلهم لحمل لقب خطاط، ومن الغريب أن تعلمتْ على يديه طالبة يابانية أجازها في الخط العربي.

وقد زاره كاتب المقال في مكتبه الواقع في خان رشيد أفندي-أنقرة جاد سي- محلة سركه جي باستانبول، وكان قد جاوز السابعة والثمانين عاماً، وكان ما يزال يكتب بنشاط وبيد ثابتة.

ولعل في النماذج المنشورة في كتاباته أحسن تعريف للقارئ العربي بشيخ الخطاطين المبدعين، رحمه الله.

وعزاؤنا هو ما خلفه من آثار كثيرة تعتبر الآن تراثاً للأمة الإسلامية، فورثها مصاحف خطها قلمُه وطبعت في استانبول وبرلين وتعد من روائع المصاحف التي طبعت في العالم، كما أن عزاءنا فيه فيمن خلفوه من

تلاميذه الذين ورثوا عنه أسرار الحرف العربي وقواعد كتابته وأصول خطه، وأذكر منهم الأستاذ حسن شلبي من استانبول أمدّ اللهُ في عمره.

الحرف العربي في تركيا..

وإذا كانت اللغة التركية قد تحولت عن الحرف العربي الشريف إلى الحرف اللاتيني في عام ١٩٢٦م، إلا أن عباقرة الخطاطين ظلوا يؤدون رسالتهم المقدسة: ألا وهي رسالة المحافظة على الحرف العربي بجماله وقمة إبداعه.

وإذا تحدثنا عن الحرف العربي الشريف فهو ذلك الحرف الذي كتب به القرآن الكريم من ألف ولام وميم ونون وصاد.. فشرفت العربية بقرآن كريم من لدن عزيز حكيم.

فإذا كان الصوت الحسن مع الخشوع عند ترتيل القرآن مستحباً واجباً، فإن الخط الجميل عند تدوينه وكتابته أوجب للمحب. ولقد شعر المسلمون قبل انتشار حروف الطباعة بأهمية الخط الجميل وطواعية الحرف العربي الشريف لهذا الإبداع، فاهتموا به اهتماماً شديداً وخدموه وطوروه وسنوا له من القواعد والقوانين ما ارتقى به إلى أن أصبح الخط العربي على درجة كبيرة من الجمال والكمال والرقي، واعترف العالم كله بذلك.

وكان نسخ مخطوطات القرآن الكريم من أسباب اهتمام المسلمين بالخط العربي، وأصبح تعلم الخط العربي لا يقل أهمية عن باقي علوم اللغة، وأصبح تعلم الخط يقترن بتحفيظ القرآن الكريم لكتابته كتابة صحيحة جميلة.

ولم يكن هذا الاهتمام محصوراً في عامة الناس فقط، بل وفي خاصتهم أيضاً، فكان الخط مادة أساسية في تعليم أبناء السلاطين والكبراء.

وتسلم الخطاطون المبدعون مناصب رفيعة في الدواوين واشتهر من السلاطين بالخط الجميل السلطان مصطفى الثاني (١٦٦٤-١٧٠٤م)، والسلطان محمود الثاني (١٧٨٥-١٨٣٩م) والسلطان عبد المجيد الأول (١٨٢٣-١٨٦١م)، والسلطان عبد العزيز خان (١٨٣٠-١٨٧٦م)، والسلطان عبد الحميد الثاني (١٨٤٢-١٩١٨م). وللقارئ أن يتأمل نماذج من خطوطهم التي كانوا يفخرون بها افتخارهم بما يحفظون من كتاب الله.

دعوة التجديد.. خروج عن القواعد..

وكان القرن الثالث الهجري هو المنطلف الذي تطور فيه الخط العربي على يد ابن مقلة الذي طور الخط الكوفي ورسم الخط الجديد بنسب ثابتة استمرت في تطورها على يد من جاء بعدَه من شيوخ الخطاطين أمثال: ابن عبد السلام وابن البواب وياقوت الذي بلغ الخط العربي على يديه حداً كبيراً من الروعة والجمال، وتعددت الخطوط ونضجت على مر القرون فكان: الثلث، والنسخ، والرقعة، والديواني، والجلي الديواني، والفارسي تعليق، والجلي تعليق، والجلي ثلث وغيرها.

وازدهر الخط العربي في العصر العباسي ازدهاراً كبيراً، وعند انتقال الخلافة إلى العثمانيين أصبحت استانبول مركزاً هاماً للحضارة الإسلامية، وعنوا بالخط العربي الشريف، وكان للخطاطين الحظوة عند السلاطين وكبار رجال الدولة فزينوا مساجدهم بالآيات القرآنية المذهبة، واستعملوا الألوان، وتقدموا بالخط العربي تقدماً كبيراً. ومن أشهر خطاطيهم: الشيخ حمد الله الأماسي، وجلال الدين، والحافظ عثمان، ومحمد عزت وغيرهم كثيرون.

حتى كانت الكارثة التي عزلت الشعب التركي عن تراثه وفصلته عن جذوره الإسلامية باستعمال الحرف اللاتيني فهاجر من هاجر من الخطاطين الأتراك، وعمل بعضهم بمدرسة تحسين الخطوط المصرية بالقاهرة فأنجبوا جيلاً جديداً من الخطاطين حملوا اللواء من أمثال: عبد الله الزهدي (تركي)،ومحمد مؤنس زاده،

والشيخ عبد العزيز الرفاعي، ومحمد جعفر، ومحمد محفوظ، والحريري، وبدوي، وحسني، وغزلان.. وغيرهم. وأدعو الله أن تكون لتركيا عودة إلى الخط العربي، وكذلك غيرها من بلاد المسلمين التي تحولت عن الحرف العربي كالصومال وبنجلادش وماليزيا وأندونيسيا ودول أواسط آسيا ونيجيريا وغيرها.

وكما يرقى الأدب ويضعف برقي الدولة وضعفها، كذلك الخط العربي كان فرعاً من الفنون، يرقى ويضعف برقي الدولة وضعفها، فإذا كنا نمر الآن بفترة ضعف ظهرت آثارها في الأدب من شعر ونثر وخطابة وغيرها من ضروب الأدب فإن الخط العربي يعاني في هذه الأيام من ادعاءات التجديد والتحديث والزخرفة، ويعاني من الخطوط الخارجة على الأصول والقواعد فهبطت به من متاهات لا يعرف مداها، كما حدث في الشعر فأصبح منثوراً خالياً من القواعد والأصول.

واختلطت الخطوط فلا هي نسخ أو ثلث، لا يعرف لها اسم أو قاعدة. وانحدر الحرف العربي من قمته التي سلمَنا إياها شيوخ الخطاطين القدماء لنهبط به على أيدي دعاة التجديد والتحديث.

ولا أكتب تاريخاً للخط العربي إنما هي عجالة من وحي رثاء حامد الآمدي رحمه الله، فلم نذكر شيئاً عن الخط في العراق وفارس والمغرب العربي والأندلس وغيرها من بلاد المسلمين التي ساهمت جميعها بالأفذاذ من الخطاطين المبدعين.

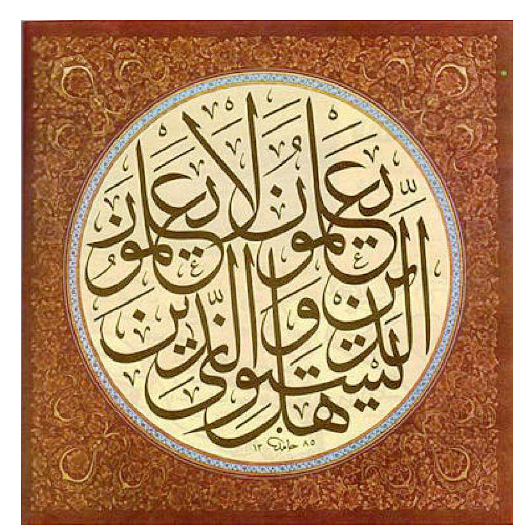
ولعل هذا يكون حافزاً للمتخصصين بإنارة السبيل لنا في هذا الموضوع العام.

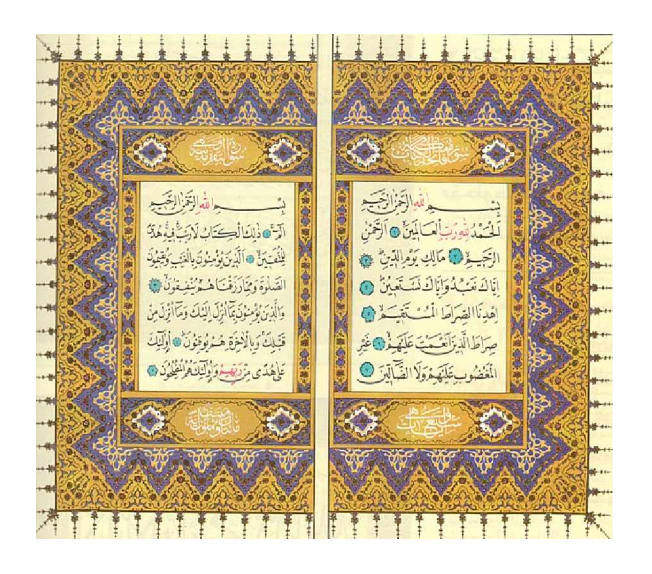
ولمجلة الأمة الغراء مساهمة حافلة مشكورة في إحياء ما أهمل من خطوط رصينة وعريقة نضجت على مرور القرون، وما زلنا نطلب منها المزيد ليس فقط في شكل لوحات شهرية، بل وفي خطوط المجلة جميعها.

كما أدعو جامعة قطر للاهتمام بتحسين الخطوط بطرح ساعة اختيارية خاصة به في كليات الهندسة والشريعة والإنسانيات والتربية أو في نوادي الهوايات والنشاطات الجامعية.

كما أدعو بلاد المسلمين كافة بفتح مدارس تحسين الخطوط للنهوض بالخط العربي الشريف مرة أخرى.

نماذج من خط الآمدي





الجوانب الحضارية في دولة ال عثمان

أحدث عن إستانبول الجميلة.. التى تتلألأ بمبانيها وقلاعها على ضفاف البوسفور.. أحدثكم عن آل عثمان.. و حديثنا سيكون عن مرحلة الخلافة العثمانية فى الفترة من (٩٢٣/١٣٤٣هـ)، ومنذ هذا التاريخ بدأ العثمانيون توسعهم على حساب أملاك الدولة البيزنطية وخاصة فتح عاصمة البيزنطيين القسطنطينية، وتحويل كنيستها الشهيرة إلى جامع آياصوفيا.

وظلت الدولة العثمانية فى مرحلة الدولة حتى سنة (٩٢٢هـ) عندما فكر السلطان سليم الأول فى دخول مصر والشام والقضاء على دولة المماليك التى كانت تعاون أعداءه الصفويين، فهزم المماليك فى معركة "مرج دابق"، ثم دخل القاهرة وقضى عليهم تمامًا عند "الريدانية"، وأعدم آخر سلاطينهم طومان باى، وبذلك بدأ العصر العثمانى فى مصر والشام والحجاز، وأعلن السلطان سليم خليفة للمسلمين بعد أن أسر الخليفة العباسى المتوكل على الله آخر خلفاء الدولة العباسية التى كانت مقامة شكليًا فى مصر تحت نفوذ المماليك.
هذا وقد تناوب على الخلافة العثمانية منذ ذلك الحين (٢٩) خليفة كان آخرهم عبد المجيد الثانى إذ سقطت بعده الخلافة سنة (١٣٤٣هـ/١٩٢٤م).

ولقد كانت الدولة العثمانية -رغم كل ما أشيع عنها من افتراءات- دولة مجاهدة حكمت أجزاء واسعة من العالم الإسلامى..

قد اعتبر كثير من المؤرخين الدولة العثمانية دولة عسكرية نظرًا لدورها الرائد فى الفتوحات الإسلامية وخاصة فتح القسطنطينية، وفتح البلقان وسراييفو، وفتح قبرص بالإضافة إلى فتوح سليمان القانونى فى أوربا، ومن المعارك المهمة فى الخلافة العثمانية معركة بروزة البحرية، ومعركة خانوه بالهند، ومعركة رشيد بمصر.

ورغم ذلك فإن العثمانيين لم يهملوا الجوانب الحضارية التى بنوا عليها خلافتهم الإسلامية التى قامت على الوحدانية المطلقة فى العقيدة، والاستقامة فى الأخلاق؛ فكانت حضارة إنسانية عالمية حققت المساواة العنصرية، والتسامح الدينى، والوعى بالزمن، والرفق بالحيوان.

وأبرز جوانب الحضارة العثمانية نشاهدها فى الآثار المعمارية الرائعة فى مدينة إستانبول ومنها: جامع آياصوفيا الذى حوله محمد الفاتح من كنيسة إلى جامع، ورائعة المعمارى سنان جامع السليمانية، وجامع السلطان أحمد، وعلى ضفاف مضيق البوسفور نشاهد أيضًا قلعة روميل حصار، وقصر دولمة "الباب العالى". ومن المساجد التى بُنيت على طراز العمارة العثمانية جامع محمد على بالقلعة فى القاهرة، وأيضًا جامع سليمان باشا، وجامع محمد بك أبو الدهب.

وكان الطراز الصفوى فى العمارة والفن معاصرًا للطراز العثمانى وخاصة فى فنون التصوير، والخزف، والنسيج، والزجاج والبلور، والحفر على الخشب والعاج والمعادن. ونشاهد روائع من هذه الفنون فى جامع الشيخ لطف الله، وجامع الشاه عباس بأصفهان.
ورغم هذا فقد تميز العثمانيون بفن المنمنمات الذى تطور على أيدى الفنانين التركيين، ولا يفوتنى أن أشير إلى رائعة العمارة الهندية "تاج محل".
ويؤسفنى جدًا أن كثيرا من المؤرخين أهملوا الجانب العلمى فى الحضارة العثمانية، مع أن العثمانيين لم يهملوا هذا الجانب بل اهتموا به وبروافده وخاصة التعليم، والاهتمام باللغة العربية رغم أن التركية هى لغة الدولة.

فمن علماء التاريخ: عارف أفندى، وخوجة سعد الدين. ومن علماء الجغرافيا: حاجى خليفة صاحب كتاب "كشف الظنون".
ومن علماء الطب: داود الأنطاكى صاحب كتاب "تذكرة داود". كما ازدهر الشعر والأدب، وعرف من شعراء العصر العثمانى الشاعر ناظم حكمت، وأحمد باشا.
هذا وقد حرص خلفاء الدولة العثمانية على تنظيم دولتهم على رأسها الباب العالى أو مجلس الوزراء الذى يعمل على متابعة شئون الدولة فى جميع الجوانب وخاصة التقسيم الإدارى، والزراعة والإقطاع، والإشراف على النظام المالى. وكان من بين أعضاء الباب العالى شيخ الإسلام الذى يهتم أساسًا بشئون القضاء والإفتاء والأوقاف.
ونظرًا للفتوحات الواسعة، والأعمال العسكرية للعثمانيين؛ فقد اهتموا بالجيش والأسطول. ومن الجدير بالذكر أن العثمانيين كانوا أول من اخترع المدفع واستعملوه فى المعارك.
وأخيرًا فهناك عشرات بل مئات الشخصيات والأعلام الذين ساهموا فى بناء الخلافة العثمانية.

****

إعادة ترتيب أوراق سقوط الخلافة العثمانية

د. عجيل النشمي

أسباب سقوط الخلافة

١ - التخلي عن منهج الله:- لقد استبشر المسلمون خيراً حينما تحرك الأتراك العثمانيون لإنقاذ العالم الإسلامي من ضعفه وتمزقه، ومكّنهم الله عز وجل من إحراز الانتصارات الكبيرة في آسيا الصغرى حتى وصلوا إلى أسوار القسطنطينية ثم تم لهم فتحها، وإعلان كلمة الله من مآذنها، وأعادوا الطمأنينة إلى قلوب المسلمين، ورضي لهم المسلمون بالخلافة، حينما جعلوا كتاب الله عز وجل منهج حكمهم وطلبوا طاعة المسلمين على ضوئه، فكانوا قوة حصينة دافعوا عن الإسلام وأهله وظلوا هكذا حمىً للإسلام أمام أعداء الله ترهَبهم قوى الأرض قاطبة. والمتتبع لتاريخ الخلافة الإسلامية يجد بوضوح أن بقاء الدولة قوية مهابة الجانب مرهون بتطبيق شرع الله عز وجل في هذه الأرض، لأن شرعية بقاء هذه الدولة إنما هو بتطبيقها هذا الشرع الذي به اكتسب ولاء المسلمين وقيادهم.

ولقد مرت على الدولة الإسلامية عهود تنكّب فيها الحكام والولاة جادة الصواب والهدى وحلّ الظلم والجور والتفرق محل العدل والإنصاف والوحدة،وقد تعطل بعض الأحكام الشرعية لظروف يمرّ بها المجتمع المسلم أو لِحَيْف في التطبيق، إلا أن هذا التعطيل ظل تعطيلاً جزئياً سرعان ما يلتأم ويعود إلى وضعه السليم، الأمر الذي جعل ولاء المسلمين القلبي لهؤلاء الحكام والخلفاء مستمراً رغم تلك المنعطفات الخاطئة، إلا أن تعطيل شرع الله عز وجل كلية بحيث يصل الأمر إلى الفصل بين الدين والدولة ويصبح الخلية خليفة روحياً فقط للمسلمين، أما شؤون حياتهم فليس من شأنه وليس من اختصاصه بل تتولاه دول كافرة، فإن ذلك لم يحدث في تاريخ الخلافة الإسلامية إلا في أواخر خلافة آل عثمان.

وكان أول هذا الانحراف الخطر في عهد السلطان عبد المجيد الذي تبنّى المنهج الغربي الأوروبي تحت ستار التقدم والتطور، وأصدر فرماني التنظيمات عامي ١٨٥٤، ١٨٥٦، ومن ذلك التاريخ أقصِيَتْ الشريعة الإسلامية واستبدل مكانها القوانين الفرنسية والإيطالية وغيرها. وظل أمر الخلافة وتعطيل الأحكام الشرعية يأخذ دوره وطريقه دون إعلان رسمي. وكانت الجمعيات السرية والحركات الهدامة والغزو الفكري الأوروبي تغزو دولة الخلافة من جميع جوانبها حتى استطاعت وتجرأت على إعلان إقصاء الخلافة الإسلامية علناً ورسمياً أمام العالم العربي والعالم أجمع سنة ١٩٢٤ على يد اليهودي مصطفى كمال أتاتورك.

فكان إقصاء شرع الله ومنهجه السبب الرئيسي في سقوط الخلافة الإسلامية كلية، وما يذكَر بعد ذلك من أسباب إنما هو بمثابة التتبع لهذا السبب، وكل سبب هو نوع من أنواع الضنك الغي وثمرة من ثمرات الابتعاد عن منهج الله عز وجل، كما قال تعالى: (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاةَ واتبعوا الشهواتِ فسوف يلقوْنَ غيّاً) [مريم:٥٩] وقال عزَّ من قائل: (ومنْ أعرض عن ذكري فإنّ له معيشةً ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى. قال ربِّ لمَ حشرتني أعمى وقد كنتُ بصيراً. قال كذلك أتتكَ آياتُنا فنسيتها وكذلك اليومَ تُنسى) [طه:١٢٤-١٢٦]. وقال تعالى: (وأنِ احكمْ بينهم بما أنزلَ اللهُ ولا تتبعْ أهواءهم واحذرْهم أن يفتنوكَ عن بعض ما أنزلَ اللهُ إليك، فإن تولوا فإن أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون. أفحكمَ الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً ليوم يوقنون) [المائدة:٥٠].

٢ - الصليبية واليهودية: لم تنسَ الصليبية أحقادها ضد المسلمين، فأوروبا التي انهزمت أمام صلاح الدين استيقظت فجأة على ضربات محمد الفاتح، فاهتزّت وارتاعت وقامت قيامة الغرب فتنادى لاستئناف الحروب الصليبية، ثم ما أن ذاع نبأ موت السلطان الفاتح حتى اعتبرت أوروبا موته بمثابة السلامة من خطر كان محققاً. وبلغ سرورها لهذا الخبر - حسب رواية لافالييه – أن قداسة البابا أمر بأن يعتبر يوم وفاة السلطان يوم عيد، فتقام صلوات الشكر خلال ثلاثة أيام. من ذلك اليوم وأوروبا تستأسد يوماً بعد يوم، وتنتظر الفرصة المواتية لإنهاء دولة الإسلام.

والتقتْ أطماع وأحقاد النصارى بأطماع وأحقاد اليهود، وبدأ التعاون بين الصليبية واليهودية العالمية، وكانت باريس وسالونيك مركزاً لهذا التعاون.

ففي باريس نشأت جمعية الاتحاد والترقي، وكان لها فروع في برلين. وفي سلانيك ألف مجموعة من الشبان الأتراك فرعاً لجمعية (الاتحاد والترقي) وأخذوا يستميلون الوطنيين المخلصين الذي قدروا على اتجذابهم برغم شدة المراقبة، حتى أن بعض المستخدمين في الحكومة انضموا إلى هذه الجمعية، وكانوا يجتمعون في المحافل الماسونية، وكان معظم اجتهاد هذه الجمعية السرية متوجهاً إلى استجلاب الجيش حتى تصير في أيديهم القوة اللازمة لخلع السلطان. واستطاعت هذه الجمعية من استجلاب عدد كبير من الضباط. ولما كانت عصابات البلغار واليونان تعمل بدون انقطاع في بلاد الروماللي، وكانت الدولة تسوق عليهم العساكر لأجل تطهير بلاد الروماللي منهم، وكانوا يعملون في جوار سلانيك، تسنّى لرجال الاتحاد والترقي أن يتصلوا بضباط الجيش وأن يقنعوهم بأن هذه العصائب البلغارية واليونانية إنما تشاغب وتعثو في الأرض لأجل الحصول على إدارة حسنة يستريح في ظلها السكان، وهذه الإدارة غير ممكنة ما دام السلطان عبد الحميد على عرش السلطنة، فأما إذا أمكن خلعه، وجعل الحكم دستورياً شورياً، كما هو في سائر الممالك المتمدنة، فإن جميع هذه المشاغبات تنتهي من نفسها، وتخلد جميع الأقوام إلى السكينة، وهكذا تنجو السلطنة العثمانية من خطر السقوط المحدق بها.

فشرب أكثر الضباط هذه المبادئ التي ليست بعجب أن تقبلها عقولهم، لأن المسيحيين من أروام وبلغار وصربيين كان يدعون أنهم لا يلجأون إلى الثورة إلا من سوء الإدارة، وأن إذا اصطلحت الإدارة فهذه تكون غاية أمانيهم ويدخلون في الطاعة.

ويبين شكيب أرسلان بطلان هذا الادعاء فيقول: لم يكن هذا الادعاء صحيحاً، بل حقيقة الحال أنه سوء اصطلحت الإدارة العثمانية أم لم تصطلح فالبلغار إنما يجتهدون في ضم البلاد المأهولة بالبلغار إلى مملكتهم. واليونان إنما يسعون في ضم البلاد التي أكثرها منهم إلى مملكتهم ولن يرضوا بالبقاء تحت حكم الأتراك ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ولكن شبان الأتراك منهم من آمن بأقوال العصائب اليونانية والبلغارية، ومنهم [من] لم يؤمن بها، لكن كان يجد أن طريق النجاة لن يكون إلا بإعادة الدستور، وجعل الحكم في السلطنة للشورى كما هو في سائر البلاد.

ويذكر شكيب أرسلان أن الجمعيات الأرمنية في تركيا كانت تميل إلى إسقاط السلطان عبد الحميد، فمدّت أيديها إلى الأتراك الذين هجروا أوطانهم إلى أوروبا ومن هناك كانوا يصدرون الجرائد والنشرات التي تهاجم حكم السلطان عبد الحميد.١[1] وكان دور النصارى الأرمن وغيرهم بارزاً في تركيا، وكانوا يدّعون أن السلطان عبد الحميد ينكل بهم ويضطهدهم في حين كانت الأموال تغدق عليهم ليقوموا لمؤامراتهم ودسائسهم حتى أن السلطان عبد الحميد كتب في مذكراته فقال: أن الحملات الصليبية الموجهة ضد الدولة العثمانية لم تتوقف قط، ولا يزال غلادستون العجوز يسير على خط البابا في هذا السبيل، وهل تستحق الدولة العثمانية هذه الحملات وقد آوت النصارى الهاربين من جحيم الصراع المذهبي في الغرب خلال القرون الوسطى؟ ألم تكن الدولة العثمانية هي الملجأ الوحيد لليهود الناجين من بطش محاكم التفتيش في إسبانيا؟ ألم تبذل جمعية الهلال الأحمر العثمانية كل جهد ممكن لإيجاد المأوى والملبس لمن طرد من وطنه في سبيل معتقده؟ ولكن من يعرف هذه الحقائق التاريخية أو يعترف بها؟ فماذا يقول غلادستون وهو رجل إنجلترا الأول عن المسألة الشرقية سوى التعريض بنا بأن بلادنا تحكم بالقوة والبطش بلا قوانين ولا أعراف، ألم يثبت كذب ما ادّعوه من وقوع مذابح للبلغار والأرمن؟ ألم يتبين أن أمر التخريب الذي زعموه في المدن بعد طرد سكانها هو محض افتراء؟ وأن النصارى يعيشون مع المسلمين حياة طبيعية وجنباً إلى جنب؟

سيرى المراقب المحايد أن المسلمين هم أرحم قلباً من نصارى بلاد الشرق. هاهُم الإسبان وقد نشروا الرعب وفجروا صمامات الدم في كافة أنحاء إسبانيا، وهاهم الفرنسيون وقد ارتكبوا الفظائع في الجزائر،

وهاهم الإنجليز وقد قضوا على ثورة الهند، وها هي بلجيكا في الكونغو، وروسيا قد أعملت السيف في رقاب السيبيريين (المسلمين)، أفلا يرون إلا العثمانيين وقد عيل صبرهم من جرائم الأرمن جزاء على الإحسان الذي لقوه من الأتراك في بلاد الأتراك. أفي الأمر عجب إذا قام المسلمون للدفاع عن أنفسهم؟ لا تريد الدول الكبرى أن تفهم بأن الأرمن قوم عصاة حملوا السيوف والأسلحة للهجوم علينا. ولا تريد أن تعترف بأننا نحن أصحاب الأرض وسادتها. بل تسعى في كل مرة إلى إزعاجنا بطلب الامتيازات وبالمزعجات الأخرى، حتى الحقوق التي اعترف بها هذه الدول لإمارة موناكو لم تعترف بها للدولة العثمانية. إن الحملات الصليبية على الدولة العثمانية لا زالت مستمرة تحت أسماء وعناوين شتى.٢[2]

ولقد كان السلطان عبد الحميد على درجة كبيرة من الحذر تجاه هذه الأقليات من النصارى وغيرهم، ومع أن لم يكن يضطهدهم إلا أنه لم يكن يوليهم المناصب الحساسة في البلاد. فقد رفض مدحت باشا، وهو الصدر الأعظم يومئذ- في سن بعض الأعمال لتعيين ولاة من الأقليات في ولايات الأغلبية فيها مسلمون، وقبول طلبة من الأروام في المدرسة الحربية التي هي عماد الجيش. واعتبروا مثل هذه الأعمال كفيلة بتقويض الدولة من أساسها، ورفضَ توقيع مثل هذه القرارات.٣[3]

وهكذا اجتمعت مطامع اليهود والنصارى والتي تمخضت كما سبق عن إسقاط الخلافة بيد يهود سلانيك وبمآزرة من الدول الأوروبية.

ويبيّن السلطان عبد الحميد هذه الصلة بين اليهود ممثلين في المحافل الماسونية وبين النصارى الممثّلين بالدول الاستعمارية، فيقول: كما استغل الإنجليز غفلة تركيا الفتاة عن طريق المحافل الماسونية، بدأ الألمان يفعلون هذا مع الفريق الآخر منهم، وعن طريق المحافل الماسونية أيضاً، وبهذا الشكل سيطر الألمان على تشكيل تركيا الفتاة في سالونيك وسيطر الإنجليز على تشكيل تركيا الفتاة في مناستر.. وكان الإنجليز يثيرون على اتحاديي مناستر، ويثير الألمان على اتحاديي سالونيك. كانوا يعملون على قيام انقلاب للاستيلاء على الدولة من الداخل، ونجاح الإنجليز باستخدام اتحادي مناستر كان مصيبة لي، لأنهم كان سيزيلونني ويصلون إلى مرادهم، ولم أكن أخاف من اتحاديي الألمان لأن نجاحهم كان سيزيد من خوف إنجلترا.

واتحاديو سلانيك الواقعون تحت تأثير المحافل الماسونية الألمانية تحركوا لإسقاط الخلافة، والإنجليز بدءوا يدبرون محادثات سرية، ثم أصبحتُ أرى أن الحرب الكبرى التي أنتظرها وشيكة الوقوع،ولكن لم يكن أمامي إلا أن أترك الأحداث تسير حسبما تسير، ولم يكن أمامي غير منع إراقة دماء الأخوة.. ثم أسقطني اتحاديو سلانيك على العرش وتوصلوا إلى اتفاقية مع إنجلترا ودخلوا الحرب كحليف مع دولة تسود البحار.٤[4]

٣- سوء الأحوال الداخلية والخارجية

إن أحوال دولة الخلافة لم تكن مرضية في كثير من النواحي، فالانقسام في الأقطار الإسلامية كانت على أشده، وانشغال الآستانة بأحوالها وتدبير شئونها أمام المؤامرات والدسائس شغل دولة الخلافة عن بقية الأقطار فساءت الإدارة داخل الآستانة وخارجها وفي الولايات التابعة لها، فقد تفرّد كثير من حكام الولايات بحكم مطلق، فلم تكن هناك رقابة أو متابعة وظهرت أمارات الترف على طبقة الحكام، فساءت أحوال الرعية، فلا عناية بصحة أو تعليم، وكان المسلمون أسوء حالاً من المسيحيين لأن الجمعيات المسيحية خارج تركيا وداخلها كانت تعين النصارى بفتح المدارس ونشر العلم والثقافة بينهم.

وكان سوء الأحوال الداخلية مدعاة إلى استدانة الدولة، فكانت ديون الدولة في آخر أيام السلطان عبد الحميد ٢٥ مليون ليرة، فبلغت بعد ١٢ سنة في عهد عبد العزيز إلى ٢٥٠ مليون ليرة.٥[5]

وقد ساهم في هذا الضعف الداخلي تعدد الأجناس واختلافها وتعدد مطالبها الأمر الذي أشعل فيما بعد فتنة القومية، فأثار ذلك نوازع كل عنصر نحو الاستقلال وكانت البلقان وحدها تشمل البوسنة والهرسك وصربيا وألبانيا وبلغاريا ورومانيا، وكل منها لها مطالبها ومطامحها.

ولم تكن الدولة موازية أو مقاربة للدول الأوروبية من حيث الحركة العلمية والثقافية والتقدم العلمي في إنتاج الأسلحة الحديثة المتطورة، الأمر الذي جعل دولة الخلافة في منزلة دون أعدائها، مما جعل أطماع الدول الأوروبية تقوى مع مرور الأيام حتى استطاعت أن تملي ما تريد من شروط وضغوط فيما بعد.

ولم تكن أطماع هذه الدول بالأقطار الإسلامية التابعة لدولة الخلافة خافية على أحد، مما يجعل التفكير بإسقاط الخلافة أمراً ضرورياً لقتل الروح المعنوية لدى بقية المسلمين في شتى الأقطار، فإذا قطع رأس الدولة الإسلامية سهل بعد ذلك تقطيع أوصالها.

فأوجد اجتماع كل هذه الأمور وغيرها لدى الناس قناعة بضعف دولة الخلافة وأنها فعلاً الرجل المريض الذي لم يبق أمل في شفائه وأنه في طريقه إلى الاحتضار فالموت.

ولم تكن دولة الخلافة قادرة على رد كل هذه السهام رغم ما بذله السلطان عبد الحميد من حكمة وحسن تدبير ،ولكن كبر الخرق على الراقع.

ولو كان سهماً واحداً لاتقيتُه

ولكن سهم وثانٍ وثالثُ

الجواسيس:

ويعتبر البعض أن من أسباب سقوط الخلافة مسألة الجواسيس الذي كان يعتمد عليهم السلطان عبد الحميد، فيقول شكيب أرسلان: إن السلطان استكثر من الجواسيس وصار بأيديهم تقريباً الحل والعقد.

ويعلق شكيب أرسلان على هذا بقوله: وليس من الصحيح أن السلطان كان يعمل بموجب تقاريرهم كما هو شائع، بل كان يرمي أكثرها ولا يصدق بما فيها ولكن اهتمامه بقضية أخبار الجواسيس ألقى الخوف في قلوب الرعية وصارت في قلق دائم وأصبحت الناس تبالغ في الروايات عن الجواسيس فساءت سمعة الحكومة، وسخط الرأي العام على هذه الحالة، وبرغم ما كان السلطان يصفح ويعفو ويجود ويمنح كانت سمعته بعكس ما كان يفعل، وذلك بسبب كثرة الجواسيس وحصولهم على الحظوة عنده، فصار الناس يعللون جميع خطوب المملكة بسوء الإدارة بانتشار الجواسيس وفقد الحرية. ويعتبر شكيب أرسلان هذا التعليل صحيحاً إلى حد ما وليس على إطلاقه.٦[6]

والذي يدقق في أمر الخلافة في فترة السلطان عبد الحميد وما نشأ فيها من جمعيات علنية وسرية لإجهاض الخلافة والقضاء على السلطان عبد الحميد خصوصاً لما أعلن وقوفه بالمرصاد أمام كل هذه الجمعيات، فإنه سيعذِر عبد الحميد من اتباع هذه السياسة، حتى أن عبد الحميد بيّن ذلك في مذكراته فقال: معلوم أن التجسس أمر معيب، وكذلك التقارير التجسسية التي نشرتها الصحف، لكننا لا نستطيع الاستغناء

عنه. لا أظن في أي بقعة من بقاع الأرض دسائس ومؤامرات مثل التي تحاك في بلادنا، إلا أنني أعرف التمييز بين التقارير الصحيحة والتقارير الكاذبة. لقد تعرضتُ للاغتيال مرتين، وإني مدين بنجاتي من هاتين المحاولتين إلى يقظة بعض رجالي المخلصين. إن كثير من الضباط والموظفين الكسالى هم سبب تعاستنا.٧[7]

ويقول عبد الحميد في مذكراته أيضاً: علينا أن نعترف قبل أي أمر بأن جهاز الجاسوسية عندنا على درجة كبيرة من السوء بالرغم من أني أريد عمل كل شيء للاطلاع على ما يدور في الخفاء وما يحاك من مؤامرات.٨[8]

****

كمال أتاتورك يفصل الدين عن الدولة والخليفة عن السلطة

بعد أن تحولت الخلافة إلى جمهورية كان من الضروري في نظر مصطفى كمال أتاتورك أن يبتّ في قضية الخلافة. ووجد خصوم أتاتورك الذين لم يرضوا عن إعلان الجمهورية ولم يطمئنوا لازدياد قوة أتاتورك أن الأمل الوحيد في التخلص من هذه الحالة إنما يكون عن طريق مهاجمتهم لمصطفى كمال أتاتورك من ناحية الخلافة. وأخذت الصحف التي تصدر في إستانبول تقاوم الحكم الجمهوري علناً، ووجد مصطفى أنه من الضروري أن يعمل على إلغاء الخلافة قبل أن يصبح فيضان المعارضة السياسية والدينية جارفاً يكتسح السد المحكم الذي بناه، وعلى الأخص الخليفة لأنه كان موضع احترام ٣٥٠ مليون نسمة من المسلمين. وتقدّم مصطفى كمال بمقترح فصل الدين عن الدولة إلى مجلس النواب، ورأى أغلبية المجلس أن يناقشوا الفكرة وأن يتعرّفوا على حقيقتها وأن يزنوا نتائجها بضمائرهم وأفكارهم. وخاف مصطفى كمال من عقبى البحث والدرس، وطلبَ أخذ الرأي دون نقاش، ووافقه على ذلك أصدقاؤه من النواب.

إلا أن المجلس قرر إحالة الاقتراح إلى لجنة الشئون القانونية لتبدي أولاً وجهة نظرها فيه ثم تعرضه بعد ذلك على المجلس. وذهب الاقتراح إلى اللجنة التي عكفت على دراسته ولم تلبث طويلاً حتى رأت مخالفته الجلية لأصول الإسلام فرفضته.

وما أن رأى مصطفى كمال اتجاه اللجنة إلى رفض الاقتراح حتى فقد سيطرته على أعصابه وقفز فجأة ثم اعتلى مقعداً وهو يتميّز من الغيظ وصاح: «أيها السادة! لقد اغتصب السلطان العثماني السيادة من الشعب بالقوة، وبالقوة اعتزم الشعبُ أن يستردّها منه. إن السلطة يجب أن تفصل عن الخلافة وتلغى، وسواء وافقتم أم لم توافقوا فسوف يحدث هذا. كل ما هنالك أن بعض رؤوسكم سوف يسقط في غضون ذلك.» وكان يتكلم بلهجة الديكتاتور، فانفض اجتماع اللجنة. ثم دعيت الجمعية الوطنية من فورها لتناقش الاقتراح فجمع أنصاره من حوله وطلب أخذ الرأي عليه برفع الأيدي مرة واحدة، فاعترض النواب على هذه الخطة وقالوا: «إن كان لابدّ من أخذ الرأي فليكن مناداة بالاسم..» فرفض مصطفى كمال وصاح وفي صوته رنة التهديد قائلاً: «أنا واثق من أن المجلس سيقبل الاقتراح باجماع الآراء،ويكفي الأصوات برفع الأيدي»، ثم طرح الاقتراح على [الـــ]أعضاء فلم ترفع غير أيد قليلة لتأييده، لكن النتيجة أعلنت أن المجلس أقر الاقتراح بالإجماع، فدهش النواب لذلك وقفز بعضُهم فوق مقاعدهم محتجّين صارخين: «هذا غير صحيح ونحن لم نوافق!» فصاح فيهم أنصار الغازي يسكتونهم ويتبادلون معهم الشتائم.

ويصدر قرار المجلس الوطني التركي متضمناً الفصل بين الخلافة والسلطنة، أي جعل الخليفة مجرداً من السلطات واعتباره صاحب منصب ديني وشخصية روحية فحسب، مخوِّلاً تصريف أمور تركيا السياسية والإدارية للوزراء.

ويلاحَظ عند دراسة حيثيات هذا القرار أنه يتضمن مستفيضاً لتطورات الخلافة الإسلامية من نشأتها حتى آخر مراحلها محاولاً الاستناد إلى آراء الفقهاء والمتكلمين مستعرضاً الأحداث التي تعرضت لها الخلافة في أدوارها المتعاقبة.

ينقسم البيان الذي أصدره المجلس الوطني التركي إلى أربعة فصول يبدؤها بمقدمة عامة، ثم الفصل الأول خاص بتعريف الخلافة وتوضيح شروطها، والثاني بكيفية اكتسابها، والثالث يتعلق بتقسيم الخلافة أو تفريق السلطنة عن الخلافة ليصل إلى النتيجة التي يرمي إليها من البيان. وهذا عرض موجز لمضمون القرار:

يبدأ بتعريف الخلافة وإيضاح مفهوم أهل السنة له، وينتهي إلى أن الخلافة مسألة دنيوية سياسية أكثر منها دينية، ولذلك خلتْ النصوص الشرعية من إيضاحها بالتفصيل. وتعرض البيان إلى الأصوات التي تعارض القرار، وهو ما يدل على قوتها، فيذكر في إحدى عباراته: «وحيث أننا نلاقي أفكاراً باطلة وتعصباً لا مبرر له في شأن مسألة الخلافة في زماننا، كما هو الحال في كثير من الأحكام الشرعية سِواها، شرْعنا إلى تحرير هذه الرسالة، وغرضنا منها تصحيح الأفكار وتنوير الأذهان بتفهيم حقيقة هذه الشرعية».

أما في فصل تعريف الخلافة وإيضاحه فيقرن المجلس كلمة «الخلافة» بالإمامة، فهي مرادفة لها، ولكنه يحصر الخلافة بالخلفاء الراشدين وحدهم، والخلفاء بعدهم لم يكونوا في حقيقة الأمر سوى رؤساء جمهور المسلمين لأن ولايتهم سياسية إدارية وليست روحية.

وتنقل حيثيات القرار بعد هذا إلى عرض لما يُطلق عليه اسم «الخلافة الحقيقية والخلافة الصورية والحكمية». فالأولى هي الكاملة الجامعة للصفات والشروط والتي تمت عن طريق الانتخابات بواسطة الأمة، بخلاف الثانية وهي العارية عن هذه الشروط لأنها تمّت بالتغلب والاستيلاء، فهي ملك وليست خلافة من جهة، كما أن صاحبها لا تتوافر فيه الشروط اللازمة لها من ناحية أخرى شأن خلفاء الأمويين والعباسيين، ما عدا عمر بن عبد العزيز (١٠١ هـ - ٧١٩م) الذي اقتضى أثر النبي صلى الله عليه وسلم فألحقه البعض بالخلفاء الراشدين.

ثم يعتبر البيان أن الخليفة يعدّ من جهة نائباً عن النبي صلى الله عليه وسلم ومن ناحية أخرى نائباً عن الأمة الإسلامية بصفته وكيلاً عنها فيحق للأمة عزله.

أما فيما يتعلق بتقييد حقوق الخلافة وواجباتها فيعود البيان إلى تقسيم الخلافة السابقة إلى خلافة كاملة حقيقية وخلافة صورية حكمية، ليضع نتائج البحث في ضوء هذا التقسيم بأن الخلافة بالمعنى الأول لا يجوز تطبيقها لأنها خلافة نبوة، بخلاف الشكل الثاني لها وهي الخلافة الصورية فإنه يجوز تقييدها.

والنتيجة المباشرة لكل هذه المقدمات التي ساقها هو أن الخلافة بعد أن أصبحت مرادفة للملك والسلطنة لم تعد إلا من المسائل السياسية، لهذا يضعها المجلس بحيث «لا تضر فيها الأمة والبلاد بتصرفاتها الاستبدادية، وأبقى السلطنة في يد الأمة التي هي صاحبتها الحقيقية».

وتيقن الناسُ أن حكام أنقرة الجديدة كفرة، وصاروا يلتفون حول الخليفة عبد المجيد يحاولون إرجاع السلطة إليه ليكون الحاكم الحقيقي في البلاد فيقضي على هؤلاء المرتدين. وأدرك مصطفى كمال الخطر مجسماً، وعرف أن كثرة الشعب تكرهه وتصفه بالزندقة والإلحاد، فنشط في الدعاية ضد الخليفة والخلافة،

وأثار حماسة الجمعية الوطنية حتى سنّت قانوناً يقضي باعتبار كل معارضة للجمهورية وكل ميل إلى السلطان خيانة عقابها الموت.

وشرع مطصفىكمال يهيء الأجواء لإلغاء الخلافة. فقام النواب يتحدثون عن فائدة الخلافة لتركيا من الوجهة السياسية العامة، فقاومهم مصطفى كمال وقال: «أليس من أجل الخلافة والإسلام ورجال الدين قاتل القرويون الأتراك وماتوا طيلة خمسة قرون؟ لقد آن أن تنظر تركيا إلى مصالحها وحدها، وتتجاهل الهنود والعرب وتنقذ نفسها من زعامة المسلمين».

وكذلك سار مصطفى كمال في دعايته ضد الخلافة. ثم تابع حملاته على الخليفة، فأبرزه هو وأنصاره في صورة الخونة الذين يشتغلون لحساب الإنجليز. ولم يكتفِ بذلك، بل خلق موجة إرهاب ضد النواب الذين يريدون استبقاء الخلافة في تركيا، فإنْ أحدهم صرح بضرورة الخلافة ووجوب المحافظة على الدين فما كان من مصطفى كمال إلا أن كلف شخصاً باغتياله في الليلة التي تحدّث فيها. وألقى نائب آخر خطبة إسلامية فأحضره كمال وهدده بالشنق إذا فتح فمه بمثلها مرة أخرى.

وبذلك نشر الرعب في طول البلاد وعرضها، وضمن ألا يشغب عليه معارض. ثم أرسل إلى حاكم إستانبول بأمره بالتشديد على الخليفة وإنذار أتباعه كي يتخلوا عنه.

وفاجأ مصطفى كمال العالم الإسلامي والعالم أجمع في الساعة السادسة والنصف من صباح ٢ آذار (مارس) سنة ١٩٢٤ بإلغاء الخلافة، وطلب من الخليفة وأفراد أسرته مغادرة البلاد في عدة عشرة أيام، وحرّم عليهم الإقامة في تركيا، وألغيت كل الوظائف الدينية، وأصبحت أوقاف المسلمين ملكاً للدولة، كما أن المدارس تحولت إلى مدنية وباتت تحت رقابة وزارة المعارف.

وأسفر مصطفى كمال عن وجهه الحقيقي، وشرع يوجه الدولة الجديدة شطر العلمانية. واستهل عهده بترجمة القرآن الكريم إلى اللغة التركية، وبإلغاء وزارة الأوقاف الإسلامية ونظام الوقف والمحاكم الشرعية وقوانينها ثم عمد إلى رفع الحجاب وإلغاء تعدد الزوجات، وأمر بإلغاء الطرق الصوفية والتكايا ومصادرة أموالها وبإخلاء جامع آيا صوفيا وإعداده في مصافّ الآثار القديمة.

ثم منع الطربوش ودعا إلى استبداله بالقبعة عام ١٩٢٥، وعدّل الدستور لكي يحذف منه العبارة التي تنص على أن الإسلام دين الدولة عام ١٩٢٨، وألغى تدريس العلوم الدينية عام ١٩٢٩ وأدخل إلى الجوامع تلاوة القرآن بالتركية وحول الأذان إلى هذه اللغة عام ١٩٣٢، ورفع من برنامج جامعة إستانبول القسم الديني عام ١٩٣٣، وحظر على رجال الدين الاستمرار على التزيي بلباسهم القديم عام ١٩٣٤، وأعلن المساواة التامة بين الرجل والمرأة في الميراث، بالإضافة إلى تبديله الحروف العربية بالحروف اللاتينية، وحمل الشعب على تغيير أسمائهم وكناهم بأسماء وكنى ترجع إلى الطورانية وذلك أسوة به إذ سمّى نفسه أتاتورك عوضاً عن مصطفى كمال. وفرض القانون المدني السويسري وقانون الجرائم الإيطالي بعد التصويت عليهما في المجلس الوطني.

ثم اعترفت الدول بتركيا، وانسحب الإنجليز من إستانبول والمضايق وغادرها قائد قوات الحلفاء والصديق الحميم لمصطفى كمال: هارنجتون.

وعلى أثر ذلك احتج أحد النواب الإنجليز على كرزون وزير خارجية إنجلترا في مجلس العموم لاعترافه باستقلال تركيا، فأجابه كرزون قائلاً: «القضية أن تركيا قد قضي عليها، ولن تقوم لها قائمة لأن قد قضينا على القوة المعنوية فيها: الخلافة والإسلام».

وهكذا انتصر الغرب على الشرق وزالت الخلافة الإسلامية من الوجود بعد أن حكمت العالم أجمع بعدلها قرابة أربعة عشر قرناً.٩[1]

****

الأزهر يعقد مؤتمراً تاريخياً لإعادة الخلافة فيفشل المؤتمر

عندما سقطت الخلافة على يد مصطفى كمال وظهرت للمسلمين نواياه، كان الشعور العام في البلاد الإسلامية ساخطاً على هذه الخطوة الجريئة الدنيئة، وكان الاتجاه السائد يومئذ وجوب استمرار الخلافة، بانتقالها إلى بلد إسلامي آخر كمصر أو الحجاز أو غيرهما. ولقد فوجئ المسلمون في تلك الفترة بالملك حسن بن علي ملك الحجاز يعلن نفسه خليفة على المسلمين دون أن يكون ذلك عن مشورة من المسلمين، ورفضت مصر الاعتراف بخلافة الملك حسن، وحمي وطيس الكتابة في أمر الخلافة وأصبح حديث الساعة وشغل الصحافة الشاغل.. وبدأت الاجتماعات تعقد في شتى بقاع العالم الإسلامي خصوصاً في مصر والهند، وتمخضت عن هذه الضجة في العالم الإسلامي إلى ضرورة عقد مؤتمر عام يحضره ممثلون عن الدول الإسلامية كلها، وكانت فكرة ترشيح الملك فؤاد خليفة للمسلمين مثار جدل.. فهذا السلطان عبد الحميد يقول: «أرادالإنجليز أن يكون الخديوي في مصر خليفة للمسلمين، ولكن ليس هناك مسلم صادق واحد يقبل أن يكون الخديوي أميراً للمؤمنين، لأنه بدأ دراسته في جنيف وأكملها في فيينا وتطبع بطابع الكفار».١٠[1]

وقد أبان شفيق باشا أنه اجتمع لدى محمد سعيد باشا –وهو رئيس وزراء سابق- ببعض العلماء، ومن بينهم الشيخ محمد حسنين العدوي، ودار الحديث حول ما إذا كان طرد آل عثمان من تركيا وإلغاء الخلافة، فقال بعض الحاضرين: «ولِمَ لا تكون الخلافة للملك فؤاد؟ وما علينا إلا أن نجمع العلماء الموجودين في القطر المصري فينتخبونه ويبايعونه، وهكذا تتم لملك مصر». ولما وصل الاقتراح إلى الملك فؤاد، قال لسعد زغلول –رئيس الوزراء-: «كيف أقوم بالواجب نحو جميع المسلمين، مع أن حِملي ثقيل بالنسبة لمصر وحدها؟» وهذا الاقتراح نفسه لم يوافق عيه العلماء المجتمعون أنفسهم، بل انتهى رأيهم إلى وجوب عقد المؤتمر العام للمسلمين١١[2] على أن يكون مقر هذا المؤتمر القاهرة. ولقد قام على التمهيد لهذا المؤتمر الأمير عمر طوسون، ونشطت الجهود داخل مصر وخارجها لعقد هذا المؤتمر، فعقد في مصر مؤتمر كبير باسم الهيئة العلمية الدينية بالديار المصرية لبحث شأن الخلافة وللدعوة للمؤتمر الإسلامي العالم لجميع المسلمين. وكتبت فيه وثيقة، وسنذكر هذه الوثيقة كاملة لأهميتها، وكان ذلك في يوم الثلاثاء ١٩ شعبان سنة ١٣٤٢هـــ، الموافق ٢٥ مارس ١٩٢٤، حيث اجتمعت بالإدارة العامة للمعاهد الدينية هيئة علمية دينية كبرى تحت رياسة حضرة صاحب الفضيلة الشيخ أكبر شيخ الجامع الأزهر ورئيس المعاهد الدينية العلمية الإسلامية الشيخ محمود أبو الفضل الجيزاوي، وبعضوية أصحاب الفضيلة رئيس المحكمة العليا الشرعية الشيخ محمد المراغي، ومفتي الديار المصرية الشيخ عبد الرحمن قراعة، ووكيل الجامع الأزهر ومدير المعاهد الدينية الشيخ أحمد هارون السكرتير العام لمجلس الأزهر الأعلى والمعاهد الدينية الشيخ حسين والي، وشيوخ المعاهد الدينية الكبرى الشيخ محمد الأحمدي الظواهري، والشيخ محمد عبد اللطيف الفحام والشيخ عبد الغني محمود والشيخ إبراهيم الجبالي ومشايخ الأقسام بالجامع الأزهر والكثير من هيئة كبار العلماء منهم الشيخ بخيت والشيخ محمد شاكر والشيخ النجدي وشيخ الشافعية والشيخ أحمد نصر وكيل المالكية والشيخ سبيع الذهبي شيخ الحنابلة والشيخ عبد المعطي الشرشيمي وغيرهم من العلماء والمفتشين بالمعاهد الدينية، وقرّ قرارهم بعد بحث طويل على ما يأتي:

[كثر تحدُّث الناس في أمر الخلافة بعد خروج الأمير عبد المجيد من الأستانة واهتم المسلمون بالبحث والتفكير فيما يجب عليهم عمله قياماً بما يفرضه عليهم دينهم الحنيف. لذلك رأينا أن نعلق رأينا في خلافة عبد المجيد وفيما يجب على المسلمين اتباعه الآن وفيما بعد.

-الخلافة –وتسمى الإمامة- رياسة عامة في الدين قوامها النظر في مصالح الملة وتدبير الأمة. والإمام نائب عن صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم في الدين وتنفيذ أحكامه، وفي تدبير شئون الخلق الدنيوية على مقتضى النظر الشرعي.

-الإمام يصير إماماً بالبيعة من أهل الحل والعقد أو استخلاف إمام قبله لا بد مع هذا من نفاذ حكمه في رعيته خوفاً من قهره وسلطانه. فإن بايع الناسُ الإمامَ ولم ينفذ حكمه فيهم لعجزه عن قهرهم، أو استخلفه إمام قبله ولم ينفذ حكمه في الرعية لعجزه، لا يصير إماماً بالبيعة أو الاستخلاف. وتستفيد الإمامة أيضاً بطريق التغلب وحده، فإذا تغلب شخص على الخليفة واغتصب مكانه وانعزل الأول، وقد يوجد التغلب مع البيعة والاستخلاف كما حصل لأكثر الخلفاء في العصور الماضية، وهذا كله مستفاد صراحة من السادة الحنفية.

-ولما كان الإمام صاحب التصرف التام في شؤون الرعية وجب أن تكون جميع الولايات مستمدة منه وصادرة عنه، كولاية الوزراء، وولاية أمراء الأقاليم وولاية القضاء، وولاية نقباء الجيوش وحماة الثغور.

-وينحلّ عقد الإمامة بما يزول به المقصور منها كأسره بحيث لا يرجى خلاصه وعجزه عن تدبير مصالح الملة والأمة، ومتى وجد منه ما يوجب اختلال أحوال المسلمين وانتكاس أمور الدين جاز للأمة خلعه ما لم يؤد ذلك إلى فتنة، فإن أدى إليها احتمل أخف الضررين.

-رضي المسلمون الذين كانوا يدينون لخلافة الأمير وحيد الدين عن خلعه للأسباب التي علموها عنه، واعتقدوا أنها مبررة للخلع، ثم قدم الأتراك للخلافة الأمير عبد المجيد معلنين فصل السلطة جميعها عن الخليفة، ووكلوا أمرها إلى مجلسهم الوطني وجعلوا الأمير عبد المجيد خليفة روحياً فقط.

-وقد أحدث الأتراك بعملهم هذا بدعة ما كان يعرفها المسلمون من قبل، ثم أضافوا إليها بدعة أخرى وهي إلغاء مقام الخلافة.

-لم تكن خلافة الأمير عبد المجيد والحالة هذه خلافة شرعية، فإن الدين الإسلامي لا يعرف الخلافة بهذا المعنى الذي حدد له ورضيه، ولم تكن بيعة المسلمين له بيعة صحيحة شرعاً.

-وإذا غضضنا النظر عن هذا وقلنا أن البيعة صحت له، فإنه لم يتم له نفوذ الحكم الذي هو شرط شرعي لتحقيق معنى خلافته.

-وإذا فرض أن تم له وصف الخلافة بمعناها الشرعي فقد انحل عنه ذلك الوصف بعجزه حقيقة عن القيام بتدبير أمور الدين والدنيا، وعجزه عن الإقامة في بلده ومملكته وعن حماية نفسه وأسرته بعد أن تم للأتراك تغلبهم عليه.

-والنتيجة لهذا كله أنه ليس للأمير عبد المجيد بيعة في أعناق المسلمين لزوال المقصود من الإمامة شرعاً، وأنه ليس من الحكمة ولا مما يلائم شرف الإسلام والمسلمين أن ينادوا ببقاء بيعة في أعناقهم لشخص لا يملك الإقامة في بلده ولا يملكون هم تمكينه منها.

-ولما كان مركز الخلافة في نظر الدين الإسلامي ونظر جميع المسلمين له من الأهمية ما يعدله شيء آخر يترتب عليه من إعلاء شأن الدين وأهله، ومن توحيد جامعة المسلمين وربطهم برباط قوي ومتين وجب على المسلمين أن يفكروا بنظام خلافتهم، وبوضع أسسه على قواعد تتفق مع أحكام الدين الإسلامي، ولا تتجافى مع النظم الإسلامية التي رضيها المسلمون نظماً لحكمهم.

-غير أن الضجة العنيفة التي أحدثها الأتراك بإلغاء مقام الخلافة والتغلب على الأمير عبد المجيد جعلت العالم الإسلامي في اضطراب لا يتمكن المسلمين معه من البتّ في هذه النظم، وتكوين رأي ناضج فيها، وفي من يصح أن يختار خليفة لهم إلا بعد الهدوء وبعد الإمعان والروية، وبعد معرفة وجهات النظر في مختلف الجهات.

لهذا الأسباب نرى أن لابد من عقد مؤتمر ديني إسلامي يدعى إليه ممثلو جميع الأمم الإسلامية للبت فيما يجب أن تسند إليه الخلافة الإسلامية، ويكون بمدينة القاهرة تحت رياسة شيخ الإسلام بالديار المصرية، وذلك نظراً لمكانة مصر الممتازة بين الأمم الإسلامية، وأن يكون عقد المؤتمر في شهر شعبان سنة ١٣٤٣هــجري/مارس ١٩٢٥ ميلادي.

-ولا بد لنا من إعلان الشكر لكل من أبدى غيرة دينية إسلامية في أمر الخلافة وأظهر اهتماماً بهذا الواجب.

-ونعلن كذلك شكرنا للأمم التي تدين بأديان أخرى غير الدين الإسلامي ولدول تلك الأمم على ما أظهروه إلى الآن من ابتعادهم عن التدخل في شؤون الخلافة الإسلامية ونرجوا منهم أن يلاحظوا أن مسألة الخلافة مسألة إسلامية محضة لا يجوز أن تتعدى دائرتها ولا أن يهتهم بها أحد من غير أهلها، والعالم الإسلامي جميعه يريد أن يعيش بسلام مع الأمم الأخرى وأن يحافظ على قواعد دينه الحقة ونظمه البريئة بطبعها من روح العدوان.

-هذا ما رأينا من الواجب الديني علينا إذاعته إلى العالم الإسلامي في مختلف بقاع وإلى الأمم الأخرى ليكون الجميع على بينة من الأمر.

القاهرة في:

٩ شعبان سنة ١٣٤٢ هجري

٢٥ مارس سنة ١٩٢٣ ميلادي

ويلي ذلك الامضاءات].١٢[3]

وواضح من هذه الوثيقة التاريخية أن المؤتمرين يجمعون على عدم شرعية خلافة عبد المجيد لأنه لا يباشر صلاحيات هذا المنصب الخطير، ولأن فصْل الدين عن الدولة معناه زوال منصب الخلافة إذ ليست مهمة الخلافة الناحية الروحية فقط، كما أرادها جماعة الاتحاد والترقي، ومع ذلك فهم يجمعون بضرورة استمرار الخلافة ويجعلون ذلك مهمة البلاد الإسلامية ولذلك دعوا إلى عقد هذا المؤتمر العام. ولكن المؤتمر لم يعقد إلا بعد عامين، ولم يجتمع إلا لينفضّ ويعلن فشله وينتهي أيُّ تفكير في إعادة الخلافة عن طريق المؤتمرات، فقد رأي المؤتمرون أن الوقت غير صالح للفصل في الخلافة على وجه يرتضيه الشرع وقرروا إرجاء ذلك إلى وقت مناسب.

ولقد لعبت إنجلترا دروها الخبيث في إفشال محاولات إعادة الخلافة، فقد كانت دسائسها من وراء فشل المؤتمر. وهي التي شجعت الملك حسين على أن يعلن نفسه خليفة على المسلمين لتحدث بذلك بلبلة في البلاد الإسلامية وفي نفس الوقت تقضي على ما قد يحدث من تحركات لترشح آخرين من رؤساء البلاد الإسلامية، وليكون الأمر رغبات شخصية وليس منبثقاً عن رأي جمهور المسلمين وبهذا تحقق انجلترا والدول الأوروبية أغراضها التوسعية والاستعمارية في البلاد الإسلامية.

وحاول محمد أمين الحسيني رئيس المجلس الإسلامي بفلسطين عقد مؤتمر إسلامي فدعا إلى مؤتمر في القدس ينعقد بتاريخ ٢٦ رجب سنة ١٣٥٠ هجري، وجاء في الدعوة أن الغرض من المؤتمر في النظر في أمور تهم المسلمين.١٣[4] وواضح فشل المؤتمر من غموض أهدافه وعدم الجرأة حتى على إعلان موضوع الاجتماع.

وفي دلهي في الهند عقد مؤتمر تحت اسم «مؤتمر الخلافة الهندي العام» برئاسة الشيخ محمد علي.١٤[5] وقد قام هذا المؤتمر بجمع كلمة المسلمين في القارة الهندية لمؤازرة المؤتمرات التي أعقبت سقوط الخلافة خصوصاً في فلسطين.

سقوط الخلافة أثّر في بناء العالم الإسلامي

وكان فاصلاً بين عهد الإسلام وعهد الاستعمار

شاعرنا شوقي ينخدع في كمال أتاتورك ثم يفيق ويفيق معه كثيرون

أحدث سقوط الخلافة الإسلامية دوياً عظيماً في العالم الإسلامي والعلم أجمع وكان الأمر يستحق أكثر من دوي يذهب أدراج الرياح، كان المفروض أن يتبع هذا الدوي عمل مستمر لإعادة صرح الخلافة الإسلامية لأن سقوط الخلافة يعني تجريد المسلمين وأراضيهم من سلطة راشدة يحسب لها الأعداء ألف حساب وحساب، تجريديهم من السياج الذي ظل يحميهم في كل أطواره يوم أن كانت خلافة راشدة وحتى يوم أن أصبحت ملكاً عضوضاً فكانت في كل الأحوال سياجاً يلقي الرعب في قلوب الأعداء كلما تنادى المسلمون لدرء الخطر عن الخلافة.

إن سقوط الخلافة الإسلامية بعد استمرار دام قرابة ثلاثة عشر قرناً أمر يستحق أن يقف عنده المفكرون والمحللون فينظروا فيه ويحللونه من وجهة نظر دينية سياسية ويوازنوا بين المصالح والمضار في وجود الخلافة أو زوالها، وعلى القادة الذي يريدون لأنفسهم وشعوبهم أن يفتحوا ملف الخلافة الإسلامية ليأخذوا منه الدروس والعبر وعلى الدعاة قبل هؤلاء جميعاً أن ينظروا هذا الأمر ويرسموا الخطى للوصول إليه فهو هدفهم من الحركة والدعوة. ينبغي إحياء هذا الأمر في نفوس الشبيبة وليكن حديث المجتمعات المسلمة.

إن سقوط الخلافة يطرق في مناهجنا على أنه خبر تاريخي فحسب بينما هو مؤشر سقوط أمة وانهيار حضارة وفقدان شخصية ينبغي أن تصب مناهجنا الدراسية كلها لتغذي هذا المعنى وتحييه. إنه أمر يحتاج من الدعاة أن يجعلوه حديث المجالس والمنتديات والصحافة. إنّ فتح ملف الخلافة معناه البدء في معرفة طريق الحل لمشاكلنا الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية.

سقطت الخلافة الإسلامية بعد أن اجتمعت عليها قوى الشرق والغرب الكافر من الصليبيين واليهود ومن والاهم فأفسدوا أحوال المسلمين وديارهم، ثم أوهموهم أن الخلافة هي سبب تأخرهم وفساد أحوالهم وأن صلاح أمرهم مرهون بزوال الخلافة، ولقد نجحوا في هذه الفرية إلى حد بعيد. فحين أسقطوا الخلافة هلل لهذا السقوط شباب الإسلام الذين تربوا على موائد الغرب والمدارس الأجنبية في داخل بلادهم وخارجها فكانوا يرضعونهم منذ الصغر مبادئ الكفر والإلحاد بدعوى أن الدين لا يتفق مع روح العصر الحديث وأن الحضارة الأوروبية هي الرائدة وهي التي حققت السعادة والتقدم والرقي والمساواة بين الشعوب وأن محاكاة الغرب وأحواله هي بداية الطريق لحياة أفضل.

إلا أن القسم الأكبر من المسلمين المخلصين المفكرين منهم وعموم الشعوب الإسلامية هالها هذا السقوط وتذكرت تلك الخلافة التي طالما ردت جحافل الصليبيين وأعوانهم، وطالما شع نورها وهدايتها في شرق العالم وغربه وشماله وجنوبه، كان عزيزاً على المسلمين أن يفقدوا تلك الخلافة، ورغم أن هذا السقوط كان مخططاً له تخطيطاً دقيقاً ماكراً حتى يسقط وللمسلمين رغبة في هذا السقوط ويسقط تدريجياً لا فجأة، ومع ذلك كانت هناك ردود فعل متفاوتة في العالم الإسلامي. ونستطيع تسجيل تفاوتها في الأمور التالية:

أولاً: المشاعر: فلقد كانت مشاعر السملمين ضد هذا السقوط في داخل تركيا وخارجها وقد استبشر كثير من المسلمين بالديكتاتور مصطفى كمال أتاتورك بادئ الأمر، بل علقوا عليه كثيراً من الآمال باسم التقدم والحضارة، وكان بعضهم يظن أنه سيعيد للخلافة قوتها وهيبتها، بل وصل حسن الظن ببعضهم أن عرضوا عليه منصب الخلافة نفسه! حتى شاعرنا أحمد شوقي قال قصيدته العصماء يمتدح فيها مصطفى كمال ويشبهه بخالد بن الوليد ويمتدح انتصاراته قبل أن يكشف له عن دناءة نفسه وخبث نواياه، فيقول:

اللهُ أكبر كم في الفتح من عجبِ يا خالد الترك جددْ خالد العربِ

صلح عزيز على حرب مظفرة فالسيف في غمده والحق في النصبِ

يا حسن أمنية في السيف ما كذبتْ وطيب أمنية في الرأي لم تخبِ

خطاكَ في الحق كانت كلها كرماً وأنت أكرم في حقن الدم والسربِ

حنوت حرب (الصلاحيين) في زمن فيه القتال بلا شرع ولا أدب

لم يأتِ سيفُك فحشاءَ ولا هتكتْ قناك في حرمة الرهبان والصلب

سئلت سلماً على نصر فجدت بها ولو سئلت بغير النصر لم تجبِ

مشيئة قبلتها الخيل عاتية وأذعنَ السيفُ مطوياً على غضب

أتيت ما يشبه التقوى وإن خلقت سيوف قومك لا ترتاح للقرب

ولا أزيدك بالإسلام معرفة كل المروءة في الإسلام والحسب

تدرعتْ للقاء السلم «أنقرةٌ» للخطب »لوزان«ومهد السيف في

لم يغن عن قادة اليونان ما حشدوا من السلاح وما ساقوا من العصب

وتركهم «آسيا الصغرى» مدججة كثكنة النحل أو كالقنفذ الخشب

للترك ساعات صبر يوم نكبتهم كتبن في صحف الأخلاق بالذهب

سفينة الله لم تقهر على دسر في العاصفات ولم تغلب على خشب

قد أمن الله مجراها وأبدلها بحسن عاقبة من سوء منقلب

واختار ربانها من أهلها فنجت من كيد حام ومن تضليل منتدب

حتى قال:

تحية أيها الغازي وتهنئة بآية الفتح تبقى آية الحقب

وفيما من ثناء لا كفاء له إلا التعجب من أصحابك النجب

الصابرين إذا حلّ البلاءُ بهم كالليث عضّ على نابيه في النوَبِ

والجاعلين سيوف الهند ألسنهم والكاتبين بأطراف القنا السلب

لا الصعب عندهم بالصعب مركبه ولا المحالُ بمستعصى على الطلب

ولا المصائب إذ يرمي الرجالُ بها بقاتلات إذا الأخلاق لم تصب

أخرجب للناس من ذل ومن فشل شعباً وراء العوالي غير منشعب

وأرج الفتح الحجاز وكم قضى الليالي لم ينعم ولم يطب

وازَّيّنت أمهات الشرق واستبقت مهارج الفتح في الموشية القشب

هزمت دمشق بني أيوب فانتبهوا يهنئون بني حمدان في حلب

ومسلمو الهند والهندوس في جذل ومسلمو مصر والأقباط في طرب

ممالك ضمها الإسلام في رحم وشيجة وحواها الشرق في نسب

من كل ضاحية ترمي بمكتحل إلى مكانك أو توفي بمختضب

تقول لولا الفتى التركي حل بنا يوم كيوم يهود كان عن كثب

ولعل شعر شوقي هذا يعطينا صورة حية لمشاعر الناس التي كانت تتعلق في شيء فيه بقاء واستمرار للخلافة، لكن المظاهر كانت غير البواطن. كانت أوروبا وصنيعتهم اليهودي مصطفى كمال تدرك عمق الخلافة وحساسيتها في نفوس المسلمين فعالجوا مشاعرهم بهذا الأسلوب الماكر فأخفوا السم في الدسم حتى إذا حانت ساعة الصفر وبلغوا من الشجر ثماره وكانوا قاب قوسين أو أدنى من هدفهم كشفوا عن ضغينتهم وأعلنوها علمانية حمراء فانتبه مَن أحسن الظن من المسملين وندم ولات ساعة مندم، وعاد شاعرنا شوقي يسفه الأحلام التي سطرها في مصطفى كمال ويجعل من عرس عودة الخلافة مأتماً وقبراً تدفن فيه تلك الخلافة، وبدا للعيان أن انتصارات مصطفى كمال الحربية والسياسية عام ١٩٢٣م لم تكن سوى طعماً لتخدير المسلمين وليشهدوا سقوط الخلافة عام ١٩٢٤م، فقال شوقي حزيناً معبراً عن خيبة الأمل:

عادت أغاني العرس رجعَ نواح ونعيتْ بين معالم الأفراح

كفنتْ في ليل الزفاف بثوبه ودفنت عند تبلج الإصباح

شيعتْ من هلع بعبرة ضاحكة في كل ناحية وسكرة صاح

ضجت عليك مآذن ومنابرُ وبكتْ عليكِ ممالكُ ونواح

الهند والهةٌ ومصر حزينة تبكي عليك بمدمع سحاح

والشام تسأل والعراق وفارسُ أمماً من الأرض الخلافة ماح

وأنت لك الجمع الجلائل مأتماً فقعدن فيه مقاعد الأنواح

ياللرجال لحسرة مؤودة قتلتك سلمها بغير جراح

هتكوا بأيديهم ماءة فخرهم موشية بمواهب الفتاح

نزعوا من الأعناق خير قلادة ونضوا عن الأعطاف خير وشاح

حسب أتى طول الليالي دونه قد طاح بين عشية وصباح

وعلاقة قصمت عرى أسبابها كانت أبر علائق الأرواح

نظمت صفوف المسلمين وخطوطهم في كل غدوة جمعة ورواح

بكت الصلاة وتلك فتنة عابث بالشرع عربيد القضاء وقاح

أفتى خزعبلة وقال ضلالة وأتى بكفر في البلاد بواح

إن الذين جرى عليهم فقهه خلقوا لفقه كتيبة وصلاح

ولما أيقن شاعرنا أنه ومن على شاكلته قد وقع في الشرك وأيقن أن المسلمين لا يستطيعون أمام هذا الواقع تحريك ساكن، قال:

أدّوا إلى الغازي النصيحة ينتصح إن الجواد يثوب بعد جماح

إن الغرور سقى الرئيس براحه كيف احتيالك في صريع الراح

وإذا كان شوقي يمثل هذا القطاع من المسلمين الذين أحسنوا الظن فإن انكشاف الأمر جعل أمثال هؤلاء يحنون إلى ظل الخلافة الإسلامية ويتوقون إليها رغم ما فيها من ضعف وهوان، ويضمون مشاعرهم إلى سواد المسلمين الآسف.

خـــــــــاتمة لابد منها

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى اله وصحبة الطاهرين

أما بعد :

حينما تكالبت الوحوش في وجه الحق والعدل ، وفي غفلة من الزمان الغابر ضاعت حقوق الخلافة العثمانية

وضاعت معها عزة العرب والمسلمين فكان لابد من الخروج لكل بغيض وقف سلاطين ال عثمان منه كطود راسخ لم يعرف يوماً أنواع الهوان والذل ....

ولكن اليوم مع تغير المفاهيم وتبدل الاحوال أظهر هؤلاء الناس (مع اهمال ترتيب المكانة) أنفسهم بمظهر الوطنيين اللذين دافعوا عن أرضهم وأبرقوا للعالم تركيا اليوم ،بل وجعلوا من سلاطين ال عثمان أناس لم تعرف الرحمة طريقها الى قلوبهم وتمتعوا بجميع ماحوته كلمة الاستبداد من معنى

ولئن كنا لا نستغرب أن يحمل الحقد الأسود أولئك المدلسين على تجاهل وتناسي أبسط قواعد مقتضيات الأمانة في عملية التاريخ للأتراك العثمانيين المسلمين، فإن الذي نستغربه أشد الاستغراب، بل ونستهجنه بشدة أن ينزلق الكثير من المسلمين ، في حمأة عملية التزوير والتشويه والبهتان التي ألصقت بتاريخ العثمانيين المسلمين ..

ختاماً نرجوا من الله تعالى أن يكتب لهذا التحقيق النجاح والانتشار ، لكي يعرف كل مسلم واجبه تجاه العثمانيين

أو لكي تتجلى له الحقائق واضحة بعيدا عن كذب الكاذبين و وساوس الشياطين ....

والحمد لله رب العالمين

مصادر البحث

مجلة الفسطاط التاريخية

موقع التاريخ دوت كوم

عبد الحميد بين الانصاف والجحود
د.مصطفى الهلالي

العثمانيون في التاريخ والحضارة
د.محمد حرب

محمد خير فلاحة

جميع الحقوق محفوظة
www.smart10.com
copy right © 2005